ضوّة

الكتاب: ضوَّة

رواية

رأفت سليمان

الطبعة الأولى 2018

رقم الإيداع: 16364/ 2018

الترقيم الدولي: 978-977-6667-34-1

الناشر: السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام: لمياء السعيد

36 شارع عبد الحميد الديب بجوار شركة القاهرة للأدوية شبرا مصر برج الهادي.

0222017260
01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رأفت سليمان

ضوّة

رواية

إهداء

إلى روح صديقي خالد الحاج الذي طالما حثني على الكتابة وشجعني على النشر . .

إلى صديقي الروائي شوقي بدري . .

إلى صديقي الكاتب عبد الله الشقلّيني وشقيقه الشاعر سعادة السفير "جمال محمد إبراهيم" . .

وإهداء عزيز للصديقين الأخ بدر الدين الرشيد علي، والأخ المعتصم محيي الدين . .

ولكل مَن شجعني على الكتابة . .

مقدمة

لا يعرف الإنسان أين سيولد ومتى سيموت وكيف سيعيش. تستهوني فكرة تناسخ الأرواح وليس مقتنع بها فلا يوجد شيء مقنع في رحلة الحياة وليس من المجدي التفكير فيما بعدها. رفض الأنسان فكرة الفناء يجعله دائماً يفكر ما بعد الموت لذا وجدت الأديان والمعتقدات والفلسفة رواجا في نفسه.

الحقيقة المجردة بأن خيار الإنسان ينحصر في واقع لا يد له في صنعه فهو لن يختار أمه أو أباه أو وطنه أو دينه أو لغته.

نحن قطع تتحرك في يد لاعب كبير نسميه القدر ونسميه الإله وكل المسميات سواء كانت في أي دين وفى أي معتقد وفى أي فلسفة اعتنقناها.

(1)

جلس عبدون داخل كوخه العتيق على مخدع متهالك يفرك على ذقنه الأشعث بضجر ونفاد صبر متجولاً بعينيه الزائغتين في أرجاء الكوخ كأنه يتعرف عليه لأول مرة. تركز نظره على سقفه المائل الذي يوحى بالسقوط في أي لحظة. ناء المخدع من تحته وهو يقف على قدميه بعناء يجمع أجزاءه في بناء واحد. تقدم خطوتين متثاقلتين على قدم دون الأخرى وأخذ يتفحص الصدع على السقف المنخفض عن قرب ويمرر عليه يده كأنه يعيد ترتيبه بذاكرته كما كان. تحول وجهة بلفتة خاطفة وبنظره متحفزة تجاوباً مع شهقة من زوجته في المخدع المقابل طال انتظاره لها. عاد إليها أقل وزنًا ووقف قبالتها يرقب انقباض وانبساط سحنتها في رحلة العبور. برقت عيناه وتلاحقت أنفاسه يحث أنفاسها لتستكمل خروجها. سكن عندما سكنت ودنا منها خطوة وانحنى على وجهها يرقب فيه ثبات الموت بدهشة. مد يده وربت عليه بانتماء دافق لم يألفه نحوها يوماً في ضجيج حياته. استكان ضجره واعترته نشوة ورغبة جامحة لكوب ممتلئ بالخمر فغادر صوب الباب.

أفسح له جمع النساء القابعات في الخارج وأعينهن كلها تساؤل في انتظار خبر لا ينتظرن أي أمل في تبدله. شق طريقه بينهن متجاهلًا وجودهن تمامًا. لم يتحرك أحد من الرجال من أماكنهم وجلهم مطأطئ على الأرض وتحركوا بتكاسل متجمعين بعد أن غادر هو المكان غير مكترثين به. أنين النساء بالفجيعة شق السكون ودأبت حركتهن وكثر تكدسهن أمام مدخل الكوخ وقليلات اللائي ولجن داخله. بينما الجميع مهتمون بالمرأة السجية على الفراش تقدمت هجلة من الطفل النائم قربها وحملته ضمًا تدفن وجهه في صدرها بيده كأنها تحجب عنه الحقيقة. وهي تغادر الغرفة توقفت تنظر إلي والدته نظرة أخيرة وطبعت قبلة على رأس الطفل كأنها توعدها.

****

نشأ خليل صبياً وادعًا هادئًا بعكس أخيه حمدون من أمه هجلة الذي كان يملأ الدنيا ضجيجاً بحيويته. ولم يفقد انتماءه لأمه هجلة وزوجها عندما أخبرته مقتضبة عن أبيه ولم تحدثه كثيرًا عن والدته وهو لم يلح هو في السؤال ولكن همه أصبح مراقبة والده عن بعد وهو يعود مخمورًا حتى يختفي خلف الربوة التي تطل على النهر. كانت هجلة ترقبه بأسى وحب كبيرين وقد شب صبياً مفتول العضلات متفانياً في مساعدتها وزوجها في الحقل عكس أخيه الذي انتظم في دروس العبادة التي كانت تستهويه.

عاد يومًا في المساء برفقة أخيه فأنتبه أن هجلة غير عادتها جالسة منتصبة في فناء المنزل ترقبه. عندما أوكلت مهاماً لابنها فهم فوراً أنها

تريد أن تختلي به فتوقف أمامها في تهيب وانزعاج. تقدم منها بدعوة من يدها لم ير فيها نذير ولكن عندما نظر إلى عمه من طرف خفي لم يغب عنه ترقبه رغم انشغاله بترميم حائط المنزل فأحس برهبة أفقدته استقراره. أجلسته هجلة قبالتها قابضة على يده بقوة تمنحه الأمان وقالت له بحزم متأملة في وجهه:

– أنت ابنى وستظل ابنى ولن ينتزعك منى أحد وأريدك أن تسمعني جيداً

❊ ❊ ❊

(2)

هجد خليل على مضجعه تتنازعه مشاعر شتى لا يدري إن كان هو خوف أو رضاء أو رغبة ملحة في لقاء المجهول. أسهبت معه هجلة في حكايات عن والدته ومودتها كأنها شقيقتان وهو يرقبها بصمت في انتظار ما سيأتي من خلف ذلك الحديث. لم تروى له عن والده بتلك المودة وانتقلت في السرد عن عمله الموسمي في الجنوب وجلب الأخشاب عطية النهر والإتجار بها شمالاً مع بلاد ذوي البشرة البيضاء. اختتمت حديثها تحثه برغبتها أن يرافق والده في عمله والعودة لأحضانها التي ستظل دواماً مفتوحة إليه.

قضى نصف ليلته مفتوح العينين متهيبا من مقابلة أبيه ومتوجسًا من المغامرة الضخمة التي رسمتها هجلة في خياله. في اليوم التالي أيقظته فجرًا وبتعجل تبعها للحاق بوالده قبل أن يغادر لقاع القرية. تبعها متأخراً قليلاً وعيناه متعلقتان بالربوة التي تطل على النهر التي لم يعتلِها منذ أن

عرف أن ذلك الكوخ المهجور خلفها يقطنه والده. تسارعت دقات قلبه وهو يراه من أعلى الربوة يجلس أمام الكوخ المتهالك بشبه استلقاءه.

لم يهب عبدون لاستقبالهما مكتفيًا بنظرة رغم قصرها تفحصت وجه الصبي. أمسكت هجلة بيد خليل كأنها تحميه وفاضت في حديث طويل معه عن حقه في ابنه وواجبه في انتصاب عوده. ولجت دون موارية في الحديث عن رحلته وإلزامه بمرافقة ابنه له. طيلة الحديث لم يكن هناك رد فعل من الرجل يوحى بالتقبل أو النفور مما جعل هجلة تعيد وتزيد في الحديث دون نفاد صبرها. نظر إليها بغتةً كأنه ينهى المقابلة قائلاً بصوت أجش:

– سوف أغادر بعد ثلاث ليالٍ

صمتت هجلة فورًا دون تعقيب وكما خاضت حديثها معه دون تحية فارقته بدون وداع ممسكة بيد خليل تدفعه أمامها. تلفت هو عدة مرات قبل أن يختفي المنزل خلف الربوة يراقب والده مستكين في جلسته لا ينظر إليهما وهجلة تواصل سيرها بحزم تنظر أمامها.

****

رحلة خليل مع والده شقت عليه بادئ الأمر ولكنه سرعان ما اعتاد رفقته. بينهما صمت مطبق يقطعها أحيانًا عبدون بصوته الأجش بإرشادات مقتضبة لا ينتظر منها استجابة. بذل جهده في إنجاز كل شيء دون جدال وعندما ينجح لا ينتظر استحسان وعندما يفشل يقوم والده بإتمام الأعمال بدون ملامة أو ضجر. اعتاد الأسفار التي كان ينتظرها

متشوقاً وعند عودته يعود إلي هجلة بشوق أكبر. أصبح لا يهتم بمراقبة والده أو لقائه طوال العام الذي يقضيه عبدون في قاع القرية. آخر رحلة له معه وهو صبي راشد التصقت بذاكرته ولازمته طيلة مشواره في الحياة. أهاجت أحزانه وأفراحه ورسمت معالمه واستمد منها الضعف والعزم في مسيرته.

رفقة الأسفار بين خليل وعبدون لم تقرب بينهما. إتقان خليل لمهامه قلل الحاجة لبعضهما البعض وزادت الهوة بينهما. ابتعد عنه والده تاركًا له أعظم المهام يقررها وينفذها كما هواه. تبدأ الرحلة قبل فورة النهر ويتوغلان أيام وليالي مبحرين جنوبًا. زادهما قطع من الطحين المتيبس واللحم والمجفف وأسماك مملحة تزوده بها هجلة. خاتمة الرحلة عند منطقة تكثر فيها الصخور حيث ينحسر النهر ويكون عمقه بالكاد يبتلع رجلاً. يرسو القارب على شاطئ النهر قبل أن يصطدم بقاع النهر.

يتشوق خليل لتلك البلاد حيث تكثر فيها السحنات واللهجات. والده يتركه وحيداً ويعود مع خيوط الفجر مخموراً ويغط في نوم عميق حتى منتصف نهار اليوم التالي. يتسلل هو نهارًا ويجوب بين فرق القبائل البدوية النازحة من غرب البلاد في تلك الفترة من العام حيث يهجر الرجال الفريق نهارًا إلى المراعي وبعضهم يعملون في الحقول. يتبقى النساء في الفرقان يصنعن الطعام والخمور من الذرة والتمور لجموع النازحين من أرجاء البلاد المتبطلين في انتظار قدوم النهر لتمر مراكبهم مع تجارة الشمال أو صيداً للأخشاب العملاقة هبة النهر التي يمتهنها والده.

يعمل خليل في خدمة النساء في تكسير أغصان الأشجار الضخمة المتيبسة وقود لنيران الطبخ أو نقل الأواني الثقيلة لغسلها في النهر مقابل جزيئات صغيرة من العملة النحاسية وبعض الطعام. يجمع النقود لرحلة العودة إلى بلاد الشمال في زيارة تلك المدن التي تضج بالحياة وتكثر مغرياتها.

قابل خليل فتاة بدوية حسناء في إحدى الفرقان استلبت لبه وأشعلت شبقه. عندما لحظت الفتاة اهتمامه بها تعمدت مقاطعته وتفننت في جذبه وصده. صمته وحزمه جذبها وعمدت بخبث أنثوي كسر تماسكه وهي تحتمى منه وسط رفيقاتها داخل الفريق. رغم حرصه إظهار جديته يعتمل صدره وتفضحه عيونه فتتعالى ضحكات الفتيات مما يثير حنقه. عندما يصادفها وحيدة يتحول عبثها إلى تهيب في قلبها وهي تحس بوخز نظراته الملتهبة فتتحاشاه تماماً. وسط زميلاتها صارت أكثر رزانه وقد اعتراها شعور قوى نحوه وصارت تتشوق لرؤيته وتتحين مقابلته. تابعته عن بعد وعرفت مكان إقامته في قارب والده. انتقلت اللقاءات بشاطئ النهر بعيدا عن الفريق أكثر حرية وقصرت بينهما المسافات. تبادلا التحية بإيماءة خفية ونظرات مفعمة بالقبول. تأخرت يوماً عن زميلاتها كأنها حزمت أمرها. توثق هو من ذلك من ضحكات صديقاتها الإيحائية عند فراقها. كانت الشمس تميل إلى الغروب فتقدم منها ومد لها يده مصافحاً. حالما أصبحت كفها في حضن كفه جذبها يحثها على السير معه. لم تعانده وسارت بجانبه سليبة من كل أرادة. ساعدها لتعتلي القارب فلم تتردد. لحق بها داخل القارب وقد تمكنه شبق جارف ارتجف له بدنه واحمرت

عيناه. أنقض عليها بعنف لم تتوقعه فقاومته بعراك أعنف وزفرات ضائقة تحولت إلى توسلات مكتومة زادت من تنمره وقبضاته حتى انهارت تماماً. همد من فوقها وصدره يعلو وينخفض فشعر بجسدها يرتجف تحته وعندما نظر إلى وجهها وجده مبلل بالدموع وينطق بالفجيعة. نهض وقفز خارج القارب وأمعن في الهرب بخطوات واسعة صوب الصحراء الممتدة على مد البصر. عندما ابتلعه الظلام تماماً تمدد على الأرض يرقب الفراغ والنجوم فيه كأنها تتشابك وتتفرق حتى غاب في نوم عميق بأحلام متضاربة. أفاق بالشمس تلسعه فتوجه إلى القارب وجد والده يغط في نوم عميق. نزل إلى النهرواستحم فيه كما لم يستحم من قبل. أشعل نارًا وأعد طعام أكل منه وبعناية حفظ ما تبقى لوالده داخل المركب. سار بحذاء النهر بعيدًا متحاشيا الفرقان. أغرق نفسه في تكسير الأخشاب الضخمة وبيعها في فريق آخر.

ذات مساء عاد إلى القارب فرأى حسنية على ضفة النهر وحينما رأته سبقته إلى القارب واختفت داخله. تسارعت دقات قلبه وتعجلت قدماه وأعتلي القارب بقفزة واحدة ودون مقدمات احتواها بين ذراعيه. سكنت قليلاً في حضنه دون حراك وبحذر حركت ذراعيها حتى احتوته. تملكه شبق عارم ولكنها صدته وتملكت منه زمام الأمر بحزم فاذعن لها وذابا معاَ في شوق حراق.

توثق ارتباطهما وقضيا ليالي العشق ليلاً في القارب ورافقها نهاراً عن بعد في فريقها. تعلق قلبه بها هياماً فعمد أن يؤجج حلمها لرحلة الشمال

وبلاد ذوي الوجوه البيضاء. حكي لها عن مغامراته مع حرس الحدود ومغامرة تسللهم إلى البلاد. حكت هي عن ديارها في غرب البلاد وعن سهول الرمال وزينت له حياة تمنى أن يراها ولكن عقله لم يتقبل أن تكون هناك حياة بعيدة عن النهر.

****

تأخر قدوم النهر ذلك العام فقضيا معاً زمن طويل وجمع كثير من العملات فمنى نفسه بالهروب معها نحو الشمال. كانت تتردد كثيرًا ولكنها تذوب في أحلامه بين ذراعيه. ندرت لقاءاتهما عندما بدأ النهر في الارتفاع وانعدمت في فورته. توغل مع والده جنوبًا في النهر حتى هدأت المياه تمامًا تصدها الصخور. بدأت رحلة قنص الأخشاب العملاقة وجلبها للقارب. كانت رحلة العودة بالأخشاب بين الصخور أقسى مراحل العمل. يترجلان في الماء وأحياناً سباحة لدفع المركب والأخشاب وعندما يصلان المرسى بعد الصخور حيث يشتد اندفاع المياه يفقدون بعضها أحياناً في صراع مجهد ولا يهجدان إلا بعد تشذيب الأخشاب وتوثيقها على شكل طوف توسطه القارب. يصيران في إعياء شديد فلا يغادر والده إلى الحانات طيلة أيام العمل المنهك.

هجد ذات يوم في إعياء تام يرقب النجوم يستجدى النوم وقد غط والده في نوم عميق وعلا شخيره. تراءي له شبح في الظلام فهب فزعاً. تمالك نفسه وتقدم في حذر حتى اعتادت عيناه الظلمة فوجد حسنية قابعة في الظلام. نظر إلى والده وجذبها بعيداً وبعد صمت وترقب أخبرته

بصوت أقرب من النحيب وينطق بالفجيعة بأنها تحمل منه جنيناً. ارتبك لهول الخبر وهو يعرف شراسة قومها ولكنه تمالك وهون عليها ووعدها بالهرب معها عقب انتهاء موسم الأخشاب. غادرت راضية ولكن لم يفارقها القلق. عاد إلى عمله ولكن ظل شارداً بذهنه مع حسنية وابنه في أحشائها. رقب عبدون ارتباكه ولكن لم يسأله فقد تولى عنه عبء كبير. عند انتهاء موسم القنص تبطلا في انتظار هدوء فورة النهر لرحلة العودة. عاد والده يعتاد المواخير وظل هو يجوب في فريق البدو يبحث عن حسنية دون طائل ولم يجرؤ على السؤال عنها. تخطته فتاة وأوحت له بعينيها أن يتبعها. تبعها عن بعد حتى أخفت نفسها خلف صريف مهجور فلحق بها فخاطبته مسرعة قائلة:

– لقد غادرت حسنية وجودك هنا يجلب المتاعب لك ولها

قالتها وتسللت مسرعة الخطى. توقف خليل برهة مشلول التفكير ثم غادر في طريق غير مأهول وذهنه مشتت ودون هدى.

❊ ❊ ❊

(3)

انغمس خليل طول رحلة العودةً في تأمين المركب وإعادة تثبيت تل الأخشاب على جانبيه وخيال حسنية لا يفارقه وحديث تلك الفتاة يطن في رأسه. لم يهتم كثيراً وهم يعبرون أمام ديارهم بدون توقف شمالاً ووالده يبتسم بسخرية بغير مبالاة تجاوباً مع الناس المصطفين على ضفاف النهر يلوحون بفرحة مليئة بالتهنئة كأنه انتصار. ظل وهو جالس مهتم بتوسط المركب لمجرى النهر تبحث عيناه عن هجلة وسط الجميع. شعر بنشوة وهو يراها وحيدة على أعلى الربوة. لم تلوح له واكتفى بالنظر إليها بانقباض كأنه يلوز بها ويعتريه شعور مبهم بالفراق فقاوم دمعة كادت تقفز من عينه.

مخر القارب النهر في سكون تام لا حياة على ضفافه ولا صوت للهواء وصمت مطبق داخله. لم يكن خليل بنفس الحماس المعتاد حينما بلغا أكثر النقاط رهبة حيث حرس الحدود. نصبا مخيما في خليج رملي صغير عدة أيام في انتظار ليلة حالكة الظلام. كانت الليالي المقمرة قاسية تكثر فيها

الحشرات الطائرة والزاحفة. لا يستطيعان إشعال نار ليلاً لكيلا يكشفان عن وجودهما. حان وقت الرحيل في منتصف الليل وأبحرا ببطء بحبس الأنفاس. وهما في منتصف النهر أنيرت من حولهما شعلات من النار ووجدا أنفسهما مطوقان تماماً بقوارب العسكر. تحرك خليل لاهث في كل أنحاء القارب. سكن عندما أومأ والده له بإشارة من يده بالتوقف. احتجزهما العسكر مكبلين بالقرب من القارب الذي تم تفتيشه ليلاً كأنهم يبحثون عن شيء آخر بدون أي اهتمام بالأخشاب التي تم فصلها عن القارب والبحث ما بينها.

بعد يومين تم ترحيلهم دون قيود في قاع مركب ضخم نحو الشمال. بلغا مدينة لم يصلا إليها فيما مضى وظلا تحت الحبس أياماً دون أن يأتي إليهما أحد سوى حارس أسمر يأتيهما مرتين في اليوم بالطعام خلال فوهة صغيرة يكتفي بالنظر خلالها كأنه يتأكد من أنهما ما زالا على قيد الحياة. ظلا عدد من الأيام في تلك العتمة لا يدريان هما بليل أو نهار. انتبها بقوة في ليلة ظلامها حالك بالمزلاج يرتج على باب الحبس لأول مرة منذ سقوطه سالبًا حريتهما. فتح الحارس الأسمر الباب مواربًا وبلغة لم يفهمونها حثهما للمغادرة بكلتا يديه بإيماءة استشفا منها روح المؤازرة. تبعاه وهما متوجسان وعبر ثلاثتهم سرادق طويل سقفه منخفض حتى لاح لهم في نهايته على ضوء الشعلة التي يحملها الحارس باب صغير بقضبان حديدية صدئة. فتح الحارس الباب وأمرهما بلغة ركيكة بالخروج وأغلق الباب خلفهما واختفى داخل السرداب.

توقفا قليلاً لا يلويان على شيء ولا يعرفان أين هما. قرر عبدون فجأة الرحيل وتبعه خليل بخطى واسعة في ظلام دامس. بعد أن قطعا مسافة سير ليست بالقصيرة في تلك العتمة تعثر خليل على جسم رخو وهوى على الأرض من فوقه. حدث هرج من حولهما ووجدا أنفسهم محاطين بأناس أشداء متحفزون يشهرون سلاحهم في وجوههم. أدنى أحدهم الضوء من وجه عبدون وتحدث معه بلغته قليلاً قبل أن يأمر القوم بالانصراف. أخذهما حيث يقيم في الخيمة الوحيدة وبقية الركب يفترشون العراء. دار الحديث بين الرجل وعبدون وبقليل من الأمان غط خليل في نوم عميق. أيقظه والده فجراً وأخبره عن تحركهما مع الركب.

سارت القافلة وقوامها الجمال بعض الرجال على ظهور البعير والبعض راجلون. عبرت القافلة في ترحالها صحراء وسهول بعيدة من النهر. كان السفر في غالبه ليلاً ويتوقف الجميع ساعات قلائل للنوم وتناول الطعام وجلب الماء الذي يخبرون أماكنه بعيداً عن النهر. توقفت الرحلة ثلاثة أيام لمرض والده بالحمى. سمع القوم يتهامسون عن داء الصفراء وهم يبتعدون عن الخيمة التي نصبت خصيصاً لوالده. بقي مع والده يبلل وجهه بالماء حتى فاضت روحه بين يديه وكان أطول زمن قضياه متقاربين. غلبه البكاء ولكنه تجلد أمام مضيفه الذي واساه كثيراً.

عاش عبدون وحيداً ودُفن وحيداً في قلب الصحراء. تحرك الركب وقد منح كبيرهم خليل بغل لمواصلة الترحال. تلفت إلى الوراء حتى غاب القبر عن ناظره وقلبه يعتصر لتركه له وحيداً في تلك الصحراء. بعد مسيرة يومين وصلوا إلى بلاد وقرى تعج بالحياة تعلقت عيناه

بدجاجة تبحث عن الديدان بين الأعشاب أعادته إلى الحياة بعد رحلة كان لا يرى لها نهاية. توقف الركب بالقرب من قوافل أخرى وبدا له أن القوم يعرفون بعضهم البعض. اقترب منه الرجل وكان أصغر سناً من أبيه وطلب منه أن يبقى في حراسة الجمال إلى حين عودته.

****

داؤود قائد القافة اهتم بالصبي بعد وفاة والده. راقبه بإعجاب طوال الرحلة في عمله الدؤوب في صمت دون سؤال الآخرين ويرافق كل من توكل له مهمة لمساعدته. كسب ود الجميع وصار من طاقم الرحلة. ضمر ضمه إليه فوطد علاقته به واعتمد عليه في مهام كثيرة. أصبح رفيقه في المدينة في تصريف أعماله في دواوين نظامية يقوم على تصريفها قادة عسكريون. أعجب خليل بهندامهم وصلفهم العسكري وتعلم لغتهم سريعاً فاعتمد عليه داؤود داخل تلك الأروقة معجباً بتماسكه واعتداده بنفسه.

اعتاد خليل الحياة الجديدة وبدأ في توطين نفسه بقليل من الاستقرار. فاجأه داؤود ذات يوم بأنهم سيغادرون إلى الجنوب على رأس قافلة محملة بالهدايا لملوك البلاد مع وفود تجارية من حكام البلاد. داعبه حلم العودة وأول ما طاف بخياله طيف حسنية وهي ترتجف في أحضانه وانقبض قلبه وهو يتذكر الدموع في عينيها وهي تخبره بثمرته الذي تحركت في أحشائها.

صار على رأس القوم كأنه رسولهم وحزم وحسم كل ما يحتاجونه لرحلة العودة وقد احتوى كل الوطن بين جوانحه.

***

(4)

كان طريق العودة على متن النهر وليس بقافلة عبر الصحراء. وهم يمرون بنقطة الحدود، نظر إلى المكان الذي تم توقيفهما فيه هو والده مكبلين بالأصفاد وبقايا الأخشاب التي جاهد مع والده في جمعها مهترئة ومتناثرة على ساحل النهر. جثم على صدره حزن ثقيل وهو يتذكر والده الذي تركه في قلب الصحراء. توالت رحلتهم جنوباً ومر الركب بدياره ولم يتأسف على تخطيها فماذا سيقول إن سألوه عن أبيه. أصطف البعض على شاطئ النهر برقبون ذلك الركب الضخم الشيء الذي لم يعتادوه. حفظ نفسه بعيداً عن الأعين وتعلقت عيناه على الربوة كأنه يبحث عن طيف هجلة. تعدى الركب أيضاً ذكرياته عند الشلال وطاف به وجه حسنية فمرت به سحابة من الحزن وسقط عنه كل حماس العودة.

عند الصخور ترجل الركب عن النهر وبدأت رحلة إلى مجهول جديد لم يبلغه من قبل. طوال الرحلة كان داؤود منشغلاً عنه مهتماً

برفقة وفد السلطان. تواصل سفرهم على الدواب بمحازة النهر وحطوا رحالهم في قرى كثيرة على ضفاف النهر. انبهر خليل بحفاوة القوم بداؤود واستقبال كبارهم له وأقيمت الولائم فصار سلطان أمام ضيوفه. بلغ الركب مدينة عتيقة وتم استقبالهم في منازل غرفها رحب فسيحة بجدران عالية تعج بالخدم وتحفها حدائق غنية بالنخيل وتطل على النهر الذي اتسع كأنه بحيرة وفى وسطها جزيرة خضراء.

لم يقحم خليل نفسه بين الجموع وكان همه في تنظيم الركب وتفقد الدواب والإشراف على المؤن والاعتناء بالعاملين وتذليل صعوباتهم فكان آخر من يهجد ليلاً متخذاً له موقعاً في حراسة الدواب والمؤن. أرسل له داؤود أحد الخدم لاستدعائه فوجده في انتظاره خارج المنازل على مركبة يقودها بغل قوى وضخم كالحصان. قاد داؤود المركبة وتوغلا داخل المدينة بدراية حتى بلغا منزلاً فسيحا. المنزل كان فارغاً من كل حياة من الداخل. ولج داؤود إلى غرفة وأضاء قنديل داخلها ودعاه إلى الدخول. تركه زمن طويل حتى غالبه النعاس. انتبه على صوت أقدام فانتصب في جلسته. دخلت امرأه فرعاء والقت عليه تحية مقتضبة كلها تأدب واحترام. طرحت أمامه إدام في إناء من الفخار بعناية. انقشع وجهها أمام وهج القنديل وهي تضع الإناء فتأمل تقاطيعه الجميلة ولكن تعلوه صرامة وتلفه مسحة حزن. خرجت بانسحاب مهذب وابتسامة مودعة. تناول الحساء بشهية لم يطعمها منذ أن فارق أمه هجلة. خلد لنوم هادئ لم يهنأ به منذ تحرك الركب من بلاد الشمال. أيقظه داؤود فجرًا وهما

يغادران لحظ المرأة تقف في أقصى المنزل تحمل طفل ترقبهما. أومأ لها بتحية مقتضبة شاكرة ومودعة جاوبتها بإيماءة دون حراك.

****

تحرك الركب في محاذاة النهر وأحيانًا يفارقه ثم يعود لملاقاته. النهر كان في فورته ولكن غضبته بوجه داكن عابس تهيّب له خليل كأنه نهر آخر وليس كالذي يسبح أمام قريته. بلغ الترحال بلاد الملوك بعد عديد من الليالي المقمرة عليلة النسيم. تمتد الأشجار والخضرة على مد البصر بعيدًا عن النهر وليس كالتي تحف النيل فقط طوال الرحلة من الشمال.

افترق خليل عن داؤود الذي أصبح جليس الملوك والوسيط بينهم وبين ضيوفهم. أقام مخيمه بجوار النهر بعيدًا من نزل الملوك تأتيهم المؤن وأشيائهم في أماكنهم. بعد أيام ذهب داؤود إليه متهللاً وأنبأه ببقائهم الدائم في البلاد وأمره بتجهيز الركب لرحلة أخرى داخل البلاد. حزموا أمتعتهم على رأس فريق من السود الأشداء وتوغلوا جنوبًا أياما وليالي في رحلة أخرى وقد غادروا النهر تمامًا. عبروا غابات ومستنقعات وشاهد سباع وثعابين عملاقة وكثير من الحيوانات التي لم ترها أعينه من قبل. التقوا بالنهر ولكنه فسيح ومياهه هادئة أكثر صفاءَ. راعه كثافة التماسيح وضخامتها التي تبنى عليها الأساطير في موطنه وندرة ظهورها الذي جعلها صيدها أساطير من الشجاعة والإقدام. نزلوا في ضيافة سلاطين السود وأغدقوا عليهم بالهدايا. تفاجأ خليل بداؤود يتكلم لغة السلاطين بطلاقة ومكرم لديهم كسلطان آت من الشمال.

***

(5)

كبرت منزلة داؤود لدى خليل وزاد ولاؤه له. تعود القيام بمهامه التي يوكلها له دون فضول أو فصال ولكنه دُهش ذات يوم عندما أوكل له داؤود أسرى في الأصفاد ليقودهم إلى بلاد ملوك النهر. لم يغب عن داؤود ارتباكه وعدم تقبله فتعامل معه بحزم على غير عادته واختصر حديثه معه رافضاً أي نقاش:

– ستعود فور تسليمهم

كان الأمر بالغ الصعوبة في بدايته وأصبح خياراً في الانفصال عن داؤود أرّقه. تعامل مع الرقيق بلين وحماهم من فتك عماله بهم. عاد يوماً من رحلة صيد وعلى أطراف مخيمهم ارتفع صوت البارود فأسرع مع فرقته إلى المخيم. تمرد عدد من الرقيق وفتكوا بحراسهم وحاصروا داؤود في مقره. اندفع خليل ورفاقه فكانت مذبحة مات فيها كثير من الرقيق. بعد تلك الحادثة شدد خليل قبضته واعتاد على قتل المرضى والمتمردين

من الأسرى في رحلة الاسترقاق الطويلة. اعتمد عليه داؤود في تجارته تلك واستقر هو في بلاد ملوك النهر. وطَّن خليل نفسه في تلك البلاد وصار من الأعيان وعشق قنص الحيوانات في الأحراش.

بعد أعوام وهو يهيئ قافلة من الرقيق تفاجأ بداؤود أمامه. أخبره بتبدل الحال وقد تهدد عرش ملوك النهر من أهل الشمال وصار في مهب الريح. تحولت تجارة داؤود مع الغزاة وسلك بقوافله غرباً متفاديا أرض الملوك. عندما وطئت أقدامهم الرمال مرت بخاطر خليل ذكرى حسنيه ولكنه سرعان ما تجاوزها وقد تحول إلى شخص آخر منذ أن وضعت الأقدار داؤود في طريقه. تقابلهم فلول الفرقان طوال الرحلة زاحفة إلى الجنوب الغربي هروبا من الحروب الأهلية التي اندلعت في تلك البلاد.

تصادف ركبهم بالقرب من فريق مهجور مع جماعة يحزمون متاعهم تأهباً للمغادرة. أمر داؤود الركب بالتوقف وترجل قاصد الجماعة وحده مناديا فيهم يطلب كبيرهم فتقدم منه شيخ وقور ألقى التحية متهيباً. انتحى به داؤود يساومه على بعض الأغراض يحتاجها لركبه مقابل بعض المؤن. وقف خليل يرقب الحوار عن بعد فتقدم منه أحد الحراس وهمس في أذنه. رافقه فورًا إلى الأسرى.

أخرج الحارس أحدهم في أعياء شديد وأركعه تحت أقدام خليل. تفحصه قليلاً وساعده على النهوض وتوغل به في الظلام. ارتفع صوت الأسير يتمتم بلحن ملتاع انتبه له فريق البدو. صمت جدال الفصال بين داؤود وكبير الفريق وتمت الصفقة بينهم كأن صوت الطلق الناري القادم من الظلام كان فيصل الاتفاق.

تنبهت حواس خليل وهو خارج من الظلام إلى لهجتهم وقد تعالت أصواتهم معجلين بالرحيل. قبل أن يستطلع أمرهم رأى أمامه حسنية على ظهر بعير ترمقه بعيون تكاد تخرج من محاجرها من الرعب. خبأت وجهها بثوبها عندما تلاقت أعينهما وقبضت على صبي يرادفها البعير ضماً إلى صدرها كأنها تحميه. تجمد خليل مشدوهاً كمن أصابته صعقة يرقب الركب وهو يتجاوزه مبتعداً. لاحظ داؤود اضطرابه فقبض على كتفه مستطلعاً الأمر. رد عليه خليل كأنه في غيبوبة وعيناه معلقتان بركب الراحلين:

- هذا الطفل ابنى

عندما أفاق لنفسه تشبث بسلاحه وأسرع نحو فرسه. اعترضه داؤود ونزع منه السلاح عنوة. هدأه وطلب منه أن يروى له عن كل شيء. بانفعال مقتضب رافضاً الإذعان صرخ خليل فيه مردداً:

ـ هذا الطفل ابنى وتلك المرأة أمه

قبض به داؤود بعنف حتى استكان وبهدوء وبلهجة آمره طلب منه رعاية القافلة وليترك الأمر له. أخذ معه بعض الرجال الأشداء وغاب في الصحراء. تنازعت خليل مشاعر شتى في غياب داؤود وعدل مرات عديدة عن اللحاق به. حاول أحد الرجال تهدئته فتعامل معه بفظاظة وغضب فتركه الجميع وحده ينازع توتره.

عند الفجر عاد ركب داؤود متثاقلاً فهب متهيباً لملاقاتهم. بجوار داؤود فارس يحمل الطفل وخلفه أسيران راجلان موثوقان بحبل

مربوط على سرج أحد الجنود. تقدم منهم خليل وعيناه كلها تساؤل لغياب حسنية عن الركب. ترجل داؤود وقبض على كتفه وانتحى به جانباً وأفهمه أن حسنية ارتضت أن تعود معه ولكن قتلها قومها. تطاير الغضب في عينيه واستل خنجره من داخل عصا الأبنوس وقضى على الأسيرين بضربات غاضبة متلاحقة. انصرف عنه القوم بإيماءة من داؤود معهم الطفل الذي كان يرتجف بفجيعة من هول ما حدث. جلس خليل بين الجثتين ملطخاً بدمائهما بأنفاس مرهقة وقد تحجرت عيناه عن الدموع. راقبه داؤود بوجوم وانسحب لاحقاً بالآخرين.

فجرًا تواصل الركب وحرص داؤود على الحفاظ على الطفل في مؤخرة القافلة بعيداً عن والده. لم يحاول خليل طوال الرحلة الاقتراب من ابنه وانزوي بعيدًا عن كل الأعباء التي أشرف عليها داؤود بنفسه. بعد رحلة شاقة وطويلة بعيدًا عن أرض معارك الحرب الأهلية. بلغ الركب المدينة وحط في مخيم خارج المدينة. غادر داؤود المخيم ليلاً مع الطفل وعاد فجراً بدونه. استدعى خليل إلى مجلسه وتجاهله تماماً وهو يعطى أوامره لأتباعه حتى خلا بهما المكان. أطبق بينهما صمت قطعه داؤود قائلاً دون تمهيد:

ـ الطفل اسمه حميدان وهو الآن بعناية حليمة

لم يعقب خليل ولم يغب عنه أن حليمة هي تلك المرأة التي رآها في منزل داؤود في المدينة.

❊❊❊

(6)

نصب الجمع مخيم في أطراف المدينة عدة أيام. في جنح الظلام أتى داؤود بجمع ملثمين انتظروا خارج المخيم وتم تسليمهم الرقيق في أصفادهم. قضوا ليلتهم هناك وفى الصباح جمع داؤود أتباعه وسلمهم حقوقهم ووعدهم بالاتصال بهم عندما يحين ميعاد العودة جنوباً بعد انحسار الحرب الأهلية. رافقه خليل إلى منزله في المدينة في مركبة تسحبها خيول كانت في انتظارهما. حط خليل متاعه في نفس الغرفة بتوجيه من داؤود ثم انتقلا إلى القسم الآخر من المنزل. كانت حليمة في انتظارهما أمامها مائدة معدة بالطعام. حيته بإيماءة صغيرة دون مغادرة مكانها ولم تفارقهما إلا بعد جلوسهما وشروعهما في تناول الطعام. لم تعد حتى مغادرته ولكنه كان يشعر بوجودها في الغرفة المجاورة ويصله أحياناً حديثها الهامس مع الأطفال.

****

تجول خليل مع داؤود في المدينة الذى قدمه لكل الذين يتعامل معهم والعاملين في أملاكه كوكيل شرعي على أعماله. قابل خليل الحياة الجديدة بفتور لحظه داؤود فأيقن بأن ذلك الشاب يجد نفسه في المغامرة ووسط المخاطر والمدينة لا تناسبه.

كان خليل قليلاً ما يتقاطع مع ابنه الذي سرعان ما يتوارى منه ولكنه اطمئن لتآلفه مع حليمة وأبنائها. فاتح داؤود برغبته في الرحيل الشيء الذي لم يفاجأ له. حاوره مطولاً بأن حياته صارت مرتبطة بالمدينة من أجل ابنه وعاد يؤكد له أمان الطفل في كنف حليمة حتى لا يسد أمامه الطريق. خيّره بالرحيل معه شمالاً أو عودته جنوباً. اختار خليل العودة إلى الجنوب فموله داؤود بالمال والعتاد والأفراد.

عاد خليل إلى جنوب البلاد بركب محملاً بالحبوب وبضائع من الحلى والزخارف الواردة من أقاصي الشمال. وطَّن نفسه في جنوب البلاد وابتعد تماماً عن تجارة الرقيق. مول أعماله بأسفار متفرقة لبلاد متاخمة لجنوب البلاد والإتجار بينها وصار القنص والصيد متعته وواقع تجارته مع المدينة في الشمال. يغادر الجنوب في فصل الأمطار الكثيفة وتسهل أسفاره على متن النهر محملاً بالجلود والعاج وريش النعام. استقر في علاقته مع حليمة وعندما يعود إلى المدينة يغرقها وأبنائها بالهدايا وقد ذاب بينه وبينها جليد كثيف. وحرص أن تكون يدها مطلوقة في أعمال المدينة بنقل كل التوكيل باسمها. مكنته كثيراً من التقارب من ابنه الذي كان لا يطمئن لوجوده منفرداً مع أبيه.

****

عاد خليل من إحدى رحلات القنص في الجنوب فلحظ وجود أحد الغرباء بين رجاله. أحسن استقباله ولم تخف عنه لهجة البدو في حديثه. توجس منه فهيئته وتماسكه وبنيانه الجسدي لا تتلاءم مع تنازله للحصول على أي عمل معه في أي مهنة كانت. أمهله خليل للغد وقد ضمر في نفسه أن يقدمه لأحد معارفه يبحث عن حارس للمواشي. لاحظ خليل عدم الرضاء في وجه الرجل وهو يغادر مع أحد رجاله في اليوم التالي. لم يشعر بتعاطف معه وقد استبعده وكله بغضاء لهؤلاء القوم منذ فقده حسنية.

نسى خليل الأمر برمته حين بلغه رسول يخبره بوجود داؤود بالجوار في ضيافة أحد الملوك ويدعوه لمرافقته. كان لقاءً حميمًا بعد غيبة طويلة. لم يكن داؤود وحده وقد رافقه تاجران هو دليلهما. تحدث مطولاً مع خليل في شتى الأمور وبحديث مبطن نقل له لومه له بترك تجارة الرقيق ذات الربح المضمون.

تخطى خليل الأمر بلباقة ولم يلاحقه داؤود. بعد انتهاء ضيافة السلطان دعي خليل داؤود ورفاقه إلى رحلة للقنص يعودان بعدها إلى مملكته الصغيرة. اعتذر داؤود عن الرحلة وافترق عن خليل وضيفيه ورافق أحد الرجال وغادر إلى مقر خليل.

فجراً عاد خليل ورفاقه من رحلة القنص. حسب الحارس في طرف المخيم نائماً ولكن فجع عندما تبين موته مقتولاً. هرول إلى نزله فتسمر أمام المدخل وهو يرى داؤود ممداً على الأرض غارقا في دمائه وقد تم ذبحه كالشاة. صابته موجة من الجنون وأخذ يخترق المنازل المشيدة من

القصب من غير أبوابها ويوقظ النيام بإطلاق النار في الهواء يبحث عن مجهول لا يراه. توقف فجأة وهرول إلى جثة الحارس ودس أصابعه في دمائه فأيقن أن الجرم تم قبل وقت ليس بالطويل. هب نحو فرسه واعتلاه بقفزة واحدة وانطلق به. تيقظ أهل الفريق المجاور على حوافر الحصان وصياح خليل الصارم. ترجل فوراً عندما رأى كبير الفريق. بدون تحية سأله عن الرجل الذي أرسله للعمل معه. توجه الجميع إلى قطيع المواشي ولم يجدوا له أثر.

رافقه البعض من ذلك المعسكر وتم دفن داؤود وتبقى القوم حتى حلول الظلام. أعد خليل ركب من أشخاص خبراء في اقتفاء الأثر كان هو رابعهم. تحركوا فجراً وتوغلوا في الأحراش. لم تكن رحلة ميسورة مسيرة عدة أيام في نواحي لم يصلها من قبل. بلغ الركب أحراش تكثر فيها المستنقعات فرفض الرجال التوغل معه. لم يجبرهم وكان يسمع بتلك الأحراش وخطورتها التي يختفي فيها المستضعفون من قنص العبودية. سمع بشراستهم وبطشهم بكل من يجرؤ التوغل عليهم في أجحارهم التي يلوذون بها هرباً من الاستعباد. صار وحيداً وتوغل بحذر ولكنه انتبه متأخراً للخطر من حوله بصمت الطيور وسكون والكون من حوله. قبل أن يفيق لحماية نفسه سقطت عليه شبكة ضخمة من نفس النوع الذي كانوا يقنصون به البشر. حاول الخلاص منها بكل ذرة من كيانه ولكن هجم عليه رجال أشداء وأوسعوه ركلاً وضرباً بعصى غليظة حتى غاب عن وعيه. أُلقى به مكبل داخل الشبكة موثوق الأيادي والأرجل. أفاق وسط الظلام بشخص يقطع وثاقه بدية ويمزّق خيوط الشبكة من حوله.

استكان حتى تم تحريره كاملاً ومتوكئًا على يد منقذه استطاع النهوض والسير معه. رغم إعيائه واصل السير طوال الليل محاولاً رفع ثقله عن ساعد الرجل. استفاق فجراً وهو نصف جالس متكئاً على جزع شجرة تبين الشخص الذي يجلس قبالته إذا به هو ذلك الرجل الذي خرج يبحث عنه. توقف الرجل قبالته بازدراء قائلا:

– إذا الأمر بيدي لقتلتك فلا تحفظ لي جميلاً

***

(7)

رقب خليل الرجل يغادر وسط الأحراش وقد سكن فيه غضب الانتقام وحل مكانه حيرة كبيرة. تمكن من النهوض وقد تعرف على موقعه. مكث بمخيمه أياما عديدة في عزلة تامة حتى تعافى تماماً. حزم أمره بالمغادرة دون رجعة ووهب كل ما يملك إلى أتباعه والتحق بأول قافلة مغادرة إلى الشمال.

بلغ المدينة ليلاً بعد رحلة سهلة دون أعباء ومسئولية نحو الآخرين فكانت مليئة بالتأملات. دخل غرفته دون ضجيج وكانت حليمة قد أحست بقدومه وجلست على مخدعها ترقب في الظلام حتى استكانت حركته فعادت متمهلة إلى مرقدها.

صباح اليوم التالي أحضرت له حليمة إفطاره مصاحبة حميدان لمصافحته. تلقى الصبي بصمت كل ما أحضره له والده من هدايا له ولأخوته. وتسلل مغادرًا الغرفة وتخلفت عنه حليمة على غير عادتها

وشرعت في إخباره بأحوال أعماله وحال حميدان. أطرق خليل يستمع إليها حتى أفرغت كل ما لديها كأنها قد استحضرته مسبقًا.

عاد في المساء بعد جولة في المدينة استوثق من كل أعمال داؤود وأخطر القوم برحيله وأكد عليهم باستمرار تعاملهم تحت إشراف حليمة كالمعتاد. أتت حليمة له بالطعام فأستوقفها قبل أن تغادر وطلب منها الجلوس. أخبرها مقتضباً عن موت داؤود متحاشيا ذكر اغتياله. لم يظهر اندهاشه لها لصمتها وسكونها طوال حديثه. عرج إلى ما أنجزه اليوم في بقاء الوكالة لها في كل أعماله ورغبته في النزوح الدائم مع ابنه. طلب منها إحضاره في الغد ليتحدث معه كأنه يأذن لها بالانصراف.

****

أحضرت حليمة حميدان معها في اليوم التالي وهي تأتيه بإفطاره. وضعت الطعام أمامه بعناية وأجلست الصبي بربت خفيف يطمئنه. بعد انصراف حليمة طالع خليل مطولاً في وجه الصبي الذي امتشق عوده وكبر عمره. أخبره بعزمه أخذه معه إلى الشمال. ظل الصبي صامتاً وخليل يحكى له عن جزوره في الشمال كأنه يذكر نفسه بها. فجأة هب الصبي واقفاً وقال بصرامة:

ـ لن أذهب معك. سأبقى هنا مع أمي حليمة

بهت خليل قليلاً ثم أنتهر بغضب:

ـ إنها ليست أمك. آن الأوان أن تعرف من أنت

قال الفتى حازماً:

ـ سأبقى هنا ولن أذهب معك

صفعه خليل على وجهه بقوة وقال له بحزم:

ـ أنا والدك وستفعل ما أقول لك

هب الصبي وصرخ في وجهه حتى جفل خليل:

ـ لا لست أبى أنت قاتل أبى وخالي. رأيتك تقتلهما ومعك ذلك الرجل الذي قتل أمي.

بهت خليل ولم يعترض طريق الصبي وهو يفر هارباً. وهو في ذهول دخلت عليه حليمة التي كانت متوارية خلف الباب ووقفت قبالته متحدية . بعد فترة صمت جلست على مهل وكانت حزمت أمرها وهي تعرف مغبة ما ستقول تماماً وقالت بهدوء:

ـ لقد عرفت ما حدث وسألت كثيراً واستقصيت وتيقنت أن داؤود هو الذي قتل امرأتك بعد أن اغتصبها

هول ما قالت أصابه بوجوم وتبلدت أفكاره وشُلت حركته تماماً. بعد صمت اجتاحت حليمة شفقة عليه وشعرت بهول مصابه. تناولت يديه التي طوق بهما رأسه. أمسكت بهما بقوة وحزم لم يتوقعها وهو يحاول انتزاعهما منها، وهي تحثه أن يتماسك .قالت لكسب الجولة معه:

ـ الطفل يعرف أنك أبوه. استوثقت من ذلك وغرزتها فيه.

رأت حليمة من الحكمة أن تغادره في تلك اللحظة. منعها بقوة والتفت يديه على يدها وأصبح هو الذي يمسك بها. سألها بحزم:

ـ هل أنت خلف مقتله

لازت بالصمت ولكن لم تختلج صرامة وجهها. ببطء خلصت يدها من قبضته وغادرت مشيحه وجهها عنه. توقفت عند الباب وكأنها تختم ما عندها قائلة:

ـ اترك الطفل معي وقادم الأيام سيصلح الحال

عادت حليمة إلى مخدعها منهكة كأنها خارجة من معركة كُتب لها فيها عمر جديد. لم يفارقها الخوف وقد سمعت الكثير عن بأس خليل. قضت ليلتها مؤرقة ترقب باب الغرفة حتى الفجر. كتمت أنفاسها وهي تشعر بحركته داخل المنزل وعادت لها بصوت سقوط مزلاج الباب من الخارج.

****

زوج حليمة كان تاجر حبوب يجوب المدن ومقره مدينته في غرب البلاد. عقد صفقات عديدة مع داؤود واستوثقت علاقتهما فأقنعه بالانتقال إلى المدينة والإشراف على أعماله لأسفاره الطويلة. منحه سكن ملحق بداره لعائلته. التحقت حليمة وطفلها بزوجها في غياب داؤود في إحدى أسفاره. قامت على خدمته عند عودته بإيحاء من زوجها وعلاقته الوطيدة معه ولكن الأنثى فيها لم تطمئن له وحفظت مسافة بينهما. حاول كسرها بإغراقها بالعطايا لها ولابنها. في غياب زوجها برحلة أوكلها له داؤود دعاها بصراحة آمرة إلى فراشه. انسحبت إلى الجزء الذي تعيش فيه بالمنزل ولم تعد ثانية. فاقت مذعورة ليلاً برجليين يكممانها ويحملونها

عنوة إلى غرفة مجاورة. جاهدت في صدهما ولكن تم اغتصابها بقسوة مهينة. تركاها في الغرفة ممزقة الثياب في حالة يرثى لها. بعد انصرافهما دخل داؤود الغرفة يحمل قنديل مضيئ وجلس ينظر إليها بازدراء. استطاعت الخروج بإعياء شديد وجروح عميقة في روحها. اعتادت بعدها تلبية رغباته وخدمته كجارية. صار فور حضوره يكلف زوجها بسفر بعيد ويختلى بها.

****

أحتد النزاع في غرب البلاد واندلعت الحرب الأهلية بين قبيلة حليمة وقبائل أعراب نازحين. غادر زوجها لمؤازرة عشيرته وطال غيابه. عاد داؤود من رحلة الشمال ومكث قليلاً وتواصلت رحلته إلى الجنوب مرافقًا وفد ملوك أرض الشمال. جن جنون حليمة وهي تشعر ببذرة داؤود تتحرك في أحشائها. حزمت متاعها وحملت ابنها لتلحق بزوجها قبل أن يفتضح أمرها. عقب التحاقها بزوجها بأيام قلائل فقدته في غارة وحشية على قريتها. هربت مع طفلها مع بعض القوم جنوباً. استقرت ردحاً من الزمان مع كثير من القبائل الهاربة من أتون الحرب حيث وضعت طفلتها. تجمعت فلول الهاربين من شتى القبائل وانضم لهم فريق غدر بهم أحد تجار الرقيق بعد أن أعطاهم الأمان. بتداول الرواية بين النساء تيقنت أنه داؤود وتأكدت من أنه في طريق عودته للمدينة.

تقربت من الركب واعتنت بامرأة عليلة علمت منها أن داؤود قد اغتصب ابنتها وقتلها واسترّق ابنها وزوج ابنتها وحفيدها. عندما ماتت

المرأة بين يدها تملكها الغبن وأسرت لشقيق المرأة بأنها تعرف الرجل الذي غدر بهم. تمكنت من إقناعه بمرافقتها إلى المدينة بطريق مختصر. تمكنت من العودة إلى المدينة قبل وصول ركب داؤود. عاد الرجل إلى قومه بوعد عودته حالما يستقر حال فريقه. بعد مغادرة الرجل في نفس اليوم مساءً فوجئت بزيارة داؤود برفقة الطفل. تلقفته منه واحتالت عليه لمعرفة قصته لم يتجاوب معها. لم يهتم لقصتها الملفقة عن غياب زوجها في الحرب ولم تخبره هي عن مقتله.

❊ ❊ ❊

(8)

نازعت خليل مشاعر شتى وهو يقف على مقدمة القارب يطالع الربوة التي تطل على النهر ومن خلفها كوخ والده. لم يكن هناك من ينتظره ولم يتعرف عليه أحد من الذين كانوا على المرسى. استأجر مركبة يسحبها بغل لم يكن لها مثيل في القرية حين غادرها. قاد صاحب المركبة بإيماءات بيده حتى لاح له من البعد منزل هجلة وقد أنشئت حوله منازل كثيرة وانحسر الفضاء الفسيح أمامه. حينما اقترب دبت حياة داخل المنزل وخارجه وبابه مفتوح على مصراعيه. توقفت المركبة عند المنزل وهو يبحث داخل سرواله عن نقوده تقدم جمع إلى المركبة وشرعوا في إخلاءها من أحمالها فصمت يراقبهم يدخلونها إلى المنزل. صافحه قوم كثيرون وهو في حيرة حتى ولج إلى المنزل الذي يعج بالناس أغلبهم جلوس على الأرض.

اتخذ له مجلسا مع جمع أفسحوا له بترحاب وتقبل. تعرف وسط

الجموع على شقيقه حمدون في جلباب أبيض ناصع بنفس الابتسامة والحركة الدؤوبة. شق حمدون طريقه وسط الجمع وقد استرعى انتباهه الأغراض المكدسة بجانب الباب. غادر خليل ببطء مجلسه ليتقابل معه أمام الأغراض ووضع يده على كتفه من الخلف. التفت حمدون ووقف قبالته يبحلق فيه فاغراً فاه ومد يده مصافحاً وكأنه أفاق من غيبوبة هجم عليه مقالداً كأنهما في عراك. وقف الجميع وسرى انتباه فتعرف كثيرون عليه وصافح جمع غفير تدافعوا إليه. سحبه حمدون إلى داخل المنزل وأجلسه على أريكة ووقف يرقبه في حالة من عدم التصديق. انتبه حمدون للتساؤل في عيني خليل فانتقل للجلوس بجانبه قابضاً على يده قائلاً:

ـ اليوم نقيم الذكرى الخامسة لأمي هجلة

جلس بجانبه قليلاً مواسيا ونهض يستأذنه بأن يأمر له بالطعام. أوقفه خليل بإشارة من يده قائلاً:

ـ أنا بخير ولكنى متعب قليلاً فلنتحدث غداً صباحاً أعتنى الآن بضيوفك.

صباح اليوم الثاني تسلل خليل نحو الربوة واعتلاها متوجساً ألا يجد كوخ والده. سكن كثيراً عندما وجد الكوخ في مكانه رغم تهدمه التام. جال حوله متفحصاً وعبر إلى داخله من فوق بقايا الحائط المتهدم. من داخل الكوخ نظر إلى مكان اضطجاع والده في أول مقابلة بينهما.

****

حمدون كان قد سافر أيضاً شمالاً وتوغل في بلاد ما بعد البحار. انتمى إلى جماعة صوفيه في تلك البلاد وزوجه شيخهم ابنته وصار من مقربيه. عندما عاد كان والداه قد توفيا فأنشأ جماعة دينية باسمهما وصار شيخا مسموع الحديث موقرا بين الشعاب. يسافر مع عائلته كثيراً داعياً في قرى غرب وشرق النهر ويحظى بحفاوة وترحاب أينما حلّ. زوجته كانت قصيرة بيضاء اللون وعيناها زرقاوان تميل للبدانة. ترتدى ملابس بيضاء بألوان فاقعة غير ملابس نساء المنطقة التي تميل إلى الألوان الداكنة. كانت ودودة راضية بزوجها ملتصقة بابنها الرضيع عمران الذي سمته على اسم أبيها.

انتهى خليل من أعادة بناء الكوخ ونقل له كل أغراضه وشرع في بناء سور مرتفع حوله قبل أن يضيف له غرفا أخرى. اقتنى مزارع على النهر تعج بالنخيل ومساحات فارغة للزراعة. اشترى حانوتا قديما وأعاد ترميمه بإضافة بهو في قاعة على نسق أهل أرض الشمال. شرع في اقتناء سلع وأغراض المزارع والأواني بشرائها من صغار التجار الذين يجولون بين الشمال والجنوب.

ريمان زوجة أخيه كان همها الشاغل تزويجه. لم يضجر بمحاصرتها له وقد أضافت الاستقرار له في حياته الجديدة بمودتها وطبيعتها العفوية. لم يخض في ماضيه مع شقيقه اكتفى برسم معالم تدور حولها دون تفاصيل. شقيقه كان مشغولا عنه بتجواله واجتماعه بالشيوخ وأعيان القرى. التفت حوله ريمان وانتزعت موافقته للزواج ودون مقدمات رتبت مع زوجها عرسه من امرأه لم يرها قبل ليلة زفافه. ليلتها كان مقبض القلب

كأنه أجرم في حق تلك القادمة الجديدة وهو لا يدري بأنه تم الترتيب لتراه وتعلق قلبها به من ترغيب ريهان لها وكانت هي معجبة بها وبالروح التي أضافها للقرية المنزوية في انحناءة النهر.

زواج خليل من مسكة أعاد له ثقته في بناء حياة جديدة وداعبه حلم ضم ابنه حميدان إلى عالمه الجديد. حياء مسكة وتفانيها في إرضائه أخمد الكثير من مآسي فقدان حسنية. بدون ترتيب كأن القدر يتربص به ابتلع النهر شقيقه وزوجته ريهان تلك المرأة التي أعادت البسمة والأمل إلى حياته. عمران كان الناجي الوحيد من الغرق أتى به خليل وهو منهار تماماً لفقد شقيقه وزوجته والنهر لم يلفظهم بعد. تلقفته مِسكة منه وسكن في أحضانها وصارت ملاذه وظله.

****

وضعت مِسكه ابنتها آمنة بعد أن كانت قد يئست تماماً من الإنجاب. عاشت مع زوجها خليل عامين من الترقب والقلق رغم هدوئه ولم يكن الإنجاب يوماً محورا في حياته. كان منغمساً جل يومه في العمل في الحقل ويعود مساءً يحييها باقتضاب ليس جافاً وبعد طعام صامت يلج غرفته. تتحرق للقائه ليلاً وهي اللحظات الوحيدة التي تختلي به ويمنحها أمان يزيح كل التوتر الأنثوي فيها. تتصنع النوم لتلتصق به ولا يصدها فتنام في أحضانه كطفلة ملئ جفونها.

دخل عليها عندما أنجبت ابنتها وربت بلطف على كتفها ولم يُخف عنها انفراط أساريره وتلك البسمة على وجهه وهو يحمل ابنته برفق بين

ذراعيه أول مرة فأحست كأن حملاً انزاح من على صدرها.

عمران في حينها تجاوز السنتين من عمره عندما أتت آمنة إلى الدنيا فغادر كل طفولته وقبع جل يومه أمام مهدها ينام بنومها ويفيق على صوتها. أعمق تأملاته أثناء رضاعتها من أمها ويظل لاصقاً بمسكة حتى يغفو أحياناً. مد يده يوماً إلى ثدي مِسكه يعيده إلى فم آمنة فتدفق الحليب غزيراً من صدرها وأغرورقت عيناها بالدموع. أحجمت عن فكرة إرضاعه التي طافت لحظتها في خيالها بإلحاح.

عمران كان صامتا تماماً طيلة الوقت حتى ظنوا أنه فاقد للنطق. لكن كل الدلائل تدل بأنه يسمع جيداً. جاء يوماً مهرولا لِمسكة والانزعاج مرسوم على وجهه. أسرعت إليه فزعة وأخذت تهزه بعنف وتسأله عن الخطب قال لها بلفظ طفولي سليم ولكنه جزع:

ـ آمنة

تركته وهرعت إليها وبعد أن اطمأنت عليها، حملتها وعادت إليه مسرعة وحاولت أن تستنطق اسم آمنة مرة أخرى منه ولكنه صمت تماماً. تركته مِسكة وقد طربت نفسها وصارت تردد دائماً بأن اسم آمنة أول ما نطق به عمران.

❊❊❊

(9)

دبت في القرية حركة غير مألوفة. مِسكة التي وضعت طفلتها الثانية حديثاً كانت تجاهد لمنع عمران وآمنة ترك المنزل. خليل لم يكن في قلقها وظل يتابع الطفلين عن بعد ويحرص ألا يتوغلا إلى النهر حيث يقبع الجند بعيداً عن القرية. عمران ذو السنوات الثمانية يغلبه الفضول ويتسلل بين النخيل وخلفه آمنة يرقبون جموع الأغراب القابعين على ضفاف النهر. البعض يجتمعون حول نار مشتعلة مساءً ويرددون أوراد جماعية والبعض يغسل الخيول داخل النهر. ومن على البعد صوت الطبول رتيبة. رويداً صارا يدنوان من الجموع ولم يعبأ أحد بوجودهما ولاطفهما البعض، فتوغلا حيث الخيول التي كان يؤثر عمران رؤيتها وهي مزينة بالشمائل ويعدوا عليها الفرسان تزينهم دروعهم حفاظاً على يقظتها.

ذات يوم والشمس تميل إلى الغروب وعمران وآمنة وسط الجموع دب هرج مفاجئ وتعالت صيحات الفرسان، وأخذ الجميع يركضون في

كل اتجاه على عجل. لولا أن تفادى أحد الفرسان آمنه لدهسها بفرسه. أجهشت بالبكاء فارتمى عمران فوقها يحميها دافناً وجهه في الأرض. بعد برهة من الزمن عم هدوء مطبق. تلفت الطفلان حولهما، فكان المكان مهجور تماماً. دخان نيران خافتة من أماكن متفرقة، وبقايا على ضفاف النهر كأنها هُجرت منذ سنين. تجولا وسط الأنقاض بحثاً عن أي شيء لاقتنائه يرضى طفولتهما.

أحس عمران بالأرض كأنها ترتج من تحت قدميه، والأشجار المتفرقة كأنها تترنح وأخذت الطيور تهجر الأشجار صوب النهر في جماعات. بحث بعينيه عن آمنة وجدها تقف يتعلق بصرها بالأفق. تسمر يرقب تلك التموجات المنهمرة وخلفها غبار كثيف يعانق السماء. عندما ظهرت أعناق الخيول هرول إلى آمنة واختفى معها وسط النخيل في مخبأ مألوف له. مرت الجموع بقربهما هادرة تزلزل الأرض. دفنت آمنة وجهها في صدره وتشبثت بعنقه مغمضة العينين. تعلقت عيناه هو بسحنات الغرباء التي لم يرها من قبل. كانت بيضاء حرقتها الشمس يكسوها التراب من حوافر الخيول. وجوههم عريضة بلحى كثيفة وصرامة مخيفة.

تعدتهم الحشود نحو القرية وهما قابعان في مخبئهما. لم تخرج الرهبة من قلبيهما الصغيرين وهما يسمعان صوت دوى فرقعات تصم الآذان. ارتفعت ألسنة النيران من كل صوب وأظلمت الرؤيا وتصاعد الدخان مثل سحب سوداء حجبت نور شمس الغروب. صار النهر كأنه يشتعل بانعكاس الحرائق على صفحة الماء. قبع الطفلان زمن غير قصير في مخبئهما.

دبت فيهما الحياة قليلاً عندما سكن الكون وبلغ مسمعهما خرير الماء وهمس الطيور الخافت على الأغصان كأنها ثكلى تبحث عن أوكارها. حث عمران السير نحو القرية وهو يقبض على يد آمنة التي تتبعه بخطوات متعثرة أقصر من خطواته. توقف فزعاً على مشارف القرية التي دُكت معالمها دكاً. منازل تكاد النيران تأتى عليها وأخرى لازالت مشتعلة. جثث متناثرة على الأرض وأصوات عويل يتصاعد من نواحي شتى. هرعا إلى المنزل خلف الربوة كانت جدرانه منتصبة ولكن الباب الخشبي الكبير احترق تماماً. دلفا إلى المنزل، وتسمرا في وسط الفناء وخليل جاثم على ركبتيه يحتضن مِسكة ويجهش في بكاء حراق. عندما وقعت عينيه عليهما، تركها على الأرض وهرول يحتضنهما ويختلج جسده بنوبة يشوبها فرح مخلوط بالفجيعة.

زاد التصاق عمران بخليل كأنه ينفذ خلاله وعينيه متشبثة بمِسكة وهي مغطاة تماماً بذلك الرداء الأبيض تختفي في القبر لم تنهمر دموعه إلا بعد سنين طوال على قبرها يوم عقد قرانه على آمنة.

****

كانت مِسكة قد أنجبت ابنتها هنومة قبل شهرين من رحيلها. ما كان لخليل خيار غير طيبة شقيقة مِسكة لحضانة هنومة. طيبة تقطن في قرية تبعد عنهم ساعات على الدواب وقد بلغت خليل الأخبار بأن نصيب تلك القرية لم يكن أفضل منهم في طريق الجيوش الغازية.

طيبة التي لم يبلغها مقتل شقيقتها كانت في أسوأ حال. فقدت زوجها

وثلاثة من أبنائها ونجت هي وابنها عثمان ورضيعتها صليحة. تم قتلهم أمام أعينها بما يشبه الإعدام. ترجل فارس من على الجواد وحوله الجنود واقترب بخطى متمهلة من زوجها وهو جاثم على الأرض على ركبتيه ويديه على رأسه كما أمره الجند. وضع السلاح بين عينية وأطلق النار ثم صوب إلى أبنائه من مكانه وأرداهم قتلى الواحد تلو الآخر. هرع عثمان أصغرهم لأبيه وجثم فوق وجهه والده المهشم والرجل يصوب سلاحه إليه هب الصبي ابن السابعة بخطى ثابتة نحوه مثبتاً عينيه إلى وجهه ولم يعبأ بتوسلات أمه التي تحتضن شقيقته وتصرخ تحثه ملتاعة على الهرب. أمام نظرات الطفل تراجع الفارس وامتطى الجواد متعجلاً كمن رأى شبحاً أمامه. حث جواده على العدو وتبعه باقي الجنود.

عندما بلغ نبأ مقتل مِسكة طيبة صارت حطام لا حول لها ولكن تحلق الأطفال حولها ونظرات الانكسار في عيون آمنة مدها بالكثير من العزم. عمران الذي أفتقد مِسكة، وطيبة تشبهها كثيراً ولكنها تميل للبدانة، صار أكثر التصاقا بها من ابنها عثمان الذي كان يميل إلى العزلة ووجه قاتل أبيه لا يفارقه. كان نادر الحديث خلاف عمران الذي لم يصمت منذ أن حُلت عقدة لسانه.

عقد خليل قرانه على طيبة وانزوى في غرفته تاركاً لها شؤون حانوته ومزارعه الغنية بالنخيل. أصبحت آمنة وحدها التي تقطع عليه خلوته وتمكث معه طويلاً.

****

قوافل الغرباء لم تنقطع جيئة وذهابا. تذهب جنوباً بجمال محملة بكثير من العتاد ويحرسها الجنود وتعود شمالاَ بعدد أكبر من الجمال المحملة بالمؤن تتبعهم مراكب على النيل وعدد ضخم من الرجال والنساء داكني البشرة تحت الأصفاد. تتحاشى القوافل المرور بالقرى وينصبون خيامهم على ضفاف النهر. عمران وعثمان وآمنة كانوا يتابعون القوافل متخفيين وسط النخيل وخلف قيزان الرمال عن بعد. حين تبتعد القافلة عن القرية يعودون إلى مكان المخيم الذي قضت الجموع فيها ليلتهم، ويبحثون عن أي شيء بفضول وأحياناً يفوزون بقطع معدنية وبعض أشياء غريبة تشدهم إليها.

في إحدى المرات وعمران وعثمان ولم تكن برفقتهم آمنة يرقبان الجموع يخوضون النيل بعتادهم من مكان منخفض تكثر فيه الجزر، حدث هرج وتعالت الصيحات وهرب عدد من الأسرى فأطلق الجنود رصاصا كثيفا سقط أثره كثير من الهاربين. هرب عمران وعثمان إلى القرية فزعين وولجا المنزل وهما يرتجفان. هرعت طيبة لإخفائهما وأوصدت الأبواب دون أن تسألهما عن الخطب وقد وصلت إلى مسامعها فرقعات السلاح التي أثارت فيها هلع ساكن بداخلها. امتلأت القرية بالجنود وأخذوا يهاجمون المنازل بهمجية ويحطمون كل ما في طريقهم وجعلوا أهل القرية ينبطحون على الأرض بلا حراك. اقتحموا منزل خليل شاهري سلاحهم فاختبأت طيبة وهي تحتضن الطفلتين وهي ترتجف. خرج خليل من خلوته تتبعه آمنة وصرخ فيهم بصوت جهوري وقد تملك الغضب ملامحه غير آبه بكل البنادق التي تصوبت نحو صدره. أمر كبيرهم الجموع بالتوقف

بإشارة حازمة من يده وتقدم نحو خليل باهتمام حذر. تحدث معه بهدوء مطولاً وخليل يرد عليه بإجابات مقتضبة ثم بإشارة من يده غادر المنزل وتبعه الجنود. يومها أصيب عثمان بحمى وجسده ارتجف كأن إعصارا عصف به. دثرته طيبة ودموعها تنهمر بغزارة وقف خليل يرقبهما في صمت وعندما التقت عيناه بطيبة توثق أن الصبي قد رأى قاتل والده.

لحظتها نسى عمران كل شيء فقط كان مندهشاً وهو يرى عمه يتحدث لغة الغرباء لم يجرؤ على سؤاله ولم يغب عن خليل ما يدور في ذهن الصبي. أمر بحزم ألا يغادر أحد المنزل وعاد إلى عزلته متحاشا تساؤلات الصبي. انكفى على ظهره على المخدع وأخذ يرقب سقف الغرفة فطالعه وجه أبيه كأنه يلومه لتركه إياه في منتصف الصحراء فأحس بعلقم في حلقه.

حادثة هجوم الجند على القرية جعلت طيبة تشدد قبضتها على الأطفال وحازمة منعت آمنة مرافقة الصبيان فكان ذلك قاسياً عليها. طفولة آمنة وصباها مرافقة عمران وانضم عثمان لهما. يمضي ثلاثتهم اليوم تجوالا في الحقول وملاحقة الطيور والتوغل أحياناً في النهر والجزر المتناثرة رغم تحذيرات طيبة المغلفة بالوعيد. عمران وعثمان تكاد أن تتطابق طبائعهما وتكثر بينهما المشاحنات، وكان عثمان دائماً الأكثر تنازلاً وعندما يحتد النزال تلتزم آمنة صمت مطبق وإذا طال الشجار وجب الفراق، تنقلها خطاها مع عمران وهي تسترق نظرات مليئة بالذنب إلى عثمان لمغادرته. وعندما يعودان تعود لها الحياة.

في إحدى الأيام اخترقت قدمها شوكة من إحدى الأشجار ففقد

عمران ثباته وهو يخرجها من قدمها، ارتجفت يده وامتلأت عيناه بالدموع وتشبثت هي بزراع عثمان الذي كان أكثر ثباتاً. تبادلا حملها على ظهريهما حتى بلغوا المنزل. يومها كادت طيبة أن تفقد عقلها وهي تبحث عنهم وقد تردد في القرية وجود أغراب في المنطقة. البعض يقول رآهم وسط النخيل والبعض جزم أنه رآهم يخرجون من النهر. طالت الأساطير أذهان البعض وأصبح الخروج ليلاً في جماعات مدججة بالعصي. اختفت إحدى صغار الماعز وفقدت امرأة بعضًا من دجاجها وجزم البعض بأن هناك من يسرق الخضروات المزروعة على جروف النهر. توالت الهمسات والأقاويل فشددت طيبة على الأطفال للبقاء في الدار.

كوكى صبي يتيم أصيب بالذهول عقب فقده كل أسرته في الهجوم الأول على القرية. أصبح هائماً في القرية والحقول بدون هدى يطعمه الجميع وينام حيث يكون. دخل القرية يوماً يعدو فزعاً وهو يصرخ ويقفز على الأرض ويصيح:

ـ المعبد القديم المعبد القديم إنهم في المعبد القديم رأيتهم قد رأيتهم

استنفر الناس أنفسهم في حشد هائج سلاحهم عُصي غليظة مقبلين على معركة. لم تستطع طيبة الإمساك بعمران وعثمان وهما يهرولان مع الركب وقد غلبهما الحماس مأسورين بانتفاضة الجموع وعندما يئست طيبة من عودتهما اقتحمت على خليل عزلته مستنجدة.

التف أهل القرية حول بقايا المعبد بحذر ولم يجرؤ أحد على الدخول. فجأة هب من بين الأنقاض رجل أسود مفتول بالكاد تستره خرقة بالية

يحمل عصى غليظة متحفزاً في مواجهة الجموع. في ذلك الوقت عند مغارب الشمس وجسمه مغطى بالتراب كان كأنه جنى لفظته الأرض. تراجع الجمع برهبة كبيرة وارتخت أياديهم على العصي؛ والجموع بين مقبل ومدبر دوت صيحة قوية من خلفهم لم يفهموها انتبه لها الغريب متيقظاً. تلفت الناس جافلين متنحين لخليل الذي كان يسير بخطوات ثابتة وعيناه مثبتتان بالرجل حتى وقف أمامه على بعد خطوة واحدة. عم صمت والرجل يقف متحفزاً وخليل منتصباً أمامه لا يظهر شر أو خوف وبدأ يخاطبه بهدوء بصوت واضح المخارج بدون أي حركة من جسده يحسبها الرجل عدوان. رويدًا رويدًا تبدلت ملامح الغريب وارتخت وقفته وفارقته العدوانية فعادت للناس أنفاسها. جلس على الأرض وهو يتحدث مع خليل بصوت أقرب إلى النحيب. ربت خليل على كتفه وتعداه وذهب خلف حائط المعبد المتهدم ولم يغب كثيراً وأتى مسرعًا طالبًا العون من الناس. رجع الجميع إلى القرية يحملون رجلا وامرأة في إعياء شديد ملطخين بدماء متيبسة على أجسادهم ويتبعهم الغريب بالتفاتات غير مطمئنة.

عمران تعلقت عيناه بخليل طوال الوقت كأنه يراه لأول مرة. قبع غير بعيداً من خليل والغريب في الفناء منتبهاً لحديثهما وعينيه متعلقة بعمه مليئة بالحيرة والإعجاب. نظر إليه خليل متجاهلاً نظراته وطلب منه أن يقترب ويصافح الغريب. أسرعت آمنة قفزاً تسبقه ومدت يدها مصافحة الرجل والتصقت بأبيها. تبعها عمران وأقبل عثمان خلفه. صافحا الغريب وقبعا على الأرض أمامه. لم يهتم عمران لملاطفة الغريب والتفت إلى عمه متسائلاً:

ـ كيف تستطيع أن تتحدث لغته وكيف أستطيع أنا!

قهقه خليل كما لم يفعلها في القريب. ابتسمت طيبة عن بعد وهي لا تراهم ليس لحديث الصبي ولكن ضحكة خليل أعادت لها الطمأنينة فتمنته لحظة زوج تحتمي بأحضانه ولكن سرعان ما طردت خاطرتها شاعرة بالذنب نحو شقيقتها. تحدث خليل مع الرجل ناقلاً حديث الصبي. ربت الغريب مبتسماً على يد عمران متمتما بكلمات قصيرة فقال خليل مخاطباً عمران ومضمناً ثلاثتهم إلى حديثه:

ـ كونوا له أصدقاء تتعلموا لغته ويتعلم لغتكم.

أتت قابلة القرية وهبت طيبة لاستقبالها وأجلستها معها. اقترب منهما خليل وقد كان أوكل لها برعاية المصابين. ردت المرأة على تساؤل عينيه بإشارة من يدها وإيماءة من رأسها كلها يأس. تسلل مبتعداً دون تعقيب إلى غرفته تاركاً الأطفال يتحلّقون حول الغريب. اعتصره حزن عميق وهو جالس على مقعده العريض وهو يتذكر كيف كان يقتل الأسري عندما يصيبهم المرض والوهن. قبض على عصا الأبنوس وبقوة سحب بيده اليمنى فانفصلت وبداخلها خنجر حاد لامع. رماه بعيداً بعصبية وتكدر.

***

(11)

كبرت آمنة صبية فى العاشرة من عمرها وانفصلت قليلاً عن عمران وعثمان بعد أن أوكلت له طيبة بعض المهام. صار اهتمامها بأبيها مهمتها الأولى واهتمت بإطعام أبينو الغريب الذى حل عليهم. ومسئوليتها رعاية هنومة وصليحة في غياب طيبة في الحقل والحانوت. أوكلت طيبة بعض المهام للصبية معها هناك. عندما تعود طيبة إلى المنزل تتسل آمنة مسرعة إلى الحقل للانضمام إلى عمران وعثمان اللذان ينتظرانها وتبدأ رحلة الحقول والبحث في الجزر ونكش أوكار الطيور والزواحف فيها والسباحة فيما بينها.

في ذات يوم والشمس تميل للغروب وهم في الدار انتبهت آمنة على جلبة وصراخ كوكى من على البعد ينادى باسم خليل مجرداّ. خرج عمران وتبعه آمنة وعثمان. وصلهم كوكى لاهثاً تتبعه على البعد امرأة غريبة عن القرية. تعداهم كوكي ودلف إلى وسط الفناء وما يزال يصيح باسم خليل

ويقفز لاهثاً ولم يصمت حتى خرج له خليل الذي كان يحنو عليه ويجلسه دائماً بجانبه. رغم ميل خليل إلى الصمت كان يجيب على كل تساؤلات كوكي بإسهاب وصبر مهما كانت ساذجة. حظي كوكى باحترام أهل المنزل لمنزلته عند خليل فأصبح الدار ملاذه ومأمنا له. تطعمه طيبة متى حضر وينام أكثر الأحيان معهم ويغادر متى يريد ولا يعترضه أحد. أبينو أصبح أيضاً من المقربين لقلب كوكى. كانت جدالاتهم وهما لا يعرفان لغة بعضهما البعض تضحك الجميع. تتبرع آمنة أحياناً بالتوضيح بينهما. أبينو أحياناً يمنعها مدعياً أنهما يفهمان بعضهما جيداً وأحياناً يطلب منها مساعدته متحيراً في فهم كوكى.

عندما وصلت المرأة باب الدار أفسح لها الصبية للدخول دون أن يقتربوا منها. هبت طيبة لاستقبالها فور رؤيتها مدركة أن المرأة قادمة من سفر طويل. تناولت يدها مصافحة واحتفظت بها حتى أجلستها ونادت على آمنة لتحضر كوب من الماء. تقدم منها خليل بانزعاج بائن على وجهه فهبت الضيفة واقفة وحيته بنصف انحنائه وقورة وهي تصافحه، وأردفت بتعجل تزيل عنه القلق بوجودها المفاجئ قائلة:

ـ خير يا سيدي كل الخير والجميع بخير فقط ألتقط أنفاسي وأزف لك كل الخير.

قبض خليل على يدها ودودًا وانفرطت أساريره مرحباً ولكن لم تختفِ الحيرة في عينيه. أجلسها بمودة واحترام وانصرف إلى غرفته. نظرت المرأة إلى طيبة معيدة مصافحتها وخاطبتها بمودة:

ـ أنت مِسكة أليس كذلك

فاض صوت طيبة بالحزن أومأت إليها نافية وموجزة بحزن ما حل بمسكة في كلمات قصيرة محزنة تقالد لها المرأتين. بكت طيبة على كتفها كأنها لحظة كانت تنتظرها لتخرج فيها مكنون حزن دفين. نادت على آمنة وهنومة وقدمتهما للضيفة كأنها تقدم لها جزء من شقيقتها. قبلت الضيفة الطفلتين والدموع تقطر من عينيها. عرفت نفسها لطيبة بأنها تهتم بأعمال خليل في المدينة دون أن تشير إلى أي تفاصيل.

التف حولها الأطفال بألفة وفضول وأمطروها بأسئلتهم عن المدينة عدا عثمان الذي كان يكتفى بمراقبتها مجيداً للإنصات باهتمام. اهتمت به حليمة دون أن تزعجه وهمست لطيبة إن كان واعياً للأمر في حينها. أكدت لها طيبة بنظراتها متجاهلة الخوض في التفاصيل التي لم تطرقها يوماً ولم تنسها لحظة.

غطت حليمة نائمة خلال مسامرتها لطيبة فهيأت لها ليلتها في نفس المكان وهي تدرك ما بها من وهن الرحلة. في صباح اليوم التالي اختلت حليمة إلى خليل في غرفته طويلاً. منعت آمنة نفسها الدخول عليهما وهي تتوق لمعرفة أخبار المدينة.

هللت بحليمة مرحبة عندما خرجت إليهم دون خليل وهم بانتظارها بالطعام، دلفت آمنة إلى أبيها بالطعام متوجسة فوجدته هادئ ينظر إليها كأنه في انتظارها. أجلسها بجانبه ورمقها بود قائلا:

ـ لقد كبرتي يا آمنة وأصبحت ملامحك بها الكثير من أمك وكثير من هدوءها.

أطرق برهة كأنه تراجع عن أمر لم يحن أوانه. أخذ يربت عليها كأنه يتفحص صباها ويرقب تباشير أنوثتها. فاضت أبوته وكبت رغبته في أن يضمها إلى صدره فقال لها يبث النضج فيها:

ـ اعتنى بضيفتك لاحقاً سيكون بيننا حديث طويل.

تسللت آمنة راضية تماماً وقد اعتادت ألا تسأل والدها حتى يقول لها هو ما يريد من تلقاء نفسه.

تسارعت السنون وشبت آمنة فتاة حسناء وتقسم قوامها أنوثة دافقة. اعتمدت عليها طيبة في رعاية البنتين وكل شئون المنزل، وتفرغت هي للمزرعة مستعينة بعمران وعثمان اللذين أشتد ساعدهما. تركت الحانوت في رعاية أبينو بإيعاز من آمنة.

منذ ظهور أبينو في القرية انزوى في ركن قصي من المنزل. تعود الجميع صمته ونسوا وجوده عدا آمنة التي كانت لا تفارقه. تعلم منها الكثير من لغتها وعلمها الكثير من مفردات لغته. وزعت بينه وبين أبيها اهتمامها، وهي التي أوحت إلى طيبة الاستفادة من أبينو في شئون الحانوت. كان له دراية بالأعشاب فأضاف الكثير إلى الحانوت بخلط كثير من النباتات لبعضها البعض لعلاج أمراض الربو والأوجاع التي تصاحب البرد لكبار السن فذاع صيت الحانوت في القرى المجاورة.

كان أبينو يقضى أوقات طويلة على ضفاف النهر وفى الحقول وجلب الأعشاب. بعد انحسار النهر كان يجلب التربة التي يجلبها في فورته ويصنع منها تماثيل لأناس عراة. يحرقها بعناية بالأخشاب فتصير صلبة

وسوداء مثله. ويصنع أخرى من أخشاب ينتقيها بعناية من التي يجلبها النهر. كان يهديها إلى الأطفال الذين كثروا بالقرب من الحانوت ونصبوا ملاعبهم حوله. رأته آمنة مرة يشرب خليط من الأعشاب مع ماء النهر الداكنة ولم تتردد في مشاركته عندما قدم لها منه.

****

عندما تذهب آمنة بالطعام إلى عمران وعثمان في الحقل، تعمد لترتيب أشيائهما ولا يغيب عنها متابعة عمران الخفية لها وهو يفلح الأرض. تشاركهما الطعام وتعيد ترتيب المكان. تحرص عند انصرافها أن تخص عمران بخبث بنظرة خاطفة كلها معانٍ فتشعل فيه رغبة عارمة وهو يرقبها مبتعدة دون أن تلتفت مرة أخرى وهي تحس بوخز نظراته في كل جزء من كيانها.

تحت شجرة الهجليج الوحيدة في المنطقة كلها كانت لقاءاتهما منذ الطفولة. يشملهما صمت طيلة الوقت. يتخلله حديث غالبه يدور حول عمه خليل بفضول يريد أن يعرف كل شيء عن ماضيه. لم تبخل آمنة في إرضائه ولكنها لا تبوح بكل شيء، تظل رغبتها في بعض الخصوصية مع أبيها. أخبرته يوم بعد تردد بعد وعد منه ألا يلح في السؤال بأن لها شقيقا من والدها في المدينة. الأمر تملكه بقوة ولكنه أوفى بوعده ولم يسألها المزيد. ندمت آمنة في نفسها عما صرحت به وتعمدت إبعاده عن الانشغال بالأمر تاركة يدها على يده دون أن تمسك به وتعلقت عيناها بعينيه فتأجج صدره ودون أن يدري كانت بين أحضانه وهو يقبلها بحرارة دافقة تقترب إلى

العنف. قبضت على صدره بشراسة الأنثى تمنعه من الالتصاق بها، وكأنها قررت أن تذوقه قبل إبعاده، شبت بعنقها وقبضت بشبق مرتين على شفتيه ثم قذفت به بعيدًا وغادرت دون أن تلتفت بخطى جاهدت أن تجعلها ثابتة وكل جزء من جسدها قد تضخم واستنفر.

لم يعد يومها عمران إلى المنزل وصار هائماً خجلاً نادماً على فعلته. عاد إلى المنزل بعد أن غابت الشمس تماماً. وجد الجميع يجتمعون جلوساً في فناء المنزل يتناولون الطعام توسطهم عمه خليل على غير عادته. توقف ينظر إلى المكان وغاب عنه الجمع ورأى جسد مِسكة مسجى على الأرض في نفس المكان. أفاق على صوت عمه يدعوه للجلوس. أفسح له أبينو الذي كان لأول مرة يشاركهم الطعام بحضور خليل، هيأ له مجلس بجانبه وهو ينظر له بابتسامة تكشّف عنها فراغ سنتيه الأماميتين. جلس متحاشيًا النظر إلى آمنة التي جلست ملتصقة بوالدها مثبتةً عينيها عليه في تحدٍ. استرق النظر إلى طيبة فكانت تلتهم الطعام باستغراق كعادتها. بادله عثمان نظرةً غير مبالية. بعد أن أكمل الجميع طعامهم أجلس خليل آمنة التي كانت تهم بالقيام لترتيب المكان. بعد أن هيأهم للإنصات إليه، قال بهدوء وسط ترقب الجميع:

ـ أعلمكم اليوم برغبة مِسكة ووصيتها وهي عقد قران عمران على آمنة.

غادر عمران المكان مسرعاً وأصبح يعدو في الظلام حتى بلغ قبر مِسكة. جثم على ركبتيه وأجهش في بكاء حراق. أفاق ويد طيبة تربت

على كتفه. ضمته إلى صدرها برهة بلوعة عميقة ثم أبعدته عنها وهي قابضة على كتفيه وقالت له وعيناها مليئة بالدموع ولكنها ثابتة لتمده بقوة وهي تشعر بفخر به:

ـ هيا يا بنى لدينا الكثير يجب أن نقوم به.

رافقها وقد تشابكت أيديهما وعادت إليه روحه كطفل وديع.

❊ ❊ ❊

(12)

بعد زواج عمران وآمنة تبدلت أحوال عثمان. رغم أنهما لم يفترقا وتقريباً كانت حياتهما على نفس الوتيرة، لكن عثمان أصبح يتحين الفرصة ليظل وحيداً على الربوة أمام المنزل الذي أصبح ملاذه. يرقب من مكانه مجرى النهر حتى يختفي جنوباً ويشده الجنوب بشدة. أصبح أكثر التصاقا بوالدته التي اعتمدت عليه تماماً بشعور الأنثى أن عمران قد امتلكته أخرى. آمنة لم تتغير عاداتها وتبدأ يومها بعد المرور على طيبة تتزود منها بالمهام التي في الغالب لا تختلف عن سابق الأيام ولا تمل من تكرارها عليها. اعتادتا على فراق الليل وكانتا تسامران طويلاً قبل النوم.

لم تفاجأ طيبة عندما أسر لها عثمان برغبته في الرحيل فأحواله لم تكن خفية عنها. فأطرقت حزينة وقالت له دون النظر في عينيه تدعى تشاغلها بأشياء أخرى:

ـ يجب أن تجلس مع عمك خليل والخيرة فيما اخترته

بقلب ثقيل انسحب من مجلسها وهو يعرف حجم ما سببه لها من ألم. بعد أن غادر تماماً توقفت طيبة عن عملها وسمحت لدموعها أن تنفذ ما بداخلها.

وجد عثمان آمنة لتوها مغادرة أبيها. نادى عليها فتوقفت لا يخفى وجهها فضولها لتواجده في المنزل ذلك الوقت. قبل أن يوضح لها رغبته أتاه صوت خليل من الداخل يدعوه للدخول. اندهش عثمان وبادل آمنة نظرة كلها حيرة فهزت كتفيها معلنة عن جهل كامل وتبادله الحيرة.

ولج عثمان إلى الغرفة وكله رهبة فكانت أول مرة يدخلها في حياته. تركه خليل يجول بنظره في المكان دون أن يشوش فضوله. هاله منظر السجادة العجمية على طول الحائط وساعة حائط خشبية بنحت جميل لم يعرف ما هي على وجه التحديد. عدة مقاعد مكسوة بجلد النمور وأشياء أخرى لم يعرفها ولكنه تأكد من التمثال الخشبي الضخم لامرأة عارية تحمل طفليها وبأرجلها أصفاد محطمة، صنعه أبينو قد رآه مرة في البهو داخل الحانوت ولم يكن مكتملاً.

مكث عثمان وقت طويل مع خليل مما أثار فضول آمنة التي أشغلت نفسها بأشياء كثيرة لتظل قرب المكان. غادر عثمان ولم يخاطبها ولكنها لمست في وجهه كثير من الرضاء. مساءً عاد عمران ولم يكن هاشاً كعادته. أخذها بين أحضانه مداعباً ولكنها ظلت هادئة تنظر في عينيه متسائلة. تركها وجلس في طرف الوسادة واضعاً وجهه بين يديه قائلاً دون أن ينظر إليها:

ـ عثمان سيغادر غداً إلى المدينة

لم تعقب وبهدوء تناولت أغراضه لتضعها في مكانها. وخرجت لطيبة تساعدها في إعداد الطعام وفى داخلها شعور برغبتها أن تشاركها محنتها.

****

تسارعت نبضات قلب عثمان والقارب الشراعي الوسيع يمخر متمهلاً وربابينه يعملون على قدم وساق استعداد للرسو به. تتبادل الصيحات بينهما كأنهم يوثقون ختام رحلة طويلة تحمل هموم وأحلام الوافدين. من بين الأشجار على ضفة النهر المرتفعة تلوح أحياناً المباني الطينية ذات الأسوار العالية. خفّ عنه الشعور بالذنب الذي كان يعتصر قلبه طوال الرحلة وهو بعيد عن أمه لأول مرة وحل محله أمل العودة بنصر تفخر به. كاد ينسى ربطة متاعه الكبيرة التي صنعتها له أمه وعاد بسرعة يبحث عنها وتحسس بيده داخلها ما دسته طيبة له لتسليمه لحليمة. وقف على الرصيف الطيني المنحدر يرقب المارة حتى أصبح وحيدا بالقرب من المركب. سحنات مختلفة ومقطورات بإطارات خشبية تجرها البغال تحملت من المركب بجوالات وأغراض فاقت قدرة الحيوان الذي رأف لحاله وهو يتسلق المنحدر الطيني تحت فرقعات السياط. تحدث معه أحد المارة ولكن سرعان ما أهمله وقد لحظ تيهان غربته. لم يحفل به هو أيضاً وبدأ في رحلة الصعود من المرسى المنخفض ووقف في الأعلى واضعاً أغراضه على الأرض يتأمل امتداد المدينة البعيد عن النهر فأحس باختلاف المشهد الذي رسمه خليل في خياله. بفقدان أمل الوصول

واصل رحلته إلى المعمورة في طريق بعيد عن وصف خليل الدقيق له. بدأ في رحلة السؤال البعض يضيق منه والبعض يتهكم به وآخرون ليس لديهم ما يفعلونه يسهبون معه في الحديث عن أصله وفصله دون أن يستفيد منهم شيء. ظل يتجول في الطرقات حتى مالت الشمس إلى المغيب. صادف رجلاً تقدم به العمر يتحدث لغته وبعد حديث طويل أكد له الرجل أنه بعيد عن هدفه وما لديه من وصف عند المرسى القديم الذي تم هجره من زمن طويل. تزود منه بوصف دقيق وعاد إلى النهر وسار يحاذيه حتى أنهكه التعب وأظلمت الدنيا من حوله وتعذرت عليه الرؤيا. توسد متاعه بالقرب من النهر يراقب النجوم حتى غلبه النعاس. انتبه الفجر على حوافر خيول وجلبة حوله، وجد جماعة من العسكر تحيط به وتحدثوا معه بصياح بلغة لم يفهمها ولكنه أدرك أنهم يأمرونه بمغادرة المكان تحرك على مهل لجمع متاعه فترجل أحدهم ولسعه بسوط على ظهره يحثه على الإسراع. تدفق الدم في رأسه وهب لمواجهة الرجل الذي تراجع متأهباً لمزيد من الضرب. حدجه بنظرة تحد متراجعًا عن النزال وجمع متاعه غير متنازل عن تحديه. الرجل وقف حازماً ولكنه توقف عن قراره لمزيد من الضرب. واصل هو سيره إلى هدفه وغادر الجنود بعد أن توقفوا برهة يرقبونه مبتعداً.

تأكد أنه وصل المرفأ القديم عندما لاحت المباني عن قرب كما وصف له خليل. كان مهجورا تماماً إلا من هيكل قارب خشبي ضخم محطم تماماً كأنه يحكى عن واقعة حربية موغلة في القدم. بالقرب من القارب تناثرت قوارب صغيرة مهجورة للصيادين والبعض منها موثوق بهيكل

القارب الغريق. لم يكن النهر منخفض كثيراً ولكنه تسلق انحدارا حادا يتابع طريقاً مطروقا صنعته الأرجل. من على بعد وقف يطالع المنازل العتيقة تطل على النهر. بدأ سيره بدقة الوصف ولكنه تيقن أن هناك الكثير الجديد من العمران لم يعاصره خليل. تملكه شعور قوى بأنه قريب من العنوان. وضع أغراضه على مقطورة صغيرة ووقف يرقب حوله يجمع أفكاره المبعثرة. خرج من المنزل الذي يستظل به رجل فارع الطول فاتح البشرة تلفح بشرته الشمس بهندام منظم ويقود خلفه بغل أبيض ضخم من داخل المنزل. تناول عثمان أغراضه فوراً من فوق المقطورة وقد عرف مقصد الرجل وخاصته. بادله الرجل التحية بهدوء بنظرة متسائلة تنم عن رغبة مهذبة للمساعدة وقد عرف من هيئته أنه غريب وصل لتوه. شرع عثمان في أسئلة غير مرتبة مضمناً اسم حليمة. سأله الرجل بهدوء عن اسم قريته ولم يعلق عندما أخبره. بتأني ربط البغل بالمقطورة ودعاه للدخول إلى المنزل. قاده لغرفة صغيرة وتركه لوهلة وعاد معه حليمة تتقدمه بنظرة كلها تساؤل وفضول. تهللت أساريره برؤيتها فهشت له مشجعة وقد شعرت أن الفتى قد تعرف عليها. تذكرته عندما حكى لها عن زيارتها لهم فهو ذلك الصبي المنعزل التي أشفقت على مأساته. أعادت سلامها عليه بقبول وترحاب شديدين وسط اندهاش حميدان الذي تقدم منه معيدا مصافحته.

سرعان ما تآلف حميدان مع عثمان وفى أعماقه رغبة البحث عن جزوره من أبيه. سأله مطولاً عن آمنة وهنومة التي شوقته حليمة كثيراً إليهما. لحظ عثمان انتباهه عندما حكى له عن خليل ولكن تفادي الخوض معه

في الحديث عنه. نمت بينهما ألفه وحميدان رجل في مقتبل العمر وعثمان شاب يانع مقبل على الحياة. أحس بمسئولية نحوه وبث فيه الأمل بحياة مستقرة في المدينة وطمأنه على توفر فرص العمل.

حليمة جاهده ودوده أزالت عنه غربته. أحضرت بنتها نعيمة زوجة حميدان وزهرة تلك البنت المنطوية على نفسها لتحيته. رحبت به نعيمة وزهرة التي لم تكترث لوجوده كثيراً غادرت عندما توانت لها الفرصة. لم يلحظ ذلك لشدة خجله وتأثره بالترحاب الذي غمرته به حليمة.

❊ ❊ ❊

(13)

التحق عثمان بعمل في إسطبل للخيول يخص أحد كبار الحكام. كان عمله رتيباً في إطعام الخيول ونظافتها وكان عليه أن يقودهم راجلاً يتجول بهم واحد تلو الآخر للحفاظ على حيويتهم. نمت بينه وبين المسئول من الإسطبل مودة وكان من أهل الشمال ويتحدث لغة مقاربة للغته. دربه على ركوب الخيل وعلمه الأسرار التي تجعل بينهم وبينه مودة. تأقلم عثمان على مهامه واعتمد مدربه، وأسمه أيضاً عثمان عليه كثيراً. ذات يوم رافق زميله على صهوة فرس يحبها كثيراً لتوصيلها للسيد وابنته اللذين يريدان القيام بجولة بالخيول. أوصاه كثيرا بالتزام الصمت التام في حضرة السيد.

ذهب عثمان باستمتاع يمتطى الفرس وقد نما بينهما ود. حثه عثمان بالإسراع وهو يرى السيد وابنته في الانتظار أمام القصر. بهت عثمان على صهوة الفرس وهو ينظر إلى السيد بهندامه الجميل وشاربه الضخم ويضع

نظارة بعين واحده تتدلى منها سلسلة ذهبية إلى سترته ويتوكأ باختيال على عصاة أنيقة. ارتفع صوت زميله زاجراً يأمره بالترجل. غادر الفرس بتأنٍ وعيناه عالقتان بالرجل الذي خلع نظارته استنكارا وصب جام غضبه على عثمان بلغة لم يفهمها. في طريق عودتهم راجلين لم يسمع عثمان شيئا من رفيقه الذي لم ينقطع عن تعنيفه. فجأة وقف قبالته والشرر يتطاير من عينيه. توقف الرجل عن الحديث وتنازل عن غضبته وهو يشعر بأن الأمر له منحنى آخر تهيبه في نظرات عثمان الملتهبة. التزم الصمت وهو يرمق عثمان متوجساً يحثه على الحديث. قال عثمان بغضب:

ـ هذا الرجل هو قاتل أبى أجزم أنه هو

منذ ذلك اليوم تبدلك أحوال عثمان. تغيب عن العمل يومان متسكعاً في الطرقات. ذهب زميله عثمان إلى صديقه حميدان وأبلغه بالواقعة. أسر حميدان لحليمة بالأمر ولكنهما أخفيا عنه علمهما بالأمر. عرض عليه حميدان مشاركته في أعماله وإدارة حانوت الحبوب بدلاً عن آدم ابن حليمة الذي غادر قبل حضور عثمان بأيام إلى الغرب مستقلاً بأعماله. تحايل عثمان على رفض مهذب مغلفاً بوعود مستقبلية للعمل معه وفي داخله رغبة أن يكون قريب من عدوه. عاد إلى عمله وجل يومه عيناه معلقتان بالقصر عن بعد. يعود إلى المنزل متأخراً متسكعاً في الطرقات حتى ينام الجميع. أشارت حليمة على حميدان أن يمنحه المنزل الآخر حتى يخلو لنفسه ويصير له مأوى بدلاً من التسكع الذي قد يضيع فيه ولا تخلو المدينة من المواخير ورفقاء السوء. عقل حميدان الأمر وانتقل عثمان

إلى منزل داؤود الذي ظل مغلقاً منذ أن غادر خليل. وقد أولته حليمة رعايتها وتفقدها المتواصل له. أصبحت تتسلل صباحاً تهيئ المنزل وتعد الطعام قبل عودته وهي تحس بآلامه وتعرف عمق جرحه. استقر عثمان في سكنه الجديد وداوم على زيارة حليمة في أيام تعطله عن العمل القليلة محملاً بالأغراض ويحرص على تقبيل يديها بصدق وهو يفارقها. وأحجم كثيراً عن الإفضاء لها وهو يحس بالأمان بقربها منه وهو متشوق لأمه طيبة.

****

أصاب عمران فراغ كبير بعد مغادرة عثمان وأصبحت حياته رتيبة. كانت آمنة تحس بحاله وهي نفسها غياب عثمان قد أحدث فراغ في إيقاع حياتها. تنقلت دائماً بين عمران وطيبة كأنها تواسيهما. زاد تواصلها مع هنومة وصليحة فلديهما كان الأمر أسهل وسكينة لانقباض صدرها وهي ترنو إلى اهتماماتهما الصغيرة. عند شجرة الهجليج يوماً طفح غضب عمران ولعن رتابة الحياة. نظرت إليه آمنة مشفقة وقالت له:

ـ أبى يقول لم يحن الأوان بعد ولكننا سننتقل إلى المدينة

انتبهت جوارح عمران مستفسراً فواصلت آمنة تحدثه بأن أباها رتب الأمر مع عثمان وفى انتظار عودته.

كان غياب عثمان قد تعدى عامه الثالث وقليل من الأخبار الضبابية تأتى مع العائدين وقليل منهم قد رأوه وحكوا عن انطوائه وبعده عن مخالطة الناس. حزمت آمنة أمرها وذهبت لوالدها تستأذنه إرسال عمران للاطمئنان على حال عثمان وقد تقطع قلبها لحال طيبة الحزين. قبل أن

تفاتحه أسر لها هو بقلقة ولكنه أوصاها ألا تنقله للآخرين. خرجت آمنة من لدى أبيها بصدر منقبض وحمل ثقيل لتفاجأ بعثمان في وسط الفناء واقفاً مبتسماً ينظر إليها. صرخت كمن أصابتها لوثة وقفزت في مكانها عدة مرات كطفلة. هرع الجميع وأيضا خليل فزعين. صليحة كانت أول من تعلق بعنقه. عمران الذي كان قديما متكاسلاً هرول كالمجنون وهو يسمع صرخات آمنة قادمة من الدار فوصل عثمان مقالداً وهو في أحضان طيبة. دبت حياة في المنزل وكانت طيبة كأنها تريد أن تخدم الجميع في ليلة عرس.

❊ ❊ ❊

(14)

عاد عثمان من المدينة رجل ناضج كأن الثلاثة سنوات التي غابها كانت تزيد عن ذلك بكثير. . الوقت الذي وصل فيه عثمان كان وقتا عصيبا وقد اختاره قصداً. ذلك العام لم يفض النهر وذبلت الحقول وضمرت كثير من أشجار النخيل. حضر ومعه زاد من الحبوب ونقود معدنية لم يرها خليل من قبل. اختلى بخليل وعمّ بينهما صمت بعد أن أبلغه كل وصايا وأخبار حليمة. أطرق خليل كأنه عاد سنين إلى الوراء ونظر إلى عثمان ملياً وقال له:

ـ هل أخبرك حميدان عنى

رد عثمان بالإيجاب بهزة من رأسه دون ينظر إليه كأنه ينتظر هذا السؤال ولكيلا يأتي السؤال بآخر قال مختصراً

ـ كل شيء

صمت خليل برهة وكأنه يأذن لعثمان بالانصراف تناول عصاه

الأبنوس وتشاغل بتنظيفها فتسلل عثمان خارجاً دون أن يلتفت إليه خليل. أعاد العصا إلى مكانها بعناية وحاول البحث عن شيء آخر فتعلقت عيناه بمسبحة معلقة على الحائط أهداها له داؤود. أصابته غصة في حلقه وهو يتذكر جسد داؤود مسجى مضرجاً في دمائه فأخفى وجهه بين يديه.

قلب طيبة لم يكن مطمئنا على عثمان حتى وهو بقربها. تراقب الانشغال الدائم في عينيه ولا تؤنس هواجسها مداعباته ولا انفراطه مع هنومة وصليحة. كأنها حزمت أمرها دلفت ذات يوم إلى خليل بغير عادتها تحمل له الطعام. تنحت آمنة أمام رغبتها تغلبها الدهشة صامته وتيقنت هناك خطب يخص عثمان فهي أيضاً لم تكن غائبة عن أحواله. لم يتفاجأ خليل بطيبة وطلب منها الجلوس. بعد فترة من الصمت قال لها:

ـ أنا أيضاً أحوال عثمان تحيرني كنت أنتظر أن أعرف منك ولكنى سأتحدث مع عمران.

لم تزد طيبة وجلست معه حتى أكمل طعامه. قامت في صمت وأصلحت بجانبه أشياء مرتبة أصلاً طافت بنظرها باهتمام العارف في الغرفة علها تفيد في شيء تقوم به. اكتفت بجعل حذائه أكثر قربا منه وحملت أواني الطعام وهمت بالانصراف وهي تكاد أن تترك الغرفة ناداها خليل باسمها لأول مرة. توقفت تنظر في عينيه المليئة بالعرفان. قال لها بنبرة محفزة:

ـ أنت امرأة قوية أعرف أن الحمل ثقيل فكونى كما أنت.

ودعته بابتسامة رضاء وخرجت. هرولت لها آمنة وحملت عنها الأواني ورافقتها بحنو إلى مقعدها المفضل لغزل جريد النخيل فجلست عليه بكل ثقل السنين في تعابير وجهها. حزمت آمنه في نفسها وهي تتأمل مسحة الحزن علي وجهها أن تتحدث مع عمران في أمر عثمان.

عمران أيضاً لم يكن غافلاً عن حال عثمان ولكنه أدرى الناس به منذ طفولتهما وتعود احترام خصوصيته. نظر إلى عثمان من بعد مطولاً وهو جالس على الربوة يحدق في البعيد. دنا منه وشاركه الجلوس بدون أن ينطق بشيء محدقاً في المجهول الذي يرقبه رفيقه. التفت إليه عثمان وقد بلغه مراده فأجابه عمران دون أن يلتفت إليه:

ـ يا عثمان انتظرتك طويلاً أن تتحدث معي بدون جدوى أنا الآن رسول والدتك وعمى وآمنة قل لي بالله عليك ماذا بك فحالك يقلقني

لفهما صمت صبر عليه عمران متيقنا أنه حزم أمره. بدأ عثمان كأنه يعتذر:

ـ أنا الذي يحتاج أن يتحدث معك يا عمران وقد أتيت خصيصاً لذلك

صمت كأنه يتأمل ما سيقوله. نظر إلى عمران بجدية متمالكا نفسه والدم يتدفق غزيراً في جسده وقد أحمرت عيناه بدموع ساخنة:

ـ لقد وجدت قاتل أبى يا عمران أعمل لديه وأراه كل يوم أمامي

هب عمران واقفاً كمن لدغه ثعبان وأول ما تراءى له جسد مسكة مسجى على الأرض وداخل ثوبها الأبيض قبل إنزالها إلى القبر.

لم يغب عن آمنة التغيير الذي طرأ على عمران. لم تسأله ولكنها

صارت ترمقه خلسة وقد ضاع منها الأمان. في جلسة طويلة مع خليل بادر عمران وأفرغ له كل شيء بدون مواربة وأكد له عزمهما في الانتقام. سقط في يد خليل ولكنه آثر الصمت مطرقاً على الأرض تاركه متدفقاً حديثه. نظر إلى عثمان يأذن له بالحديث بعد أن أفرغ عمران ما لديه. بعد صمت قال عثمان:

ـ هذا كل ما لدينا

تحدث خليل معهما مطولاً عن ضبط النفس وفى طيات حديثه يوصيهما بأن الحرب ترتيب ودقة في التنفيذ فخرجا وقد حلت بهما سكينة وثبات وضاع كل التوتر داخلهما لمباركته لهما وهما لا يعلمان أنهما تركاه في حال هو الأسوأ في كل حياته يعتصره ألم قلة الحيلة وهو يضعهما في طريق خطر وموحش.

في طريقهما خارج الغرفة تحاشى عمران نظرات آمنة وهي تنتظر متوجسة بقلب ثقيل. نادى عليها خليل فلبته وعيناها معلقتان بهما يغادران الدار تتصادم أكتافهما. جلست تسمع لوالدها وهو يخوض في موسم القحط تنتظر ما سيأتي بعد ذلك. رويداً أخبرها والدها برغبة عمران السفر الى المدينة برفقة عثمان. متداركاً عدم الشرح أوضح لها أنه عندما تستقر أحواله سيأتي لترافقه إلى المدينة. اكتفت بالاستماع دون سؤال ولكنها خرجت وقلبها مثقل. بذلت قصارى جهدها أن تكون على سجيتها عندما التقت بعمران وعثمان. لم تجادله وهو ممتلئ نشوة للقاء المجهول. انسحب عثمان متجاهلاً نظراتها وكلها رجاء وتساؤل.

ليلتها الأخيرة مع عمران كانت متنبهة تماماً وتمنت ألا يبارحها. همست في أذنه:

ـ كم أتوق إلى شجرة الهجليج

قبلها في كل جزء في وجهها واعتصرها كأنه يأخذ منها زاد لسنين طويلة طارحها شبق بشبق حتى همد جسده وهو فوقها فأحس بثقله عليها ولكنها قبضت عليه تمنعه أن يتركها. تسلل منها ببطء وهي لا تزال تقبض عليه فتحولت معه وصارت تعتلي نصفه محتفظة بساقه بين فخذيها ونصف صدرها على صدره ودفنت وجهها في عنقه تشتم رائحته حتى غطت في النوم. تعلقت عينا عمران بالنجوم وهو يغرز أصابعه في شعرها الكثيف يدلك جلد رأسها تماماً كما كانت تفعل معه مِسكة. بدأ يتابع عقد النجوم التي يعرفها جيدا. ظهرت له العقرب فتابع تفاصيلها وتشابكت النجوم خطوط أمامه كما كانت ترسمها له مِسكة وهو نائم في حضنها. رأى وجهها على سطح القمر فأغمض عينيه لينام على محياها.

❊ ❊ ❊

(15)

عمران ملأته رواية عثمان فأصبح لا يرى في المدينة سوى رسالة إلى مسكة أقسم أن يكتبها بدم قاتليها. رغبة الانتقام تخللت كل كيانه أججها بلوغهم مشارف المدينة فتملكه شعور أنه وعثمان كتيبة من الجند كاملة العتاد. مقابلة حميدان كان لها طعم آخر وأعادته كثيراً لتوازنه. طالما صوره في خياله وخلفه سر عمه الذي يستشرى في جوارحه. كياسة الرجل ووقاره وحفاوة حليمة التي تقدم بها العمر بدلت كثيرا من فورة مشاعره.

كان حميدان يعيش مع زوجته نعيمة التي تحمل طفل في أحشائها منه وتعيش معه أيضاً بنت خاله زهرة التي أتى بها والدها وهي في الحادية عشر من عمرها في حالة من الذهول والأعياء. كانت قريتهم قد تم تدميرها الجند وتم اغتصابها بوحشية. لم يعد والدها ظلت تحت رعاية حليمة التي طافت بها على المشايخ لتطبيبها. تعافت زهرة كثيراً ولكنها

عاشت في انطواء وأقرب الناس لها نعيمة وهي لا تدري أن أباها هو قاتل والدها داؤود ذلك السر المدفون في صدر حليمة.

****

ذهب عثمان إلى قصر السيد وبرفقته عمران. قدمه لصديقه ورئيسه عثمان طالبًا عونه للحصول له على عمل. رغم تعاطف عثمان مع رفيقه بعد أن علم سره، كان متوجساً منه ولم يرق له حضور عمران الذي كان صامتاً طيلة الوقت. رغم ذلك وعده بتقديمه للسيد والبحث له عن عمل. يوم مقابلة السيد كان عمران متوجساً وتعتريه مشاعر شتى من عدم الارتياح. انزاح عنه الكثيرً عندما وجد المقابلة مع وكيله. كان الوكيل من أبناء البلاد يرتدى جلباب ناصع البياض برباط عريض أخضر على خاصرته ويغطى رأسه بعمامة أقرب للعسكرية. كان هادئا وودود ولا يخلو حديثه من صلف ينبئ بتكليف مطلق. عرض على عمران عمل حارس ليلى من الواضح أنها وظيفة لها ضرورة ملحة ولكنه لم يغفل أن يشعره بأنها منّة منه وإكرام لعثمان. أبلغه أن يباشر في نفس اليوم وسيتم تسليحه وتدريبه على عمله.

التحق عمران بحارس آخر متقدم في العمر سحنته ولهجته واضحة من أهل الشرق. لم يرق للرجل قدوم عمران الذي سيخلفه على عمله حتماً. كان للحارس سكن من غرفة واحدة متاخمة لمكان عمله عند المدخل الرئيسي للقصر. صار عمران يعمل ليلاً ويتلقى تدريبات عسكرية وبدنية نهاراً. تدرب على السلاح واعتاد عليه بسرعة وعمل بجد لإتقان استخدامه.

في المساء تأتى ابنة الحارس إلى أبيها بالطعام. عمران يرقبها خلسة ويأسره رداؤها الذي يلتف حول جسدها بالتصاق يظهر مفاتنها. مربوط على خصرها بإحكام شال عريض تقسم له لجزء الأعلى من جسدها عن الأسفل ويمتد مغطياً ظهرها كاشفاً عن صدر ناهد بفتوة. تتدلى منها ضفائر غليظة على ظهرها واثنان على عنقها من الأمام وآخرتان قصيرتان يتدليان على وجهها. تلبس عدة أساور بحبات خشبية على جيدها وأساور جلدية على زنديها وتنتعل صندلا جلديا بسيور رفيعة كأنها حافية. لونها خمري ولها عينان كحيلة داكنة فوق أنف دقيق يجعل وجهها في جمال جنية البحار التي حكت له عنها مِسكة. لم يغب عن الفتاة نظرات عمران ولكنها تجاهلتها تماماً وهو أيضا عمد جاهداً ألا يشغل نفسه بها.

اعتاد الشيخ على عمران وتوطدت بينهما العلاقة وأصبح يشاركه الطعام ويطول بينهم الحديث في الليل. أخبره كثيراً عن القصر الذي عمل من قبل فيه وقد منحه السيد هذه الغرفة وتحول لهذا العمل لتكون أسرته بجانبه. عمد عمران يدفعه للحديث عن القصر فيمن الرجل بإسهاب العارفين.

تنبه عمران في إحدى الليالي بأنين الشيخ الذي كان يغفو كثيراً وهو جالس يجاهد يتصنع الاستيقاظ. اعتاد إهمال رفقته ليدع له فرصة النوم بدون حرج. أيقظه عمران فوجد الحمى قد تملكت منه ساعده على النهوض مسنّداً له وأخذه لغرفته وكانت أول مرة يقترب منها. طرق طرقاً خفيفاً على الباب فخرجت له امرأة متقدمة في العمر وجهها صارم

تلف وسطها بقماش يغطى ساقيها وعارية تماماً من أعلى. لم تتكلم معه وسارعت بتسنيد زوجها وإدخاله الغرفة وأغلقت دونه الباب خلفها. استدار عمران ليعود فتسمر مكانه كادت تفضحه شهقة وهو يري الفتاة على ضوء القمر نائمة خارج الغرفة عارية تماماً. مستلقية على ظهرها إحدى يداها خلف عنقها يظهر شعر الإبط كثيفاَ والأخرى على خاصرتها. مر بعينيه على نهديها المتفرقان المتكوران بثبات. بحث فوقهما حتى حلمتيهما الدقيقتين. نزل ببصره متأملاً انزلاق جسدها حتى وصل كومة الشعر الكثيف بين فخذيها فاقشعر جسده كله وأصابته رعشة وغادر مسرعاً ولم يلحظ أن عيناها كانتا مفتوحتان ترمقانه. قبل أن يتمالك أنفاسه جفل وهو يجدها واقفة خلفه ترمقه بلا حراك عارية كما رآها. هب واقفاً ولم يتمالك فقبض على نهداها يعصرهما وفى لحظات كان يعلوها على الأرض وفشل في تحرير نفسه من كل ملابسه. تسللت ببطء من قبضته حين سكن دون أن يفلح في مضاجعتها كاملاً. وقبل مغادرتها دست يديها في صدره واعتصرته عدة مرات وعياناها مثبتتان على وجهه.

ظل يتحرق لها ولم يرها عدة ليالٍ. والدها لازال مريضا فلم يجرؤ على زيارته. وتحولت عيناه من القصر الى غرفتها طوال الليل. في ليلة دون أن يلاحظها وجدها أمامه تحمل له الطعام. تناول الوعاء منها وكان به حليب دافئ يحوي حبات من الجبوب متشربة منه. رفعه إلى فمه وتناوله على ثلاثة دفعات وأعاد لها الوعاء. تناولته وقد اتسعت بسمتها من طريقة تناوله للطعام. وضعت الوعاء جانباً وجلست بقربه. وهو يدنو منها صدته بيديها برفق. دست يديها في صدره أخذت تدلك عليه.

ألصقت صدرها به وغابت يداها خلف ظهره. كلما حاول أن يتحرك ليحتويها تستوقفه بحركة صارمة منها. بعد أن تملكته تماماً كما تريد تركته يعتصرها بقوة تنفّر لها جسدها وبادلته نهش أكثر شراسة وعلت أنفاسهما بصوت مكتوم تخرج منها أنات فجرت فيه شبق مجنون. بعد أن شبع مجونه ظل أسيرا لتشابك جسديهما حتى ارتخت أعضائها ليتحرر منها. توالت لقاءاتهما كل ليلة فتفاجأ يوماً ووالدتها أمامه ليلاً فهب واقفاً فأومأت له أن يتبعها. وجدها جالسة في خارج الغرفة تنظر إليه بسكون. دلف إلى الغرفة فوجد والدها جالساً متجهماً وبادره بدون أي تقديم:

ـ ستتزوج ابنتي غداً. سيأتي قريبان لي عند الظهيرة

وصمت كأنه يأذن له بالذهاب. خرج مشدوهاً مشلول التفكير. جلس طيلة الليل ولم تذهب إليه. قرر ألا يعاند الفكرة ويجعل الأشياء تسير كما هي.

***

(16)

سنحت فرصة لعمران باستدعائه للقصر للمساعدة في حفل يقيمه السيد. قُدمت له ملابس أقرب إلى ملابس الوكيل وباشر مهمته في ذهول من مظاهر البذخ في القصر ورأى السيد لأول مرة عن بعد. لم يهتم به كثيراً مثل اهتمامه بدراسة مداخل القصر. تمكن من التعرف على مدخل صغير للقصر مخصص للعاملين في الطهو ونظافة القصر. حانت له فرصة رقص قلبه طرباً له ورئيسه يأمره بمساعدة إحدى الخادمات بنقل أغراض لغرفة نوم السيد.

تكررت حفلات القصر وأصبح عمران أكثر ألفه به. في الليالي المقمرة يظل يرقب القصر من مكان عمله حتى إخماد آخر مصباح فيه. نهارا يجتمع بعثمان عند إسطبل الخيول يتناولان معاً الطعام ويفضي له بما عنده. ظفر عمران في اختلاس سلاح من مستودع التدريب وأخفاه ليلاً بالقرب من القصر عند مدخل الخدم. تحددت لحظة الانطلاق في حفل

في القصر احتفاء بذكرى مولد السيد. اتفق مع عثمان الحضور عند الفجر حيث يكون الجميع نائمين بعد ليلة من السهر والخمر. حرص ذلك اليوم أن يكون آخر الذين يغادرون القصر ولم يحكم أغلاق مدخل الخدم. عند الفجر بعد طرق خفيف على المدخل الرئيسي الذي كان مواراً تسلل عثمان وذهبا معاً إلى حيث السلاح وولجا إلى القصر. بخفة ودراية تقدم عمران رفيقه حتى يلجا مخدع السيد. فتح الباب ببطء وأفسح لعثمان ليتقدمه

كانت غرفة واسعة وثيرة بأثاث ضخم وخزانات عالية في وسطها مرآة عملاقة تشع بنور خافت يعكسه عليها مصباح زيتي يطل ضوئه خلال زجاج بلوري بمختلف الألوان من زواياه المضلعة. في نهاية الغرفة كان الرجل يغط في نومه على فراش وثير يغطى رأسه غطاء أحمر مثل القرطاس يتدلى منه خيط من نسيجه على صدره. بجانبه زوجته البدينة تغط في نوم مسموع. قبع عمران قرب الباب غير محكم إغلاقه وتقدم عثمان بحذر شاهراً سلاحه. صوب فوهة البندقية على وجه الرجل وأخذ يتأمل ملامحه على الضوء الخافت. طاف في رأسه مشهد الرجل وهو يقتل أشقاءه الواحد تلو الآخر. أطل عليه وجه والده وعيناه في فوهة السلاح. لحظتها فتح الرجل عينه فانطلق السلاح في يده مهشماً وجه بدون حراك. فزعت المرأة بجانبه وقبل أن تفيق لما يحدث، سدد لها عثمان طعنة بخنجر ملحق بالسلاح في صدرها فهمدت في مكانها. مع صوت الطلق الناري دلف عمران إلى داخل الغرفة. فُتح الباب من خلفه عن مصراعيه والتفت عمران بخفة مطلقاً النار. تسمرت عند الباب فتاة بيضاء ترتدى ثوبا

أبيض فضفاضا بحلقت في عمران ودون أن تدير عنقها نظرت إلى عثمان ثم إلى السلاح الذي تركه مغروزاً صدر أمها ثم هوت على الأرض. جثم فوقها عمران مذهولاً وهو يرى الموت يطل من وجهها.

اقتلعه عثمان نزعاً كما العراك من فوق جسد الفتاة ودفعه أمامه وحثه بعنف على القفز خلال النافذة وتبعه وتخطاه مسرعاً. تبعه عمران في شرود غير آبه بالخطر الذي يحدق بهما ووجه الفتاة يطل منه الموت لا يزال عالقا أمام عينيه. نما لمسمعهما صياح متفرق وصوت أقدام كثيف على الردهات فتيقن عثمان بأن الأمر قد تكشف وصارا داخل دائرة الخطر. تنبه أن عمران لا يزال يحمل سلاحه فتوقف وأعترض طريقه وانتزعه منه وقذف به وسط الأشجار وتابع عدوه. هذه المعركة الخاطفة تبعتها فرقعات ذخيرة أفاقت عمران من غيبوبته فأمعن في الهرب خلف عثمان.

تسارعت خطواتهما متباعدين على جانبي الطريق أكثر ثباتاً وقد تلاشت ضوضاء مطارديهما. بدأت الرؤيا تتفتح أمامهما وخيوط الفجر تتسرب من احمرار الأفق ودبت بعض الحياة بقليل من الناس على جانبي الطريق. البعض تجمد أمامهما والبعض تحاشاهما في حذر وفضول. تعالت طلقات بعيدة جعلت من الخوف ماردا هابطا من السماء وقبض على تلابيب الكل فانتقلت نوبة الهروب إلى الجميع فهرولوا في كل اتجاه فارين أمام خطر لا يعرفون كنهه ولا يدرون من أين يأتي.

عندما بلغا قلب المدينة كان الإنهاك قد بلغ منهما ذروته فتوقف عثمان يلهث وهو يراقب عمران في الجانب الآخر من الطريق يتقدم بخطوات

تكاد لا تحتمله. الطرقات خالية وقد أطبق صمت يخترقه وقع خطواتهما ونهيج أنفاسهما. زجّ عثمان بنفسه وسط كومة خزائن خشبية محطمة وأغراض تُركت مهملة وجلس متهالكاً على الأرض يلتقط أنفاسه بشهقات متلاحقة تلهث لمزيد من الهواء. على الجانب الأخر من الطريق عمران كان يقبض صدره بيده اليمنى كأنه يقبض على أنفاسه لم يتبع عثمان في تلك الأنقاض. تسلل داخل مبنى متصدع وتمدد وسط كومة من الحشائش المتيبسة وصدره يعلو ويهبط بأنفاس رهق وعيناه ترقب الطرقات الخالية من خلال تصدع على الحائط.

الحوانيت أبوابها الخشبية مغلقة وبعضها عتيقة لم يحكم إغلاقه. يشق السكون عن بعد صرير أبواب المنازل وفرقعات سقوط المزالج الخشبية الضخمة والناس تؤمن منازلهم وتقفل أبوابها التي لم يحفلوا يوماً بقفلها. أوراق الأشجار يحركها هواء الصباح البارد دائرياً فترتفع عن الأرض نحو السماء يتبعها عمران بعينيه وهو يلتقط باقي أنفاس ويعتصر بيده غثيان في أمعائه. أغراض تُركت مهملة على طاولة كبيرة أسقط الهواء منها شيء على الأرض أفزعه. في سكون الكون حوله تراءى له أنه يسمع رنين صرخات ثكلى آتية من بعد سحيق مثل تلك التي سمعها طفلاً في قريته وهو قابع في مخبأه وسط النخيل وآمنة بين ذراعيه فأغمض عينيه. فجأة تنبهت كل حواسه وأخذ يتحسس الأرض من تحته بيديه بانزعاج كأنه يبحث عن شيء ضائع منه. ارتجاج سحيق قادم مثل ما حدث وهما على شاطئ النهر. بدأ دبيب حوافر الخيول يتعالى شيئاً فشيئاً حتى صار ضجيج ينهب الأرض. تملكه فزع وقد تراءى له وجوه الفرسان المكفهر

المغطى بالتراب ذلك اليوم. لم تكن آمنة بين ذراعيه ليتشبث بها وضاع ارتباطه بنفسه وقد تراءت له النيران تلتهم القرية وجسمان مسكة يحتضنه عمه جالساً تبلل الدموع وجهه.

حاصره الخطر من كل صوب وصار يهرب داخل البناية المتصدعة متخبطاً كحيوان حبيس. نفذ إلى قارعة الطريق فاقداً بوصلة قيادته لا يلوى على شيء. وجد نفسه احتبس وسط خضم من الفرسان والجياد تجفل من أمامه فاخترق الجموع وتخطاهم إلى مفرق ضيق والرصاص ينهمر من خلفه. كاد أن يسقط متعثراً ولكنه استرد توازنه دون أن تتريث خطاه في إصرار تجمدت فيه كل حواسه. ضاع منه إحساس ارتطام قدميه بالأرض كأنه يحلق في السماء وانتظمت أنفاسه كمن يغط في نوم عميق. تعلقت عيناه متحجرة في هدف بعيد لا يراه. أزيز الطلقات تمر خافتة ويرتفع صداها لحظة خاطفة وهي تمر بجانب أذنيه كأنها تمزقها. لم يشعر بتلك التي اخترقته من ظهره ولكنه رآها خارجة أمامه تسبقه خلفها سيل من الدماء تربطه بها ويراها بوضوح تتموج تسبح في الهواء. تعقبها وقد جحظت عيناه وهي تفارقه مبتعدة عنه وهو يلاحقها بعينيه. تباطأت قفزاته وسرى خدر في جفونه وضاع منه كل الألم. فجأة انقشعت أمامه غمامة وأطل منها وجه مِسكة يلفه إعصار يكاد يخلع الثوب الأبيض من عليه وتطايرت خصلاتها تتلاطم على وجهها وهي فاردة له ذراعيها وعيونها تتلألأ تحسه بالولوج إليها. اعتلت وجهه ابتسامة منهكة وصُمّت أذناه عن كل ضجيج وكأنه يسبح في الهواء ارتطم بها وذاب معها.

عثمان الذي لم يغادر مخبأه رأى كل ما حدث أمام عينيه كالحلم. فارقه الخوف وتحفزت جوانحه وهو نصف جالس كأنه يحث عمران ويدفعه على الهرب بكل كيانه كمن في حلبه سباق. والرصاصة تخترق ظهر عمران وهو يترنح ساقطاً على الأرض تأوه عثمان صارخاً وفقد جسده كل حواسه وتهالك على الأرض. ضاعت صرخته وسط تتابع إطلاق الرصاص وصهيل الخيل الجامحة. أحد الجنود ألتقط شيئا من صرخته ولكن كان جواده في هياج وجموح صرفه عن الالتفات.

❊ ❊ ❊

(16)

قبع عثمان في مخبأه يرتجف بنحيب محموم حتى غاب في ثبات عميق. أفاق بالشمس في كبد السماء تحرقه ويد تهز كتفه بعنف. كأنه خارج من جب معتم تبين وجه حميدان بعد أن انقشعت هالة الشمس الحمراء التي ملأت عينيه. تنقلت عيناه في وجوه آخرين حوله يحيطون به ويرقبونه في صمت. تمدد على مقطورة النقل التي أتى بها حميدان وغطاؤه خرقة متسخة مشبعة ببقايا زيت تسللت منها قدميه. ابتعدت العربة والناس لا زالوا وقوف يرمقون بصمت واجم.

دثرته حليمة ولم تكف من تقبيله ودموعها تتقاطر وصورته وهو طفل منزوٍ عن رفاقه لا تفارقها. تعيد تقبيله وتنهج بالبكاء وهي تنادى باسم عمران تنعى شبابه. بالقرب منهما جلس حميدان مطرقاً على مقعد خشبي مكسو بالجلد مرتفع قليلاً عن الأرض ورأسه بين يديه. زهرة واقفة صامتة ترمقهما والدموع تتدافع إلى عينيها مع شهقات ضعيفة مكتومة.

خارج الغرفة جلست نعيمة من حيث تراهم ترمقهم وتسند جنينها في أحشائها بيدها وتربت عليه بالأخرى.

فجر اليوم التالي أفاق عثمان منزعجاً من داخل رؤيا كالحقيقة. رأى آمنة جالسة وسط ركام حريق أتى على كل شيء ترمقه في غبن. تقدم منها خطوة ولكنها هبت فزعة وتوارت هاربة وسط الركام. تصلب جسده وشعر بخدر في رأسه وكفيه وأسفل قدميه. ببطء تسلل من الفراش مترنحاً فأرغم توازنه بوقفة قصيرة ثم غادر المنزل. تابع سيره بين الأزقة قريباً من جدران المنازل لعله يوفر متكأ يحتاجه. وقف ينظر إلى النهر من بعد وصفحته تلمع تحت خيوط الفجر في حوار صامت. عند بلوغه النهر تمهل في سيره وتوغل في المياه بكامل ملابسه خائضاً كمن يسير على بساط رخو حتى ابتلعه النهر. ظل جالساً تحت الماء حتى احتبست أنفاسه فهب واقفاً يختلط الماء بأنفاسه وفى نوبة سعال أفرغ كل ما في جوفه. استبدل مكانه قليلاً وغسل وجه مراراً بكفيه وعاد إلى الشط. غفا على شاطئ النهر حتى تسلل ضوء النهار ودبت بعض الحياة. متثاقلاً منهكاً قفل راجعاً إلى المنزل وعاد إلى فراشه دون أن يلحظ غيابه أحد سوى زهرة التي تتبعته عن بعد وعادت أمامه مسرعة مختبئة ترمقه حتى استكان على مرقده.

بصمت تام أطاع عثمان حليمة في رعايتها له وتقبل منها حتى إطعامها له في فمه كطفل. أسر لحميدان رغبته في الرحيل ولم يجادله كأنه كان ينتظر منه تلك البادرة. أتى رفيق عثمان في العمل وتحدث مع حميدان على انفراد مطولاً الذي اكتفى فقط بالإنصات إليه مطرقاً. غادر الزائر مودعاً عثمان

بقبض كتفه بقوة. أجاب حميدان على نظرات عثمان مقتضباً بأن الأمور على ما يرام ولا يعرف أحد لهم عنوان.

****

اعتلى عثمان مقدمة القارب يحدق في البعيد في رحلة العودة الطويلة. يجسم على صدره حزن ثقيل وينهكه ما يحمله من أنباء. تراءى له وجه آمنة وهي تلتصق بأبيها على الربوة التي تطل على النهر دون أن تلوح بالوداع مع الآخرين.

صمتت طيبة عن غنائها الحزين بهمسات خافتة ووجمت ترقب ابنها وهو يتقدم إليها بخطى هرمة. ارتمى كطفل في أحضانها يبكي بحرقة كما لم يفعلها حتى في طفولته. أتت آمنة مهرولة ووقفت مشدوهة وأطلقت صرخة لوعة كأنها ترى فاجعتها دون حوجه إلى إفصاح. خرج خليل مسرعاً من غرفته شاهد عثمان يجهش على صدر طيبة وسأله بصوته القوى وقد تكهن الأمر:

ـ أين عمران؟

لم يرد عثمان وظل دافناً رأسه في صدر أمه وزاد أنينه ردد خليل كأنه يطمئن على الآخرين:

ـ أين كان حميدان؟

وقف عثمان متهالكاً قبالة خليل دون أن ينظر في وجهه قائلاً:

ـ حمدان لم يكن معنا

نظر خليل إلى آمنة مشفقاً وقفل إلى غرفته قبل أن تفضحه عيناه. دنا عثمان من آمنة وهي بين التصديق والتكذيب وتمنته ألا يقول شيئاً. احتضنها بقوة رغم دفعها له بكلتا يديها ولكنه صار متمسكاً حتى انهارت على كتفه وهي تردد:

ـ حدثني قلبي.. قلبي كان يحدثني

وفقدت كامل وعيها بين يديه.

❊ ❊ ❊

(18)

جلس عثمان على الربوة وتثبتت نظراته بالأفق متعلقا بالفراغ بقلب زاد ثقله وقد أحس بخطوات آمنة قادمة إليه. أجلست نفسها بالقرب منه وتعلقت نظراتها في نفس الهدف المفرغ وهي لا تحاول أن تبحث عن شيء ينظر إليه. التفتت إليه ونظرت إليه برهة ثم قالت بهدوء:

ـ من هو حميدان يا عثمان

لم يرد عثمان ولم تعد هي السؤال وعادت تحدق في الفراغ. بعد سكون قصير قالت بأنين دافنةً وجهها بين يديها:

ـ أين قبره

اضطرب جسد عثمان وتراءى له عمران والرصاصة تنفذ في ظهره. عم صمت طويل وتحركت آمنة ببطء مغادرة. قال عثمان بصوت مكتوم يحرضها على البقاء:

ـ كنت أعتقد أنك تعرفين حميدان

استعادت جلستها وتعلقت عيناها به. بعد صمت استدار ينظر إليها كأنه يشفق على ما سيقوله.

ـ حميدان إنه شقيقك

بهتت آمنة ولكنها أحست بحياة تدب فيها. فغرت فاها وتدافع إليها كثير من التساؤلات ولكنها آثرت الصمت وكل جوارحها كانت تحثه أن يواصل الحديث. كاد أن يقول إن عمران أخبره أنها تدري عنه. ولكن احتبس الكلام في حلقه عن ذكر اسم عمران. قال لها:

ـ تذكرين تلك المرأة، حليمة، عندما أتت هنا كان ذلك لنيل موافقة عمى بزواج حميدان من ابنتها.

انتبهت كل حواس آمنة وهي تصغى لعثمان يحكى لها عن حميدان وزوجته الحبلى. أخبرها أنه يملك منزلان وحانوت وهو يسكن في إحداهما. وهو كان يعمل في مهنة مربى للخيول ساعده حميدان على الحصول عليها في إحدى القصور. استرسل عثمان يحكى لها عن تفاصيل المدينة، وهو يشعر بارتياح لإخراجها من قوقعة الحزن.

مر شهران منذ حضوره بتلك الأخبار التي شلت الحياة تماماً في المنزل. التزم خليل عزلته وصارت آمنة في عزلة أخرى. وبادرت صليحة بخدمة خليل وهو يؤثرها منذ طفولتها وبينهما ود عميق طالما أحبته وشعرت به أباً.

طوال الوقت عمد عثمان أن يكون خارج المنزل وسط أحزانه. حكى ما حدث لخليل بالتفصيل وآثرت طيبة ألا تسأله ولم يكن هو سيخبرها لو فعلت. عادت الحياة رتيبة إلى المنزل وعاد عثمان إلى الحقل منغمساً في الأرض.

في موسم فيضان النيل يسافر شمالاً ويعود بعد عدة أسابيع براً محملاً بهدايا وأشياء لم تنفد من تجارته واقتصرت علاقته قريباً من أبينو ويقضى معظم وقته معه في الحانوت فهو الوحيد الذي كان يعفيه من نظرات التساؤل الملحة.

عادت آمنة كثيراً إلى نفسها وزاد التصاقها بأبيها ولكنها تنحت تماماً لصليحة في خدمته التي كانت تقوم بها طائعة. تعود لآمنة حيويتها كثيراً بعودة عثمان من أسفاره. كانت تقضى أوقات برفقته ومعاونته في الحقل. وتستريح تحت شجرة الهجليج ترقبه يتابع فلاحة الأرض. يجتمعان أحيانا عند أبينو الذي تعلمت منه كثيراً عن تركيب الأعشاب. وترمقه خلسة ولا تشاركه وهو يؤدى بعض الطقوس ويمعن في إطلاق الأبخرة قبل خلط الأعشاب.

****

يوماً آمنة ساهمة جالسة ليس بعيداً عن طيبة التي كانت ترمقها خلسة وهي تدندن بأغنيتها الحزينة وهي تغزل الذعف وترتشف شرابا من الأعشاب. انضم لهما عثمان وجلس قبالة أمه بصمت وتناول منها كوب الأعشاب الذي منحته له دون أن تسأله. بهتت طيبة وآمنة تقول بهدوء وروية دون أن ترفع بصرها عن الأرض:

ـ عثمان هل تستطيع أن تتزوجني

رمقت طيبة آمنة بنظرة ملؤها الدهشة والاستنكار ولكن في أعماقها تراقصت الفرحة فيها. نظرت في وجه ابنها بتوسل دون أن يفطن لها. رد

عثمان وهو ينظر إلى الأرض وقد هزه حديث آمنة تماماً ولكن تمكن من نفسه قائلاً:

ـ نعم يا آمنة

هبت قبالته وأنفاسها تكاد تلامسه متحدية ً كأنها في معركة قائلة بصوت قوى واضح المفردات ولكنه خافت:

ـ قلت لك هل تستطيع

قال وهو ينظر في عينيها التي طالما أحبهما قائلاً:

ـ سمعتك جيداً يا آمنة

تركهما مغادراً المنزل صاحت وهو يكاد ينفذ من الباب:

ـ سأرافقك إلى المدينة

توقف وهو ينظر إلى الأرض ملياٌ، ثم واصل طريقه خارجاً دون جواب. ربتت طيبة على كتفها بابتسامة بها مواساة ومودة تدعوها إلى حضنها. بكت آمنة على كتفها بحرقة فتركتها طيبة تفرغ ما استطاعت وهمست لها بعطف:

ـ يكفيك هذا يا بنيتي ستنالين ما تريدين ولن تكوني نادمة يوماً اتركي لي ما تبقى مع أبيك ومع عثمان.

راقت لخليل فكرة انتقالهم إلى المدينة ولاح له أمل أن ينفذ لحميدان بعائلة أكبر. رنا إلى طيبة التي لم يعاشرها كزوجه ولكنه يكن لها ودا كاملا لما ولته من رعاية متجردة له ولبناته. أخبرها مطولاَ عن حميدان وأمه

حسنية ما لم يروه لشقيقتها مِسكة. ولكنه أمسك عن التفاصيل المأساوية في مقتل حسنية.

بعد عدة أشهر أعد الجميع العدة للمغادرة إلى المدينة. طيبة رفضت مصاحبتهم حاسمة بأنها لن تترك خليل وحده وقد طوقتها جمائله في أوقات حالكة. لم يثنها خليل وكان يعرف أنها لا تستطيع مغادرة الأرض التي جذورها تعانقت معها. كان كل أهل القرية في وداعهم وبكى كوكي كثيراً. اكتفى خليل بمراقبة الركب من أعلى الربوة التي تطل على النهر بمرافقه أبينو الذي كان حزيناً لفراق آمنة. عندما ذهبت لوداعه تكلم معها بلغته مطولاً بما يشبه الشعر. سألها لاحقاً عثمان باهتمام إن كانت فهمت منه. أومأت له مبتسمة بالإيجاب وأردفت بحزن:

ـ الكثير منه بقلبي.

❊ ❊ ❊

(19)

الرحلة إلى المدينة كانت طويلة ومضنية. عانت آمنة كثيراً على النهر وكانت تفرغ أحشائها طوال الطريق وهي التي اعتادت ركوب النهر منذ نعومة أظافرها. تأذت كثيراً من ركوب الدواب وقلة الأكل وكانت في إعياء تام عندما شارفوا على المدينة. أستأجر عثمان مركبة يسحبها بغل تمددت فيها آمنة بجانبها هنومة وصليحة يسنّدانها وجلس عثمان بجوار قائد المركبة يرشده إلى منزل حميدان.

أفاقت آمنة ودبت الحياة في روحها وزاد خفقان قلبها عندما توقف الركب أمام المنزل. لم يكن حميدان موجودا بالدار في لحظتها وهبت زهرة لاستقبالهم وصافحت عثمان بمعرفة ودودة وانتقلت للفتيات واهتمت بآمنة وهي تلحظ الإعياء في حركتها. أجلستهم في الفناء وجلبت لهم ماء. أنبأت عثمان أن حميدان سيأتي بين لحظة وأخرى. وهم جلوس خرجت لهم امرأة تبدو متعبة وفى يدها طفل. هرع لها عثمان مصافحاً وساعدها لمجلس الجمع. قدمها عثمان لآمنة بأنها نعيمة زوجة أخيها حميدان. هبت آمنة بقليل من المعاناة وتقالدت معها وساعدتها على الجلوس.

كانت نعيمة فريسة المرض منذ أن وضعت ابنها سالم. التفتت آمنة الى الطفل فاغرة فاها وضمته الى صدرها بشعور غريب يعتريها بأنها عمة هذا الطفل. التصق بها الطفل وهي تمسح على رأسه ووجهه والدهشة تكسوها قائلة:

ـ إنه يشبه هنومة تماماً عندما كانت في عمره

انتقل الطفل بين هنومة وصليحة يتقبل قبلاتهما في صمت. آمنة كاد أن يسقط قلبها من بين ضلوعها عندما ولج حميدان الدار. بعد أن تصافح مع عثمان عرفها وهي تنظر له بانفعال واضح تقدم منها ونطق اسمها في صيغة سؤال وتوكيد فتقاطرت عيناها بالدموع. أمسك بيديها فنظرت إليه وداخلها يتوسل له أن يضمها إلى صدره انتقل له شعورها فضماها على صدره بحنان.

حميدان يكبرها كثيراً كان رجلا فارعا أطول من أبيها وبشرته فاتحة. بكت آمنه على صدره حتى بلغ بها الإعياء. أخذتها زهرة داخل غرفة ولحقت بهما نعيمة والفتاتان. بقي الطفل مع أبيه وعثمان ودار بينهم حديث طويل عرف فيه حميدان زواج عثمان من آمنة وعزمهم البقاء بالمدينة. أتت نعيمة متمهلة وجلست معهما تعلوها بسمة متعبة تحمل معنى مبهم ونظرت إلى عثمان وقالت له:

ـ ستبقون هنا معنا قليلاً قبل انتقالكم لداركم يجب أن ترتاح آمنة جيداً من الرحلة فهي حبلى

بهت عثمان كتمثال فلم يمر لحظة في ذهنه أمر مثل هذا. انتبه وحميدان يهز كتفه مهنئاً مكتفياً بالنظر إليهما وكان باله كله في أمه طيبه وتمناها بجانبه الآن.

****

لم تلتق نظرات عثمان بآمنة ولم يبادلها الحديث طيلة مكوثهم في دار حميدان. كان جل نهاره في الخارج مع حميدان أو معاً في داره يقومان بتجهيزه للانتقال إليه. عمل على عربة النقل في السوق قرب مكان سكنهم واكتفى حميدان بالعمل في حانوت سحن البذور. كان عثمان يمر عليه في ساعات من النهار لنقل البذور المسحونة إلى مستودع يمتلكه حميدان

اختلى بآمنة عند انتقالهم إلى دارهم سألته دون أن تنظر إليه إن كان سعيد بحبلها كأنها تعاتبه. هرع إليها مؤكداً وجلس بجانبها يضمها بحذر أضحكها. سألته أي اسم سيطلقه على الطفل. كأنه ينتظر مثل هذا السؤال أكد لها بأنه سيكون خيارها وحدها. أطرقت حالمة وقالت له بصدق:

ـ إن كان صبي سأسميه باسم أبيك وإن كان بنت سأسميها طهره

استرسلت وهي تنظر إليه تجتاحها موجة من الحزن:

ـ طهره كان الاسم الثاني لأمي لا يناديها أحد به سوى أبى

****

حليمة انتقلت إلى غرب البلاد مسقط رأسها تقيم مع ابنها آدم تاركة حميدان على رأس كل الأعمال في المدينة. أصبح آدم تاجر للحبوب يسافر

له كل فترة حميدان بقوافل من الحبوب ويعود بأخرى. في غياب حميدان في أسفاره كانت آمنة جل يومها ترافق نعيمة وتوثقت الصلة بينهما وبعض نساء الحارة. تعلمت آمنة كثيراً من عادات أهل المدن وأصبحت خبيرة في صنع العطور وعرفت أنواع البخور وجلسات التبخير بعيدان أشجار الطلح التي كان النساء يعتقدن أنها خير علاج لآلام نعيمة الدائمة.

بلغ حميدان نبأ مرض حليمة ورغبتها في رؤية ابنتها. أمن رحلته لتكون سهلة على زوجته العليلة. ترك سالم وزهرة مع آمنة في دارها. زهرة كانت أكبر سناً من آمنة ولكنها كانت نحيلة وتقل عنها طولاً وتبدو أصغر سناً. كانت هادئة لا تتحدث كثيراً وأكثر التصاقا بهنومة وصليحة منهما لآمنة. عثمان في غياب حميدان أصبح يقوم بكل أعماله فكان جل يومه خارج المنزل. يعود منهكاً مساءً فتهتم به هنومة أكثر من الجميع حيث كان بينها وبين عثمان مودة خاصة منذ نعومة أظافرها. رغم أن عثمان كان ودودا مع الجميع ويعمل على التقرب والاطمئنان عليهن جميعاً، كانت آمنة في أعماقها بشعور الأنثى لا ترتاح باهتمام زهرة به. لم تظهر ذلك بل تحاول طرد ذلك من مخيلتها ولكنها كثيراً تجد نفسها متلبسة تراقب زهرة تخاطب مع عثمان.

طال غياب حميدان وأتت الأخبار حزينة بموت حليمة ولحقتها ابنتها نعيمة بفترة قصيرة. انفطر قلب آمنة على سالم وتذكرت طفولتها والتصاق عمران بأمها مسكة. صار الصبي تحت جناحها فولد ذلك بعض الجفاء بينها وبين زهرة التي كان الطفل أكثر التصاق بها. عندما

عاد حميدان انتقلت زهرة والطفل معه إلى داره وكان يوما حزينا لآمنة وهنومة التي تعلقت هي الأخرى بالطفل وتعلق بها. ندرت زيارات آمنة لهم وقد أثقلها حملها وحزنت لرؤية حميدان الذي صار في عزلة مثل أبيها بعد رحيل أمها. عندما أنجبت آمنة ابنتها لازمتها زهرة ونمت بينهما مودة وتقارب شديدين وكان أسعد الجميع حميدان. قال لها وهو يحمل الطفلة يتأملها

ـ أشعر كأني جدًا لها.. فلقد كنتي دوماً ابنتي ولست شقيقتي يا آمنة

❊❊❊

(20)

زيارة خيري ابن عم عثمان جبرت وصل كاد ينقطع بالقرية مع هموم المدينة وتواتر الأحداث. عثمان لا يتذكر خيري وقد تركه طفل رضيع عندما غادر مع والدته بعد مقتل أبيه ولكن ذلك لم يقف حاجزاً لشعور الانتماء والارتياح في تقبله. الزيارة خلطت الفرح بالحزن والحنين وأثارت الأخبار التي أتى بها شتى الشجون. مات كوكي وجدوه غارق في النهر. رسالته الحقيقية كانت من طيبة طالبة منها الحضور لمرض والدها. جاهد خيري في تقليل القلق في نفوسهم. انقبض قلب آمنة وغادرت إلى غرفتها. لحق بها عثمان متعدياً مواساتها قائلاً بحسم:

ـ سنغادر غداً

أطرقت آمنة قليلاً وردت عليه بأمل:

ـ يجب إخطار حميدان

لم يعلق عثمان وغادر الغرفة ليهيئ مكان لخيري. البنتان أحاطتا

خيري بسيل من الأسئلة وكان يبتسم سعيداً ويحاورهما وعيناه تفضحانه وهو يخاطب صليحة التي أخذت لبه.

تهللت أسارير حمدان عندما رأى آمنة أمامه. أخذها في حضنه مطولا قائلاً لها بعتاب:

ـ وأخيراً تذكرتيني

أدرك بأن هناك ما تريد أن تقوله له شقيقته ولكنه آثر أن يتركها تخبره وحدها. قضيا معاً وقت ليس بالقصير وتناولا الطعام وقد انضمت إليهما زهرة. عمت لحظات صمت وقد حزمت آمنة أمرها على الحديث. نظرت إلى زهرة كأنها تستنجد بها ولكنها آثرت الانسحاب وشغلت نفسها بجمع أواني الطعام من أمامهما. أمسك حميدان يدها بكلتا يديه مثبتاً عينيه على عينيها مشجعاً، فقالت وهي تخفض بصرها تخفى الرجاء في عينيها:

ـ أبى مريض وسنغادر غداً

ترك حمدان يدها بهدوء وبصمت. تعودت ألا تتحدث معه عن أبيهما، كانت تعرف عمق الهوة بينهما ولكنها لم تحاول يوما أن تسأله عن أي أسباب. ولم تسأل زوجها عثمان التي كانت تعرف أنه يعلم الكثير. بقربها اللصيق من والدها لم يخبرها أي تفاصيل سوى أنها لها أخ من امرأة توفيت قبل أن يتزوج من أمها. شعرت بأنها أثقلت عليه فقالت له تخفف عنه:

ـ سنترك البنتان معك هنا. صليحة وشقيقتك الخائبة

قالتها ضاحكة فهكذا كان ينادى حميدان هنومة التي لا تتقن أعمال المنزل. ابتسم حميدان وقال لها:

ـ لا عليك غداً صباحاً سأحضرهما هنا

استطردت آمنة وأخبرته بضيفهم الذي سيظل بالمنزل وطلبت منه رعايته.

****

سافرت آمنة برفقة عثمان وطفلتها طهره متمنية أن يراها والدها. كانت حزينة طوال الرحلة ويزداد قلقها وشوقها لوالدها كل ما قصرت المسافات. بعد سدود النهر انضما إلى آخرين في رحلة نهرية. انقبض صدرها والربوة أمام دارهم تلوح في الأفق. عندما بلغوا المنزل كان ساكناً تماماً. خرجت طيبة تثقلها السنون من غرفة خليل تستطلع الأمر بإحساس وجود أناس في الدار. تهللت فيها أسارير شتى وتقاطرت دموعها بجلد وهي تعانق آمنة. أخذت منها الطفلة وقبلتها وتقدمت من ابنها تضمه إلى صدرها بتنهيدة عميقة. سبقتهم آمنة ببطء لغرفة أبيها وهي كلها عيون متسائلة تنظر إلى طيبة. أومأت لها أن تدخل بنظرة إيحائية كأنها تقول لها لا مفر. كان خليل مستلقيا مغمض العينين نظيفاً كعادته وقد طالت لحيته قليلاً. وهي تقف أمامه تتقاطر دموعها بدون صوت فتح عينيه وحدق بها بتفحص قلت حدته بعد أن عرفها وتحركت يده قليلاً يدعوها إليه. تقدمت ببطء وجلست بجانبه وأمسكت يده وطبعت قبلة طويلة على جبينه بللته بالدموع. جالت عيناه بين عثمان وطيبة فعرفت

آمنة أنه يبحث عن حميدان فارتفع صوتها بالنحيب. تقدم عثمان وأمسك يده بكلتا يديه وقبلها. ضغط خليل على يده بضعف مرحباً به.

بعد أيام من حضورهم غادر خليل في هدوء وآمنة بجانبه وحدها. تعلقت به وعلا نواحها أسرعت طيبة إليها واقتلعتها من جانبه فتشبثت به وعلا صراخها وتمكن عثمان بعد عناء أن يخرجها من الغرفة. بعد أيام من انتهاء مأتم خليل أذنت طيبة لها بإلحاح بالرحيل وهي مشغولة البال على صليحة وهنومة. سافر عثمان وقلبه مثقل لترك والدته بعد طمأنه ابن عمه خوجى شقيق خيري بالانتقال معها برفقة والدته من قريتهم والإقامة معها.

بكت آمنة طويلاً والمركب يمخر النهر وعينها معلقة بالربوة أمام منزلهم يلفها إحساس بانقطاع وصلها بذلك المكان. والربوة تختفي في منحنى النهر تراءى لها والدها يرقبها من هناك وقربه أبينو. انقبض صدرها وهي تتذكر أبينو لم تره ولم تسأل عنه في غمرة أحزانها.

نمت مودة بين صليحة وخيرى في غياب عثمان وآمنة باركها حميدان ووعد صليحة أن يكون رسولها لدى عثمان. صليحة وهنومة صارتا شقيقتين وجمعت بينهن كل الصفات والأمزجة. تعلقت صليحة بحميدان مثلها مثل هنومة ولم تحس به غير شقيق وكانتا يسران له ما يحجبانه عن آمنة وعثمان. بادرت صليحة بتشجيع خيري لمفاتحة حميدان وقلبها يتراقص للرجوع شوقاً إلى أمها طيبة. صليحة جميلة تشبه آمنة أكثر من هنومة التي تشبه والدها. ورثت من أمها وخالتها مسكة الأرداف

الممتلئة عكس آمنة التي كانت ممشوقة القوام. صليحة بطيئة الحركة ورزينة الحديث. وتستحى من أردافها وتشعر بأنوثتها فيهما فتخبيهم ما استطاعت. كانت أكثر انفتاحا من هنومة التي تتذمر لها أحياناً

تقبل عثمان الخبر بارتياح وقد انزاح عنه الكثير بفكرة رجوع صليحة لتعيش مع والدتها. رفض عقد قرانها دون أمه وعاد معهما ومكث مع أمه أسبوعين وحدهما لأول مرة ولكنها دفعته للرحيل من أجل آمنة وطهرة طفلتها التي سعدت روحها لمرآها رغم أيام الحزن الثقيل.

❊ ❊ ❊

(21)

سارت وتيرة الحياة رتيبة وعثمان منغمس في أعماله. آمنة مشغولة بطفلتها وهنومة توزع حياتها بين زهرة وشقيقتها. ذات مساء آمنة وعثمان وحدهما تراءى لها كأنها سمعت طرقا على الباب. ذهب عثمان غير متأكد لوجود طارق ولكنه تسمر أمام الباب كأنه رأى شبحاً. هبت آمنة برهبة انتقلت لها من رد الفعل الذي رأت فيه عثمان فاقتربت خلفه بحذر أنثوي من لقاء غريب. كانت تقف على الباب امرأة ممشوقة القوام وضفائر شعرها تتهدل على وجهها ومن خلفها ثوبها يلتف حول نصفها الأسفل برسم أردافها وساقيها ينحسر الثوب من صدرها فيخرج نهد عار تماماً. أنفها دقيق وشفتاها مرسومتان بوشم أسود يتناسق مع خديها وذقنها الحاد. بيدها تعلّق طفل شعره قصير جداً ولكن تتدلى منه على ظهره خصلة سميكة.

تمالك عثمان من نفسه ومد لها يده مصافحاً ودعاها للدخول. تجاهلت

وجود آمنة ولم تلقِ عليها تحية ولجت الدار وجلست على الأرض متجاهلة إلحاح عثمان لها بالنهوض. شرعت تتحدث معه بصوت متهدج متواصل لم تفهم آمنة منه شيء. كانت لهجتها مختلطة بلغة أخرى. أطرق عثمان ناظر إلى الأرض مستمعاً لها. لم تتوقف عن الكلام وأحياناً تقبض قدم عثمان كأنها تتوسل إليه. ظل عثمان طوال الوقت صامتاً. التفت ببطء إلى آمنة التي كانت قد جال في رأسها كل الأفكار الممكنة. تعلو عينها الدهشة والاستنكار والفضول. طلب منها عثمان مقتضباً إعداد الطعام. ذهبت غير راضية وعند عودتها لم تجد المرأة ولكن طفلها يجلس بجانب عثمان. عندما تأكدت من غياب المرأة سألته حازمة:

ـ من هذه يا عثمان

أطرق عثمان بعض الوقت وأجلس الصبي على ساقيه وربت عليه بمودة دون أن ينظر إليها وبحمل ثقيل قال لها:

ـ هذا ابن عمران يا آمنة

فقدت آمنة كل إحساس وتبلدت تماماً. وكأن عثمان تنبأ بما سيحدث، قفز واقفاً وأخذ منها إناء الطعام وأجلسها بجانبه.

****

صارت آمنة امرأة أخرى فاقدة كل توازنها. ذلك الطفل أصبح هاجسها تفزع عندما تراه أمامها. كان صامتاً تماماً يحس بغربة ويتفادى أن يكون أمام ناظر آمنة. يجلس منزويا في ركن من المنزل يرقب طهره تحبو على الأرض. كان أكثر استكانة في أحضان هنومة. الجميع يلحظ

أحوال آمنة بحنو حقيقي على الطفل وأكثرهم كان عثمان. حاول مع آمنة أن يحكى كيف التقى عمران بتمارا. قاطعته بحدة:

ـ لا أريد أن أعرف اسمها أو أسمع قصتها فقط أريد أن أعلم هل تزوجها؟

أومأ عثمان بالإيجاب صامتاً. أوشك أن يعاود روايته فصرخت في وجهه:

ـ كفى لا أريد المزيد.. أتفهم

هب غاضباً كما لم تره من قبل وصاح في وجهها:

ـ الآن أنا زوجك عمران قد مات هل تفهمين

كأنها تسمع لأول مرة خبر موت عمران، أطلقت أنينا فاجعا والتصقت بنفسها متكورة وهي ترتجف. على صرختها هرولت إليها هنومة واحتضنتها بنظرة ملؤها التأنيب لعثمان فغادر المنزل في ثورة غضب عارمة وساقته قدماه إلى حميدان. قابلته زهرة عند الباب بانزعاج وهو في ذلك الحال المكفهر. أخذته رأساً إلى حميدان بدون حتى أن تلقى عليه التحية.

تفاجأ حميدان بالذي حدث وكان لا يعلم بقصة تمارا. أكد له عثمان بأنه تفاجأ أيضاً عندما أخبره عمران قبل يوم من مقتله وقد ضاعت منه روايته في غمرة الأحداث المتلاحقة. حكى له كما حكى له عمران. وختم حديثه قائلاً:

– أكدت لي تمارا بأن الطفل في خطر واستجارت بي ولم يكن لدى خيار

في اليوم الثاني ذهب حميدان لآمنة فوجدها في حال لم يرها فيها من قبل. فشل في كل السبل لتهدئتها وأكدت له في إصرار أنها حرمّت نفسها على عثمان ولا تريد أن تراه. لم يعد عثمان بنصيحة حميدان حتى تهدأ الأحوال. التزم عثمان وفى قرارة نفسه جعل لها كثير من الأعذار وكلماتها تطن أذنه:

ـ هل تستطيع أن تتزوجني

****

الطفل سلمان ما بين جهله بلغة التخاطب ونفور آمنة منه صار في حيرة ولكن استهوته حياته الجديدة وقد تعود البعد عن أمه التي تركته كثيراً بين الغجر حيث تضور جوعاً وعانى من الإهمال وأكل البقايا تحت قسوة الغجر. احتواء هنومة له لم يكفه فأصبح يطلب ود آمنة. كان يرقبها بنصف اختبائه تثير جنونها. وأصبحت في خوف من وجوده قرب طهره التي تلفت انتباهه كالطفل الوحيد بالمنزل.

انفجرت هنومة ذات يوم في آمنة بأنها في عداء لطفل لا ذنب له وتحمل عثمان ذنب لم يرتكبه. كانت أول مرة ترفع صوتها في وجه آمنة. لم تحتد معها آمنة ولكن حدثت بينهما قطيعة غير معلنة. آمنة في قرارة نفسها أثر فيها صوت هنومة وأصبحت تلين مع الطفل ولكن تتعمد أن تتحاشاه. في يوم والطفل جاثم أمام مهد طهره دخلت آمنة فكاد الطفل يموت هلعاً ودخل في نوبة صراخ انفطر لها قلب آمنة وشعرت بحجم الشر في نفسها. صارت تتودد للطفل حتى هدأ وتحين هو الفرصة وصار يتودد لها

وصار لصيقاً بها أكثر من هنومة. لا يفارق مهد طهره جاريا تحت قدميها.

22

غاب عثمان في رحلة إلى غرب البلاد بدأ يقوم بها عوضاً عن حميدان منذ أن ماتت زوجته. عاد منها مريضاً فالتصقت به هنومة وزهرة تمرضانه زمنا طويلا. لم تزره آمنة وكانت تتلمس أخباره من هنومة التي كانت تطمئنها وتوحى لها بحاجته إليها في محنته. آمنة كانت تمنى نفسها أن يرسل عثمان في طلبها وتأبى نفسها السعي إليه. هنومة التي كانت متوائمة مع عثمان منذ نعومة أظافرها وموقف آمنة هذا خلق جفاء بينهما وتتعمد أن تتسلل أحياناً دون إخبارها.

****

لازمت زهرة فراش عثمان وجعلت مخدعها في الفناء قرب غرفته. تهب قربه في أي بادرة أنين مهما كان الوقت متأخراً. في ليلة أفاقت على عثمان يجاهد أن يقوم من على الفراش. هرعت إليه فوجدته قد تمكنت منه الحمى وجسمه يرتجف. أسرعت وطوقته وإعادته إلى الفراش. أخذت تصب الماء على رأسه ووجه فأبتل صدره. نزعت أعلى سرواله وأغرقت جسمه بالماء. بدأ جسمه في الاسترخاء مالت تجفف وجهه بقطعة من القماش. أمسك يدها وهو يردد في همس اسم آمنة ويحاول دفن رأسه في صدرها. وجمت زهرة وجمدت يداها وطاوعت جذبه حتى أصبح وجهه مدفون تماماً في صدرها. سكنت وكل جزء من جسمها متنبه وتبحلق بعينين مفتوحتين وهي في ارتباك وقلبها يتسارع نبضه. عندما سكن عثمان

في نوم عميق وقد فارقته الحمى ابتعدت عنه ببطء وارتجف نهداها وهما يفارقا وجهه وسرت فيها قشعريرة اهتز لها كل جسدها. تسللت ببطء إلى مخدعها وتمددت على ظهرها بعيون مفتوحة تماماً تنظر إلى السماء.

****

استرعى عثمان اهتمام زهرة بعد حادث اغتيال السيد ولم تكن تعلم قصة مقتل والده وإخوته قبلها. أسرتها بطولته وعادت لها حيوتيها كأنه ثأر لها من الذين قتلوا أهلها واغتصبوا طفولتها. أصبحت تتابعه من بعد كظله. لم يفارقها طيفه منذ أن غادر إلى قريته. عندما عاد ومعه آمنة انقبض صدرها ولم يمل قلبها لآمنة يوماً. تحينت توطيد علاقتها مع هنومة وصليحة لتكون بالقرب منه. لم تفكر يوماً الأنثى فيها في حبها الصامت له كما تفجرت فيها لحظة دفن رأسه في صدرها. بدأ توددها لعثمان يأخذ شكلاً آخر. تتعمد ملاطفته وهي تمرضه وهو يتماثل للشفاء. تقبلها كثيراً عثمان حاملاً لها جميلا عميقا دون أن يلحظ تبدلها الأنثوي. بدأت معه أكثر انفتاحا وتوطدت علاقتهما به وفتحت له قلبها فحكت له ما لم تحكه لأحد عن قومها وهجوم الجند عليهم. بكت كثيراً على كتفه وهو يواسيها وهي تروى له اغتصابها من الجند كأن دموعها غسلت ثقل سرها. حكت له بحبور بفخرها به عندما قتل ذلك الرجل وضاحكة أخبرته بمتابعتها له عندما ذهب إلى النهر وكيف جن جنونها عندما ابتلعته المياه.

لم يكن عثمان قد حزم شيئا في نفسه عندما وجدها في أحضانه غارقا في تقبيلها. تدفق حلمها في جوانبها فغرقت معه دون تعقل في قبلاته

ونالت منه كل ما تريد. أفاقت وانخرطت في بكاء شديد ولكنها لم تغادره وشرعت في تقبيله بين دموعها في كل مكان في وجهه كأنها تودعه وهو واجم تماما لا يستوعب ما حدث.

عندما أفاق إلى نفسه حزم أمره وألجم عقله ولم يتوقف إلا أمام حانوت الغلال الذي تولاه حميدان في مرضه. تفاجأ حميدان بوجوده ولم يكن يبلغ كامل عافيته. دلف عثمان صارماً في لب الحديث وحكى له ما حدث بينه وبين زهرة وحميدان مطرق. واصل عثمان معلناً عزمه بالزواج منها فوراً. ربت حميدان على ظهره مكبراً نخوته وطلب منه العودة ولاحقاً يتكلمون عن التفاصيل. بهتت زهرة عندما أخبرها عثمان بأمره مع حميدان. هربت إلى غرفتها بهلع ودواخلها يزغرد فيها الفرح.

اهتزت آمنة لخبر زواج عثمان من زهرة وقد حرص حميدان أن ينقله لها بنفسه. صارت القطيعة كاملة وانقطعت آمنة حتى من أخبار شقيقها حميدان الذي عاش عزلته حزيناً. كانت هنومة تشعر بخطب شقيقتها ولكنها في قرارة نفسها حملتها الوزر ولم تقطع علاقتها بزهرة وعثمان

***

(23)

توالت الأيام متثاقلة حتى قطعها هلع أفزع المدينة. عم البلاد وباء حصد كثير من الأرواح وتم عزل المدينة. أصبح الجنود يجوبون الطرقات ويطلقون النار على الفارين من المدينة أو الذين يقتربون منها. تسلل عثمان في جنح الظلام للاطمئنان على آمنة وهنومة والطفلين. كادت تصيبه طلقات الجند وهو على أعتاب المنزل. هرعت له آمنة تتبعها هنومة جزعتين من صوت إطلاق الرصاص. بعد أن اطمأنتا أنه لم يُصب أمطراه بأسئلة عن الآخرين. برغم أن رؤيته أعادت لهما الثبات والطمأنينة جن جنون آمنة عندما علمت أن حميدان قد طاله الداء. فشل عثمان عن إثنائها من مخاطرة العودة معه. بأنفاس لاهثة وخوف عظيم سلك عثمان طرق خلفية يحمل الطفلة ويقبض على يد الطفل وآمنة وهنومة يتبعانه لاهثتين. تمكنوا عبر طريق طويل وأزقة ضيقة والأبواب توصد دونهم تمكنوا للوصول إلى المنزل. كان حميدان قد تمكن المرض منه وأصابه الوهن. عندما فتح عيناه جال بهما على الجميع. رأت فيه آمنة وجه أبيها

وهو يبحث عنه وسط الجميع فانفجرت باكية وارتمت عليه. منعها عثمان بقوة وقبضت عليها زهرة مواسية. انتفضت آمنة وهي تحدق بوجه زهرة وقد صار شاحباً. قبضت عليها جزعة ونادت عثمان. فطن عثمان أن زهرة قد أصابها المرض. حملها على ذراعيه كطفلة وذهب بها إلى فراشها. انتهر آمنة وهنومة لانهيارهن يأمرنهن بالجلد. كأنه يقسم لهن الأدوار أمر هنومة ملازمة الأطفال في غرفة منفصلة حيث سالم. دخلت هنومة تحمل طهره وتقود سلمان إلى الغرفة وفجأة علا صراخها. هرول عثمان وقبض على فمها حتى لا يأتي صراخها بالجند الذين يجوبون الطرقات بحثاً على المرضى. كان الطفل سالم قد صرعه المرض فحمله عثمان بجوار زهرة. لازمت آمنة حميدان حتى فاضت روحه بين يديها. تمكن عثمان من إبعاد آمنة التي كاد يقتلها البكاء.

دفن عثمان حميدان في غرفته حتى لا يحرق الجند جثمانه ويتم احتجاز الجميع وربما يُقتل المرضى كما تردد. عكفت آمنة على زهرة وسالم تسقيهما الماء ليلاً بنهار وذلك هو كل ما يملكونه من دواء.

عادت لها الحياة عندما تماثلت زهرة للشفاء وعادت للصبى سالم حيويته تعلقت روحها بهما فهما آخر من تبقى لها من إرث أخيها حميدان. بكت زهرة طويلاً على زراع آمنة تطلب منها الصفح وهي تنتقل إلى دارها. فارقتها آمنة بروح طيبة ولكن لم ترها مرة أخرى.

عادت الحياة مستقرة وتم رفع الحصار على المدينة وامتلأت بالقادمين الذين نصبوا خيامهم خارج المدينة قلقين على أهلهم وأقربائهم ولم

يزعنوا لتهديد الجند الذين حاولوا إجبارهم على الرحيل. مات الكثيرون برصاصهم وهم يحاولون التسلل ليلاً إلى المدينة. دبت الحياة وتعمرت الطرقات وأصبح عثمان دائم التردد على آمنة وهنومة صباحاً ومساء في طريقه لأعماله موفر لهم كل احتياجاتهم. لم تتعدى علاقته مع آمنة التحية التي تتفادى إلقائها أحياناً وقد اعتصر قلبها نبأ حبل زهرة. لم يضايقها وجود عثمان ولكن اتسعت الهوة بينهما.

دلف عليها عثمان يوماً يشوبه الانزعاج. جلس قبالتها وهي تطهو دون أن ينظر إليها وقد خطت السنون بصماتها في جلسته وزاده الهم عمراً. آمنة تحتفظ بجمالها وأنوثتها وإن كان بعض ترهل في أردافها لا يعيق رشاقة حركتها بل زادها أنوثة امرأة ناضجة. نظرت إليه منزعجة فلم يجتمعا عن قرب منذ أن صدته عنها وتكاد لا تراه رغم حضوره كل يوم. نظرت إليه مشجعة ومباشرة قائلة:

ـ ما الخطب يا عثمان

قال لها كأنه يستجديها:

ـ إنها زهرة يا آمنة. أتاها المخاط

هبت آمنة على عجل وقد تحركت الأنثى فيها. ارتدت ملابسها وخرجت مسرعة تتبعها هنومة وتقود طهره ويتبعهم سلمان. قبع عثمان وحده كأنه يريد أن يفرغ كل ما اعتراه من أحاسيس. أصابه خدر في ساقيه ودوار في رأسه. وتسللت ذكرياته لطفولة مبكرة طردها سريعاً عندما لاح له وجه عمران. هب واقفاً وعيون الرجل الذي فجر رأسه تفتحت تنظر إليه فغادر الدار مسرع الخطى في إثرهم. عندما بلغ المنزل

كانت هنومة برفقة الأطفال في فناء المنزل وآمنة برفقة زهرة مع القابلة. توتر وهو يسمع أنين الوضع وجلس في مقعد ليس بعيداً من الغرفة ورأسه بين يديه رغم أن وجود آمنة بقرب زهرة أزاح عنه الكثير.

خرجت آمنة تحمل الطفل فهرول لها هنومة والأطفال والتفوا حولها بعد أن أشبعت فضولهم تخطتهم وقدمته إلى عثمان الذي لم يقف على قدميه لتلقى الطفل ولم يتناوله من يدها واكتفى بتأمله مطولاً ونظر إليها في وجهها قائلاً:

ـ خليل سميته خليل

شعت عيناها واتسع فمها بابتسامة عريضة وهي تضم الطفل إلى صدرها. تلاقت أعينهما فكانت عيني عثمان مليئتين بالتوسل ويغمرهما حنين. انقبض صدرها ولكنها فشلت في صده، فقابلته بنظرة بها رضاء وغابت عائدة بالطفل لأمه.

تسللت آمنة، والجميع ملتف حول زهرة وابنها، وقد شعرت أن دورها قد انتهى. بلغت غرفتها وهي مثقلة بمشاعر شتى قبل أن تتمالك أفكارها بهتت عندما قبض عثمان من الخلف على زندها. قبل أن تفوق التفت يده على خصرها وضماها بشوق إليه. تم كل شيء بشبق وتلاحق أنفاس لم يكن يحسب لها حسبان. همد عثمان على صدرها وأجهش في بكاء صامت. طوقته بكلتا يديها وزال عنها كل شعور بالذنب فهمست في أذنه:

ـ لم أكف عن حبك يوماً فلا تتركني كثيرا

❊ ❊ ❊

(24)

بلغ خليل طفولة لها ضجيجها وصارت طهره فتية على تباشير الأنوثة أسرها شغب سلمان منذ طفولتها وصارت كظله. سالم بهدوئه وتعقله المبكر جعله يسيطر على الجميع بمباركة الكبار. همست آمنة في أذن عثمان وهي في أحضانه في إحدى لقاءاتهم القليلة المسروقة برغبتها في انتقالهم جميعاً إلى منزلها. شرحت لها أهمية وجوده للسيطرة على سلمان الذين يمتلئ بالتمرد. تقبل عثمان كلامها متعقلاً وفى أعماقه لا يهضم أن يضم زهرة وآمنة دار واحدة.

كانت زهرة قد لمست تقارب عثمان وآمنة بشعور الأنثى فيها. لم ينتظر عثمان أن تطوقه بظنونها فباح لها متردداً بعودة علاقته الزوجية بآمنة. صمتت زهرة وكانت تعلم بأنه سيخبرها بنفسه فصممت في نفسها ألا تخذله وبذلت جهدها في استمرار حياتها طبيعية معه. تضايقت كثيراً من فكرة رحيلها والعيش مع آمنة في بيت واحد وكانت تعلم ببشاعة

شعورها عندما تحس إنه معها ولكن عزاءها أن يكون الأمر بعلمها. لم تعارض ورحلوا في منزل واحد. هنومة كانت أسعد الجميع وهيأت لعثمان وزهرة خصوصيتهما وهي لم تكن قد لحظت علاقة آمنة وعثمان. كان عثمان متعقلاً ولم ينقل لآمنة علم زهرة بتوادهما فتركته لزهرة كاملاً وفارقتها غيرة الأنثى. وكل سانحة وجدتها مع عثمان كانت له كاملة ولم تسع إليه يوما بل تفادت كثيراً الاختلاء به. اعتادت زهرة حياتها الجديدة وعثمان ملك خالص لها.

****

شب سلمان وسالم متناقضان تماماً يجمع بينهم روابط انتماء المكان والأسرة. رغم تذمر سلمان كثيراً من رفقة سالم التي تغلب عليها الوصايا لا يستغنى عنها ولا يشعر بالأمان في التعامل مع الآخرين بدونه. سعدت آمنة كثيراً لتعلق طهره بسلمان وهي ترى فيها طفولتها وتعلقها بعمران رغم عدم ارتياحها لانفلات سلمان الذي حمّلت هنومة وزره لإفراطها في تدليله. عثمان كان في أعماقه يتمنى طهره لسالم ولكنه أكتفى بالصمت أمام رغبة آمنة البائنة مباركة تقرّب سلمان وطهرة ولكن لا تخفى انزعاجها من هفوات سلمان الكثيرة.

توسع عثمان في أعمال حميدان فكبرت وتنوعت وصارت حوانيت عدة وتواصل مع آدم ابن حليمة وأبنائه في غرب البلاد وتخطت أعمالهم إلى كل أنحاء البلاد ولكنه لم يغفل لحظة بأن كل الأعمال يجب أن تؤول صافية لسالم. رافقه مرتين لرحلة الغرب رغم تحالف آمنة وزهرة وهنومة

واعتراضهم على سفر الصبي وفى أذهانهن ما أصاب عثمان من قبل من مرض. لم يعبأ بهن عثمان وكان الصبي صلب العود قوى العزيمة وكانت فرحة خاله آدم به عظيمة وقابله لقاء الأبطال مما جعل الصبي أكثر وثوقاً من نفسه.

اشتد عود سالم الذي لم يتدخل عثمان في الحد من عارم طموحه. ساعده على الانفراد بوكالة توريد احتياجات ثكنات الجنود فاستعان هو بسلمان في عمله الجديد. راق لسلمان العمل وانبهر بعالم الجند كثيراً. لم يكن سالم راضيا عن تقرب سلمان من الجنود والتقاطه السريع للغتهم ولكنه تجاهل الأمر بل تغاضى أيضاً عما بلغه أن سلمان أوهم الجميع بأنه الذي يسير كل الأعمال وأنه أجير لديه.

أهتم سلمان بالتقرب من قائد الجند ويحرص أن يحضر له بنفسه ما يخصه. نال من ثقته الكثير رغم عنجهية الرجل وتسلطه حتى على جنوده من بنى جنسه. أصبح سلمان يلبى له خدمات خارج حدود مهمته وحرص على إرضائه. وتمدد الأمر ليكون عينا له على جنوده مما سبب ضيق ونفور الجنود وكل العاملين ولكن تهيبه الجميع وتملقه بعضهم وصاروا حذرين في التواصل معه.

(25)

ولج سلمان بغير بموعد مقر القائد وكانت زوجته برفقته. تصنع سلمان تهذيبا فائقا وهم بالمغادرة وهو كان يعلم من الحارس في الخارج بوجودها وقد دفعته رغبة لرؤيتها وقد سمع عنها كثير من الهمهمات وفارق السن بينها وبين زوجها. أشار له القائد بالسماح بالبقاء لحين يفرغ من حديثه مع زوجته. تشاغل سلمان في ترتيب الأغراض التي أتى بها وهو يراقب المرأة خلسة. عيناها زرقاوان وشعرها أشقر منسدل على كتفيها طليقاً وشفتيها عليهما طلاء أحمر قاني. حاجباها الرفيعان يطل بينهما أنف دقيق حاد. عنقها طويل تتدلى عليه ثلاثة عقود من اللؤلؤ أطولهم تغوص آخر حبة في مفترق صدرها المتدفق من الأمام ويظهر بجنبيها قليلا من تضخمه.

لحظت المرأة عينيه الثعلبيتين تجول بها ولكنها لم تعره اهتماما. انتصبت واقفة مودعة زوجها وطبعت قبلة على خده نصبت لها جسدها تماماً وهي

تعلم أنه يراقبها. خرجت وزوجها يتبعها مودعاً وتوقفت عند الباب وتحدثت مع زوجها بلغة لم يفهمها وأثناء حديثها أشارت عليه بدون اهتمام ودون أن تنظر إليه. اضطرب وصار ينظر إلى القائد حتى فرغت من حديثها وخرجت. التفت إليه القائد وأمره أن يحمل بعض الأغراض ويتبع زوجته إلى القصر. أسرع سلمان مرتبكاً يحمل الأغراض وتبع المرأة التي كانت قد اعتلت صهوة جوادها وغادرت على مهل. صار يتبعها حاملاً الأغراض حتى وصل إلى القصر الذي كان داخل مقر القيادة العسكرية ولكنه منفصلاً عنه بحديقة كبيرة بجدار له مدخل واسع بدون أبواب تتدلى منه النباتات المتسلقة. توقفت عند مدخل القصر حتى أتى رجل مسن ألجم الفرس حتى نزلت منه وأخذه خلفه وذهب مختفياً خلف المبنى. ولجت المرأة إلى المنزل دون أن تنظر إليه. توقف برهة ثم تبعها وقد تركت الباب مفتوحا خلفها. ولج إلى المنزل فوجد نفسه في ردهة فسيحة ليس بها أثاث كثير وصورة القائد مرسومة داخل إطار خشبيا عملاق معلقةّ على الحائط. يقف القائد بخيلاء في الصورة بملابسه العسكرية وقد تقلد خنجر مرصع بقطع زجاجية. بجانب الصورة تعلقت خزانة زجاجية بحواف كبيرة تعلقت داخلها أسلحة عتيقة يتوسطها نفس الخنجر على خاصرة القائد في الصورة.

انتبه سلمان لعودة المرأة وقد تخلصت من ردائها الخاص بركوب الخيل الذي كان يلتصق بجسدها المكتنز وارتدت ثوبا أبيض يلتف حول جسدها حتى قدميها ويغطى ساعديها إلى كفيها ومقفولا حتى عنقها. تحزمت بسير عريض على وسطها من نفس نسيج الثوب. أشارت له

بدون اهتمام إلى غرفة صغيرة ليضع الأغراض. انتظرته حتى عاد وذهبت إلى غرفة أخرى ونظرت إليه بصلف تأمره أن يتبعها. لحق بها مسرعاً وقد تسارعت نبضاته قلبه. ولج إلى الغرفة ووقف واجماً يرقبها وهي تتوسط الغرفة الفارغة الأثاث وتمتلئ حيطانها باللوحات الضخمة. تثبت نظراتها عليه تتفحصه وبإشارة من يدها أمرته أن يغلق الباب من خلفه ويدها تمسك بالرباط على خصرها. أغلق الباب والتفت إليها فوجدها عارية تماماً والرداء الأبيض سقط على الأرض عند قدميها. تدفق الدم في جسمه حتى التهبت عيناه وهو ينظر إلى جسدها المكتنز وصدرها المنتفخ. تقف وفخذيها المكتنزان متلاصقان وأسفل بطنها الضامرة قد نبت شعر حليق بلون شعر رأسها. تقدم إليها ببطء وعيناه تتلهف ماداً يداه ليقبض بنهدها وحين أصبح على مرمى منها صفعته بكل قوتها على وجهه دون أن تبرح مكانها. توحشت عيناها تنظر إليه تبحث عن شيء في وجهه. توقف وقد جحظت عيناه وهي ترمقه بثبات وقبل أن يقرر شيئاً عادت لصفعه أكثر قوة. ارتجف كل جسده وتصلبت يداه يمنعهما منها فأعادت صفعه بضربة قاسية على مقدمة وجهه حتى أحس بالدماء تتدفق من أنفه. وهو يتحسس الدماء لكمته بأخرى أعنف منها أفقدته سيطرته فصفعها حتى هوت على الأرض بشهقة عالية وهي تقبض على ثيابه. انزلق معها وأطبق على عنقها. وهي تبحث عن أنفاسها شرعت في تجريده من ثيابه كأنها تمزقها. ترك عنقها وهو قابع على ركبتيه فوقها وشرع ينزع ثيابه في تعجل موتور. فور تحرره من ثيابه أطبقت عليه بدراية وبسرعة هائلة أحكمت رباط الرداء الأبيض حول عنقه وتعلقت

به تقوده كجواد. كل ما تباطأ ركله جذبته بعنف تخنقه فيعود مسعوراً في ركله. وهو يفرغ نفسه أحكمت قبضتها على عنقه حتى أفرغته تماماً ثم أرخت يدها عن عنقه وهو يلهث وقد ابتل فمه بلعابه فتناولت وجهه بين كفيها حتى عادت له أنفاسه تماماً. انسلت من تحته وارتدت ثوبها وانتظرته حتى أكمل لباسه وسارت أمامه. أزاحت بهدوء صورة القائد العملاقة فكشفت خلفها سرداب طويل ضيق يستمد نوره من ضوء النهار من كوات زجاجية صغيرة على سقفه. في نهايته باب صغير أمامه درج مرتفع مع انحناءة. تحدثت معه بلغة ركيكة بعدما أرته منديلا ورديا أخرجته من ردائها. قالت له حينما يراه خارج الباب يمكنه الدخول. وهو يهم بالخروج تعلقت به تلعق شفتيه وأبعدته بحدة تأمره بالرحيل.

وجد نفسه في فضاء ضيق مهمل تكثر به الحشائش العملاقة المتيبسة بعد موسم خريف ماطر. خلفه حائط عتيق به باب صغير آخر. دفعه وخرج إلى فضاء واسع مهجور مغطى بالحشائش. عبره حتى تراءى له بنيان لسكن متهالك عرف أنها حارة الغجر خلف المدينة. كانت الحارة شبه مهجورة في ذلك الوقت.

داوم سلمان تردده على زوجة القائد ويمارس معها عهرها وأصبح يتلذذ من ضربها وشتى ضروب الجنس التي تقزز منها في بادئ الأمر. شعرت طهره بعزوفه عنها وإهماله لها. أصبح متباعداً عنها ويهرب من عينيها المتوسلتين. سالم منذ صغره مغرم بطهرة ولكنه أخفى ذلك تماماً وهو يراها تهتم بسلمان بمباركة عمته آمنة. أحس بذبول طهره وركضها

الذليل خلف سلمان فآلمه ذلك كثيرا وكن له الغبن. منذ طفولته لم يرتح لرفقة سلمان ولكنه تعود أن يكون كبيرهم الذي يعتمد عليه عثمان ومسئول أمامه عن الجميع.

****

تبدلت أحوال سلمان بعد أن اختفى المنديل الوردي من الباب. أهمل أعماله وغاب عن ثكنات الجنود وتعود الغجر على تجواله في حيهم وربما لم تغب عنهم أحواله ولكن لم يعيروه اهتماما فسلبيتهم أمام الآخرين جزء من الأمان في حياتهم التي لا يقحمون فيها أحد فقط في حدود الاستفادة منه.

تأكد سلمان بأن المرأة التي لم يعبأ بمعرفة اسمها يوماً وسط مجونه المهووس معها، تأكد أنها قد ملته واتخذت عشيقا آخر وهو يرى أحدهم يتسلل عبر الحائط المهمل. تسلل خلفه والغضب يعمى عينيه. عندما تخطى السرداب، الذي تأكد بأنه أُعد لهروب أصحاب الدار عند الخطر. دخل إلى الردهة الواسعة فوجدها خالية. اقترب من الغرفة التي يجتمعان فيها فسمع تأوهاتها التي يعرفها تماماً. تدفق الدم في وجهه غضباً وتوجه بحزم إلى الإطار الزجاجي وحطمه بقبضة يده. تناول الخنجر داخل جرابه الجلدي ولفه بعناية على جيده قبل أن يستله. ببطء فتح باب الغرفة ولم يحس به العاشقان على الأرض وهما عاريان في قمة اللذة. تقدم منهما بحذر والرجل يلهث في ذروة الشهوة. أمسك الخنجر بكلتا يديه وبقوة سدد له طعنه على ظهره. همد الرجل بعد صرخة اختلطت بصرختها وقد نفذ الخنجر الطويل لها تحته. استل الخنجر وأزاح الرجل من فوقها

وبدون اهتمام بعينيها المتوسلتان سدد لها طعنتين على صدرها حتى سكنت تماماً. بهدوء نظف الخنجر من الدماء على ثوبها الأبيض الملقى بجانبها على الأرض وأعاده إلى جرابه وأخفاه تماماً بين طيات ملابسه. اجتاحه ارتياح وهو ينظر إلى جثتيهما العاريتين. أعاد الرجل إلى وضعه فوقها كأنه يترك رسالة لزوجها ثم غادر متمهلاً عبر السرداب وطرق طريق طويل متفاديا عبور حارة الغجر.

****

نبأ مقتل زوجة القائد وعشيقها أثار الهلع وتم القبض على كل الموجودين في الثكنات العسكرية وكان بينهم سالم الذي عاد يتردد على الثكنات بعد أن أهمل سلمان العمل في الآونة الأخيرة. تم تجريدهم من ثيابهم وضربهم بوحشية فاضت لها روح البعض. توحش القائد وغضبه أشده كان على فقده الخنجر الذي قلده له السلطان بنفسه ولم يتورع بتفتيش حتى ثكنات جنوده.

ظل سالم مع آخرين تحت الحجز عدة أيام أذاقوهم فيها شتى أنواع التعذيب ومنعوا عنهم الأكل والماء. تفاجأ بسلمان برفقة أحد الحراس يطلق سراحه دون الآخرين. اكتأب سالم وعكف في المنزل وشملته آمنة وزهرة بعنايتهما وقد فجرت فيهما جروحه كل جروح الماضي. أسّر سالم لعثمان برغبته للانتقال إلى منزل أبيه. لم يمانعه عثمان بقلب مثقل وقد تعود ألا يسأله في أمر لا يريد الخوض فيه. سلمان لازم سالم بتشجيع من آمنة وصار ضيفا دائما معه. عاد سالم إلى حياته وصب جل أعماله في الأسفار إلى غرب البلاد فخلص البيت لسلمان.

تضايق عثمان لمتابعة طهره لسلمان والتسلل معه أحياناً لبيت سالم. ولم تكن آمنة مطمئنة لذلك وهي تحس بأحوال طهره وتأزمها. كان سلمان يجبر طهره في خلوتهما في منزل سالم بممارسات لا تطيقها. فض عذريتها بما يشبه الاغتصاب. وأرغمها على ممارسة الجنس كما كان يفعله مع زوجة القائد. صارت في هلع من أن يتركها فتستجيب لرغباته مرغمة وتشعر يوم بعد يوم بمهانة كسرت كل ثقتها في نفسها. كاد يجن جنونها وهي تحس بأحشائها تتحرك وكابدت لتخفى آثار حملها عن والدتها. لم تلحظ آمنة شيئاً لعدم توارد الأمر في ذهنها وهي تراهما أمامها لا زالا طفلين ولكنها كانت تراقب سلوكها بقلق شديد.

أخطر عثمان آمنة في حضور زهرة بعزمه عقد قران طهره لسلمان. عقلت آمنة حديثه وفى قرارة نفسها تتمنى أن تستقر أحوال طهره. قابلت طهره قرار والديها بارتياح كامل ولاحظ عثمان برود سلمان في تقبل الخبر. بعد أن تزوجت طهره من سلمان بشهر بان عليها بوادر الحمل فكادت أمنة أن تطير من الفرح.

❊ ❊ ❊

(26)

دبت في المدينة حركة متوترة وملأ الجند الطرقات ونشطت الاعتقالات تفتيش القادمين إلى المدينة. أخبار تمرد وجحافل جيوش تهدد لمدينة. سلمان بدأ في قلق دائم بعد حظره من دخول الثكنات. كان يقضى جل يومه خارج الدار ويعود مكتئباً مساءً. توقفت أعماله في تمويل الجنود التي تركها سالم خالصة له. أصبحت المدينة مهددة تماماً وشحّت السلع في الأسواق ولاح شبح مجاعة في الأفق. عندما وصلت جحافل الجيوش المتمردة على مرمى من المدينة أصاب الوجوم الناس بين الخوف من شبح الحرب ورغبة التحرر من صلف الغزاة وسخرة الجند لهم. في يوم الهجوم على المدينة تشبثت آمنة بسلمان تمنعه من الخروج وطهرة ترتجف في يدها وقد شارفت لحظاتها لاستقبال المولود. صمت آذن طهرة عن صوت المدافع وتهليل الفرسان وتاهت صرخاتها في ضجيج الرصاص. أتى مولودها صبي أخذته آمنة بين يديها وعيناها تقدح من الفرح ونسيت

الدنيا وما حولها وسقط عنها شبح الخوف. دفعته إلى طهره وقالت لها بصوت متهدج بالدموع

ـ إنه عمران. لقد أتى عمران

لم تنم المدينة ذلك اليوم. كان النصر حليف القادم من الجنوب. تم دك المدينة تماماً وفاضت أرواح كثيرة. تناهت الأخبار بقطع رأس الحاكم. هجم الفرسان على المنازل يغنمون كل شيء. عندما اقتحموا دار عثمان هالهم المولود في صدر أمه ولازالت عوالق الحبل تغطيه. تقدم كبير الفرسان من الطفل انتفض سلمان فمنعه عثمان بإشارة من يده. مدت آمنة الطفل إلى الفارس المغطى بدماء الحرب. حمله برفق ورفعه عالياً وتمتم:

ـ هذا فأل حسن. هذا خبر مبارك

أعاده برفق إلى جدته وقال لها:

ـ أسميه باسم سيدي الظافر

أومأت له آمنة بالموافقة. غادر الفارس بعد أن أمر بحراسة المنزل ومنع نهبه.

****

هدأ الحال نوعاً إلا من انفجارات بعيدة متفرقة. طرقات المدينة صارت شبه خالية إلا من بعض الجنود على صهوة جيادهم. خرج سلمان إلى الشارع فاعترضه الحارس يمنعه مغادرة المنزل. تضايق سلمان ولكنه آثر الحكمة قال له بهدوء:

ـ هل نحن سجناء؟

ارتبك الفارس وأنزل سلاحه وقال:

ـ لا أدرى ولكن أمر سيدي الأمير أن تظلوا هنا بأمان

طافت بعقل سلمان أمور شتى تحت وقع لفظة الأمير على مسامعه. قال للحارس بلهجة حازمة:

ـ فلتأخذني إلى الأمير إذن. هناك ما يهمه يجب أن أحدثه به

تردد الرجل برهة وهو مكلف بالحراسة ولا يعرف مدى علاقة هؤلاء بالأمير ويظن هناك حظوة من نوع ما فرد عليه آمراً:

ـ اتبعني

سار سلمان خلف الرجل بخطى واسعة وهو يجول بنظره في حجم الدمار الذي لحق المدينة. في طريقهم وجد جنود يحيطون بسالم توقف وقال للجندي كأنه آمراً:

ـ هذا أخي فليتركوه

أمر الجندي الآخرون بإخلاء سبيل سالم. أشار له سلمان مواصلاً سيره أن يتبعهم مدعياً الثبات وعدم الاكتراث للواقعة. تصرفه هذا فرض احترام الحارس له. تقدم معه بخطوته بعد أن كان يسبقه تبعهما سالم محتاراً ولكنه شعر بالأمان من خطوات سلمان الواثقة. تركهما الجندي خارج مقر الأمير الذي كان في السابق ثكنات الجند التي يعرف سلمان مداخلها ومخارجها جيداً. عاد الجندي لهما مؤذناً بالدخول. تقدم سلمان من الأمير بنصف انحنائه خاطفة وقال له:

ـ احترامي سيدي أنا والد الطفل الذي باركته لنا بالأمس

انفرجت أسارير الشيخ الذي جاوز الخمسين من عمره. رحب بهما في مجلسه. وهو ينظر إلى سالم بادره سلمان بأنه شقيقه وهو يدري أن سالم رغم شجاعته قد ألجمت الدهشة لسانه. تكلم سلمان بفصاحة وثبات كبيرين مع الأمير وحاز على احترامه. أخبره بدرايته بكل مداخل المدينة وأسرار القصر. وحكى له عن بطولات في مقاومة المستعمرين ونسج قصص من خياله اتسعت لها عينا سالم. والأمير يراقبه بين التصديق وعدم الاطمئنان هب سلمان فجأة وتقدم نحو خزانة خشبية ضخمة في نهاية الغرفة الواسعة التي يتخذ الأمير مجلسه في ركن منها على الأرض. دفع سلمان الخزانة فتحركت معه دون جهد كاشفة عن باب حديدي خلفها دفعه برجله بانحناءة صغيرة بقليل من الجهد فانفتح بصرير ناعم. ابتعد عنه خطوت إلى الوراء ونظر للأمير يدعوه للدخول. هب الأمير كأنه شاب في ربيع العمر ظهر على حاجبيه دهشة وتحفز وحذر. دخل القبو وتأخر سلمان في الدخول حتى جعله يتوغل قبل أن يلحق به وتبعهما سالم لا يقل دهشة من الأمير. تجول الأمير صامتاً بين أرتال الأسلحة اللامعة النظيفة المرتبة على جدران الحائط. خرج الأمير متثاقلاً يفكر في استغراق. توقف برهة ينظر إلى مدخل القبو وسلمان وسالم يرقبانه في صمت. بإشارة من يده أمر سلمان بإعادة إغلاق الكوة وعاد إلى مجلسه. أحكم سلمان إغلاق الباب وأعاد الخزانة إلى مكانها. وذهب إلى مجلس الأمير وخلفه سالم يتبعه. ظلا واقفان في صمت وترقب. نظر الأمير إليه صارماً وقال له:

ـ لن يعلم أحد غيرنا بهذا القبو وستكون أنت ساعدي

جثم سلمان على ركبة واحدة وظهره منتصباً ودس يده في طيات ثيابه وأخرج خنجرا نصف سيف في جراب جلدي كان محكماً على ظهره. وضعه بكلتا يديه على الأرض أمام الأمير ووقف ممشوقاً. تفحص الأمير الخنجر باهتمام بين يديه يرقب مقبضه المرصع بقطع الزجاج الملون وانحناءاته التي تطابق قبضة اليد. قبض عليها واستله من الجراب فلمع معدنه الأبيض البراق فاتسعت عيناه دهشة وإعجابا واعتلت وجهه ابتسامة عريضة كلها رضاء. نظر إليهما مبتسماً قائلاً:

ـ انصرفا الآن وغداً صباحاً أريدكما في مجلسي

نادى على حاجبه وأمره بتزويدهما بلباس الحرب. تبعا الحارس وحصلا على حلة الفرسان وتزودا بفرسين. تبعه سالم على صهوة فرسه في دهشة كأنه يراه لأول مرة وكان قد تعرف على الخنجر. عندما صارا على قارعة الطريق بادره سلمان قبل أن يسأله مقهقهاً:

ـ الخنجر كان دائماً في حوزتي وسأستعيده بلا ريب فهو الآن فقط في خدمتي

صمت سالم ولم تكن المرة الأولى التي يفاجئه فيها سلمان شخص غريب عنه كأنه لا يعرفه من قبل.

❊ ❊ ❊

(27)

انخرط سلمان في الجيش مقرباً من الأمير ومرافقا له وصار سالم دليل الجند في غرب البلاد. لم يكن مرتاحا في عمله معهم بعد أن علم أنهم يعدون العدة لغزو مشايخ الغرب. تطورت الأحداث وأصبح يسرب معلومات لعيون ملوك الغرب في المدينة الذين وصلوا له من أقرباء له في غرب البلاد. حفظ ذلك بعيداً من سلمان الذي أصبح لا يلتقيه إلا نادراً. تقابل معه في أطراف حدود البلاد الشرقية كمدد للجيش في تلك النواحي. تفاجأ بخبر احتجازه مع نفر من الفرسان أغاروا على قبيلة غير محاربة دون إذن من القائد. أسرع سالم للأمير متشفعاً له فأرسل رسالة تأمر بعودته إلى المدينة. لم يتحدث سالم مع أحد عن هذه الواقعة وكان جرم سلمان ومن معه الفتاك بتلك القبيلة في مذبحة بشعة طالت النساء والأطفال.

****

توالت الأحداث منذ إنجاب طهره لابنها عمران وكان الخروج إلى الطرقات شحيحاً للضروريات الملحة. استقرت الأحوال قليلاً فألحت زهرة على سلمان أن يأخذها لزيارة سالم الذي غاب كثيراً وقد علمت بعودته. غير راضٍ، رافقهم وبرفقتها طهره وهنومة. خلا البيت بعثمان وآمنة والطفل. وآمنة جالسة تداعب الطفل أطل عليها عثمان بنظرة تعرفها جيداً. ضحكت ملئ فيها بصوت مجلجل وقالت بلهجة مستنكرة ولكن بنغمة ملئوها القبول:

- يا رجل لقد صرت جدة

منّت عليه بكل ما تستطيع وهي راضية تستنشق أنفاسه. احتفظت به على صدرها بعد أن استكان وأمسكت وجهه بكلتا يديها وقبلته كطفل على فمه. همهم الطفل على مرقده بجانبهما وهم عثمان لتلبيته. منعته منه تمسك ساعده وأدارت وجهه بيدها الأخرى لترى عينيه وقالت له:

ـ هل تضايقت لأنني سميته عمران؟

أومأ بالنفي بنظرة صادقة فاتسعت ابتسامتها وأطبقت على شفتيه ولكنها سرعان ما تركته منصرفة للطفل متحاشية النظر إليه وهي تحس بطعم قبلتها الأولى لعمران تحت شجرة الهجليج.

قامت آمنة للطفل ولبث عثمان في مكانه مسترخياً وثقلت أجفانه وكاد أن يغرق في النوم ولكنه هب منزعجاً على طرق عنيف على الباب. حملت آمنة الطفل واندست خلف الباب. رأت عثمان يتحدث مع الجنود وتأكدت من ورود اسم سلمان. عاد وطمأنها بأنه رسول من الأمير يبحث عن سلمان مخفيّاً عنها انزعاجه.

رغم أن عثمان كان مرتاحا لهزيمة الغزاة لذكرياته الأليمة التي لازمته منذ طفولته لكنه لم يكن متجانساً مع القادمين الجدد ولا يرتاح لانخراط سلمان وسالم معهم. في المساء عاد سلمان برفقة زهرة وهنومة والأطفال. بدأ مثقلاً وجلس قرب آمنة. اقترب منه عثمان وقد ربط بين انزعاجه وزيارة الجند إلى المنزل وقال له:

ـ هل تريدنا أن نجلس على انفراد

أطرق سلمان وقال:

ـ أريد أمي آمنة أن تكون حاضرة

ثم أردف بعد أن استرعى جوابه انتباه الجميع:

ـ أحتاج أن يسمع الجميع

صمت برهة والجميع ينظرون له بإلحاح قال ناظراً إلى هنومة:

ـ لقد زوج سيدي خالتي هنومة إلى الأمير ذلك الذي كان هنا ليلة مولد عمران.

صرخ عثمان بغضب:

ـ هكذا زوجها سيدك لأميره؟

شعرت هنومة بالخطر الذي يحدق بهم وسلمان متهالك لا يرد على صرخات عثمان وأصاب آمنة وجوم تام. هبت واقفة وبصوت هادئ قالت:

ـ أنا موافقة

ثم استطردت:

ـ أنا لقد تعديت سن الزواج ولا بأس أن أتزوجه قد يكون خيرا لي وخيرا للجميع.

هب عثمان واقفاً صاباً جام غضبه على سلمان قائلاً لها:

ـ على ماذا توافقين ألم تسمعي الفارس إنه يقول لقد زوجوك فلقد باعك وباعنا.

قالها مغادراً حملت طهره طفلها تتبعه بنظرة مرتابة لزوجها. ظل سلمان قرب آمنة التي ربتت على فخذه بحنو قائلة:

ـ أعلم أنك كنت مجبرا يا سلمان أعلم

تمتم كأن البكاء يخنقه في حلقه:

ـ إنهم قتلة يا أمي فضلت ألا يأخذوها عنوة. سيأخذونها سبية إن لم أعطها لهم زوجة أنا أعرفهم يا أمي.

قالت له وهي تعقل كل كلمة قالها:

ـ اترك عمك لي بل اترك الأمر برمته لي.

****

هنومة لم تتزوج وعاشت طفولتها لصيقة بطيبة. كانت جميلة لا تشبه آمنة التي تشبه أمها ولكنها في سمرتها وتفاصيلها أقرب إلى أبيها. لم تر أمها وعاشت وآمنة دائماً هي الأقرب إلى والدها. لا تشتكي ولا تتذمر إلا لرفيقة عمرها صليحة. عثمان كان يهتم بها ولا يغفلها لكنها تجد نفسها

كثيراً في رفقة أخيها حميدان. كان يمازحها ويغيظها كثيراً ولا تضايقها مداعباته وهي تحس بما يحمله لها من مودة.

تضايقت كثيراً عند سفر عثمان وآمنة لوالدها قبل وفاته بدونها. أسرت ذلك لحميدان الذي عمل على مواساتها والتخفيف عنها. ولكن طوقها ذنب كثيف عندما علمت أنه لاحقاً أخبر آمنة التي فجعت لذلك وبذلت كل وسعها لإرضائها.

بعد زواج صليحة من خيري وانتقالهما إلى القرية شعرت هنومة بوحدة قاتلة. وأحست بضجر طاحن وهي تحس آمنة صار جل اهتمامها بطهرة وسلمان. في الفترة التي ابتعد فيها عثمان وتزوج بزهرة عاشت غربة كاملة. عندما عاد عثمان بزهرة للعيش بينهم كانت أسعد الجميع والمودة بينها وبين زهرة كانت عميقة. كانت مثلها في غربة عن عشيرتها وتوجسها من آمنة في صراع خفي في حب عثمان رغم ما بينهما من تآلف.

جلست هنومة مع آمنة غير مصغية لها تماماً فكانت وفى أعماقها ترقص طرباً لزواجها وتحلم بمجهول زينته في نفسها. دخل عليهما سلمان مضطرباً ووقف حائراً. تعلقت به عيون هنومة وتحت إلحاح آمنة قال متلعثماً:

ـ ركب الأمير في الخارج أتوا لأخذ خالتي لبيتها

صرخت آمنة بفجيعة:

ـ هكذا!! بهذه البساطة.

انتصبت هنومة حاسمة الأمر وذهبت ارتدت ملابسها وخرجت تحمل طرحة بيضاء في يدها. احتضنت آمنة طويلاً وتركتها وهي متماسكة

تماماً وضعت الطرحة على رأسها بعناية وجذبتها مغطية وجهها والتفتت بثبات إلى سلمان قائلة:

ـ هيا بنا

انخرطت آمنة تبكي بقية يومها وانزوى عثمان بغرفته يحس بفقدانه لكل قيمة وهزيمة كاملة لكبريائه. زهرة وطهرة بينهما حائرتين. سلمان يومها لم يعد إلى المنزل وقضى ليلته مع سالم دون أن يخبره بشيء.

❊ ❊ ❊

(28)

بلغت هنومة منزل الأمير الذي كان يعج بكثير من الناس داخله وخارجه. بقيت في الخارج على ظهر بعير فترة طويلة قبل أن تأتى إليها امرأة بدينة تلتحف بالسواد وأومأت لها أن تتبعها. دخلت معها من باب صغير إلى فناء يعج بالنساء منهمكات في الطهو. لم يلتفت لها أحد سوى صبية في مقتبل العمر يعلو جسدها هزال وشحوب. نظرت إلي هنومة بوجه خال من كل تعبير. توشحت عيناها بسحابة من الأسى انقبض لها قلب هنومة. تركتها المرأة وحدها في غرفة صغيرة. جلست غير مستقرة وطافت بها كل الأفكار التي يمكن أن تدور في خلد امرأة في ليلتها الأولى وهي في انتظار رجل لا تذكر ملامحه. طال بها الانتظار يصرعها أحياناً يأس ويداعبها أخرى بصيص من أمل كمقبلة على حياة جديده. وهي في صراعها هذا تسلل خدر النعاس إلى أجفانها ربما هروب من جحيم أفكارها. لا تدري متى نامت وقد تاهت وسط أحلام ورؤى مضطربة. رأت نفسها تسير في صحراء تعيق خطواتها رمال رخوة وهي تجاهد أن

تبلغ النهر الذي يتراءى لها ويختفى بألوان ساطعة كأنه يحترق وسط الرمال ويغيب ليظهر في مكان آخر يخترق الصحراء لا حياة حوله ولا نخيل. تعالت حولها همهمات تعلو وتخفت حتى صارت صرير في أذنيها يزداد ويرتفع فهبت صارخة تقفل أذنيها. تكومت على الفراش وقبل أن تسترد أنفاسها قفزت إلى الخلف مذعورة وهي ترى شيخ يجلس القرفصاء على الأرض وبيده أوراد وبجانبه قنديل زيتي مشتعل ينظر إليها بثبات يراقب فزعها. تمالكت نفسها وتكورت على حافة السرير وهي ترمقه بحذر. ببطء غطت جسدها كله بشملة كانت على الفراش بجانبها.

عاد الشيخ إلى أوراده مشيح نظره عنها وصار يرددها بصوت رتيب أجش نغماته مشروخة. ظلت مكانها زمن طويل حتى اعتادت وجوده وصوته وكادت أن تغفو ولكن تنبهت جوارحها وهو يتمتم يصوت ينبئ بختام قراءته. وضع أوراقه السميكة بعناية جانباً وهو ما زال يتمتم. أطفأ القنديل بأصبعين من يده اليسرى فصارت الغرفة حالكة الظلام. عندما اعتادت عيناها الظلام كادت أن تصرخ وهي ترى شبحه منتصبا أمامها. شرع يعدّل من طرحها على الفراش بساعدين قويتين غير عابئ بمقاومة تصلب جسدها. جثم فوقها بعد أن كبلها تماماً بدراية وبدأ تجريدها من ثوبها كاشفاً أسفله في تلمس طريقه بطعنات كخنجر على فخذيها وبينهما. تحجرت كل أعضائها وجحظت عيناها وفشلت تماماً في دفعه عنها تحت قبضته الحديدية وهو يجيد مصابه. بأصابع مثل المخالب أحكم قبضة مفاجئة على جانب عنقها تأوهت لها وارتخى جسدها فكانت لحظته الحاسمة في طعنة قاصمة تمزقت لها أحشائها فصرخت بأعلى صوتها.

استنفرت صرختها شبقه وجعلت منه حيوان ينقض على فريسة يمزقها. فقد جسدها كل قوة وسقطت يداها بجانبيها تحت ركله المتلاحق العنيف الذي تحترق له أحشائها وهو يعلو ويهبط بها ورأسها يرتطم يمنة ويسرى ويداه تكاد تمزق أكتافها. جثم فوقها مطبقاً على عظامها في كومة واحدة ممعناً في طعنة أخيرة صرخت لها مثل القط المذبوح. أخذ جسدها يرتجف تحته وكادت عيناها تخرج من محاجرها وهو يفرغ نفسه في أحشائها بنبضات ركلات صغيرة متقطعة غارزاً أسنانه في عنقها ولهيب أنفاسه شخير يحرق أذنها. انسل من فوقها واقفاً دفعة واحدة على قدميه كمن يترجل عن فرس. فأحست كأن روحها تخرج منها معه ولهيب مثل النار يتدفق تحتها. أصلح من حاله شامخاً ينظر إليها بزهو وقساوة نصر وغادر الغرفة. تكورت في مكانها وقد انفجرت مثانتها دون إرادتها فوق بركة الدماء وأحشائها تتمزق. أجهشت في البكاء حتى غابت عن الوعي.

أفاقت في منتصف النهار مذعورة فوجدت المرأة البدينة بجانبها وأمامها وعاء كبير به ماء. نزعت عنها الغطاء وشرعت في تنظيفها كأنها تقوم بمهمة اعتادت عليها غير عابئة بتأوهات هنومة. وفى موضع ممزق صرخت هنومة وأمسكت بيدها. جن جنون المرأة وحدجتها بعينين قاسيتين وفاجأتها بصفعة قاسية على وجهها وقبضت بقوة على شعرها تكاد تقتلعه من مكانه. ارتعبت هنومة وكتمت أنفاسها وصارت ترتجف والدموع تتقاطر من عينيها بصمت وسال أنفها وتقطر منها العرق.

****

اقتحم سالم المنزل يتطاير الغضب من عينيه ولم يعبأ لفزع آمنة وتخلص من يد زهرة زاجراً ومضى بحثاً عن عثمان. تعالت صيحاته ولم يسمع أحد صوتا لعثمان. هبت طهره جزعة متوقفة عن إرضاع طفلها وسألت أمها إن كان الأمر يتعلق بسلمان مؤكدة لها أنها سمعته يردد اسمه عدة مرات. لم ترد آمنة بل أشارت لها بالجلوس والتروي. خرج سالم كالإعصار من المنزل وأطبق صمت قاتل في الدار. قامت آمنة على مهل وأصلحت ما حولها وذهبت بخطوات متثاقلة رتيبة إلى غرفة عثمان. وجدته جالساً دافناً وجهه بين يديه. جلست خلفه دون أن تتحدث وأكتفت بوضع يدها على كتفه. عم صمت طويل حتى قال لها عثمان دون أن يلتفت بصوت خالٍ من الانفعال وبنبرات واضحة:

– سأقتله حين رؤيته هو الذي اختار ذلك لنفسه

لم يعد سلمان إلى المنزل مرة أخرى وظلت طهره صامتة لا تجرؤ أن تسأل أحد وابنها طوال الوقت بين يدي جدته. تأتيها به صامتة حين يحين وقت رضاعته. تسللت يوماً من الدار بدون علم الجميع. كادت آمنة أن تفقد عقلها عندما افتقدتها. هدأها عثمان يذكرها بعمران مشيراً لها أن طهره لا تترك ابنها وهو يعرف أين ذهبت وأكد لها أنها ستعود. قبل غروب الشمس دخل سالم تتبعه طهره. ذهب لها والدها وضماها مشفقاً إلى صدره فانهارت ببكاء حرّاق ولكنه منعها قائلاً:

ـ بنت آمنة لا تبكي وتظل قوية. اذهبى الآن إلى ابنك

احتضنت طفلها وبكت كثيراً وانزوت ترضعه والجميع جالسين في

صمت. عندما شعر سالم أن طهره فرغت مع ابنها نادى عليها. أمسك بها وأجلسها بجانب أمها كأنه يزودها بحماية مما سيقول. نظر إلى عثمان نظرة خاطفة وركز نظرة قوية واثقة إليها قائلاً:

ـ يجب أن تكوني قوية كما أوصاك والدك. سلمان لن يعود وإن عاد لا تقبلي به لقد باع نفسه وانتهى الأمر.

كلماته الواثقة وصلتها حقيقة كاملة عرفت أن الأمر يتعلق بخالتها هنومة وصمت والداها أكد لها صرامة حديث سالم. اكتفت بأن تدفن وجهها في صدر أمها وتجهش بالبكاء.

جلس ليلتها سالم مع عثمان حتى منتصف الليل عندما خرج كان الجميع نيام. قضت زهرة ليلتها هي وابنها بين آمنة وطهرة. لم ينم عثمان ليلته تلك حتى ذهبت له زهرة صباحاً. أخبرها بأنهم لن يروا سالم في القريب. أمام جزعها طمأنها وقال لها سيكون بخير.

❊ ❊ ❊

(29)

أصبحت هنومة في جوقة النساء تعمل في الطهو صباحاً وتنام متعبة ليلاً وقد أصابها الهزال والوهن. ثرثرة النساء حولها لا تضايقها بل لها فيها عزاء ولكن لا تشارك فيها. أصابتها عدوة الصمت من الأخريات في حضور المرأة البدينة وتتنفس الصعداء بعد مغادرتها. ذات يوم أتت تلك المرأة تتفحص في النساء في تمعن فانقبضت الأنفاس وحدق الخطر بهن. اختارت تلك البنت التي رأتها هنومة في أول يوم قدمت فيه. دفعتها أمامها بتأفف فانفجرت البنت تبكي في انكسار انقبض له الصدور ولكنه زاد من قسوة المرأة زاجرة لها.

ثقل قلب هنومة وهي لم تر الأمير منذ ذلك اليوم. خلدت إلى النوم وهي بين أحلامها المشوشة أفاقت فجأة فزعة على صراخ وجلبة عارمة. اقتحمت الفتاة مخدع النساء تستل خنجراً وهي تصرخ وملابسها قد تمزقت تماماً وتلطخت بدماء. هرب النساء من أمامها بفزع فالتصقت

بجدار الغرفة كالقط المتوحش شاهرة سلاحها. تقدمت منها هنومة ببطء حذر حتى أخذتها في أحضانها. هدأت بين ذراعيها وانفجرت في عويل مكتوم على صدرها. فجأة امتلأت الغرفة بالجند وانتزعوا الفتاة من هنومة وعمد أحدهم لضرب هنومة وهي تشبث بها حتى سقطت على الأرض.

في صباح اليوم التالي والنساء في ساحة الطهو أتى عدد من الجنود يبحثون في غرفة النساء. رأت هنومة سلمان بينهم الذي توارى خارجاً عندما رآها واقفة ترمقه بنظرة جامدة وهى خلف قدر الطهو العملاق. تردد بين النساء هلعاً عن توعد الأمير لفقدانه لخنجره الذي يعتد به.

انتسي الأمر فى اليوم الذي يليه وتردد انشغال القوم بحملة ضخمة لقوم تمردوا في غرب البلاد. غادر الأمير المدينة فهدأت أحوال النساء وقلّت أعمالهن وأصبح لديهن وقت كثير يتسامرن فيه لغياب المرأة البدينة لأيام في بعض الأحيان. تواترت الأحوال بأنباء هزيمة جيش الأمير ومقتله فصار النساء في خوف من المجهول وداخلهن طرب لموته وكل واحدة منهن قد طبع فيها جرح لن تنساه. أحياناً يأتي الجند فتأمر المرأة البدينة بعض النساء بمرافقتهم ولا يعدن مرة ثانية.

في إحدى الليالي أيقظت المرأة البدينة هنومة بحذر وأمرتها أن تتبعها. ملأ الخوف هنومة وتراجعت مبتعدة عنها بذعر فهمست لها المرأة:

ـ هناك فارس يقول اسمه سالم ينتظرنا في الخارج

جن جنون هنومة خطفت بقجة أغراضها وقامت تتبعها متعثرة والدماء تتدفق غزيرة في عروقها. بعد مسيرة أشبه بالركض توقفت

المرأة في فضاء موحش قبضت هنومة على صدرها كأنها تحبس أنفاسها. كان الظلام حالك وقلب هنومة يكاد أن يخرج من صدرها وهي تترقب حوافر فرس متمهلة تقترب. ترجل سالم فارتمت عليه فضماها بقوة للحظات وأبعدها عنه بالقوة نفسها. أخذ من الفرس كيسا من الجلد منتفخا ودفع به للمرأة البدينة والتفت إلى هنومة قائلاً بحزم:

ـ ستذهبين معها وستكونين بأمان حتى أرتب أمرك

وهي تحاول التشبث بساعده قفز على صهوة فرسه وابتلعه الظلام. قبضت المرأة على يد هنومة وحثت بها الخطى وسط الظلام زمنا طويلا سلكا فيه عدة أزقة ضيقة ومتعرجة. وقفت أمام باب خشبي عملاق وطرقت طرقاً خفيفاً. انفتح الباب فوراً ببطء كأن هناك من ينتظر خلفه. ولجا غرفة صغيرة بها قنديل زيتي صغير يتبعهما ذلك الرجل القصير النحيل الذي فتح لهما الباب. تخلصت المرأة من عباءتها في تمهل أعاد لها الأمان. رأتها هنومة لأول مرة بدون العباءة وقد تدلى منها صدر ضخم توسطته تجاعيد مثل جلد التمساح واعتلى شعرها المضفور شيب من الأمام بفرقه جرح عريض قديم خالي من الشعر. تناولت المرأة إناء نحاسي وصبت منه القليل في وعاء خشبي صغير وقدمته لها. عندما ترددت هنومة في تناوله استعادته وارتشفت محتواه دفعة واحدة كأنها تطمئنها. صبت آخر وقدمته لها مشجعة بنظرة جامدة. بتردد ارتشفت هنومة فكادت أن تصرخ لولا ضياع صوتها وتسلل السائل جمرة في جوفها. أجبرتها المرأة أن تزدرد آخر وتبعه آخر حتى أخذ جسد هنومة في

الارتخاء وشعرت بثقل ودوار في رأسها ولم تقاوم ازدراد المزيد. استلقت على ظهرها تعاني من طعم علقم الشراب في حلقها ودوار رأسها حتى غابت في ثبات عميق بدون أحلام منذ زمن طويل.

استيقظت فزعة في منتصف النهار وكتمت صرخة في حلقها وهي تجد الرجل القصير النحيل يجول في الغرفة. لازت بالصمت ترقبه وهو يتنقل بخفة حولها ويحضر لها طعامها وهو لا يكف عن الثرثرة بصوت أجش طابعه أنثوي ويخاطبها بأختي. غالبها الابتسام وهي ترقب خطواته المتراقصة وحركة يداه الأنثوية. عاد لها الأمان وتناولت الوجبة التي قدمها إليها بجوع لم تفطن له في القريب.

لم تر هنومة المرأة البدينة في ذلك اليوم. وظلت مستلقية داخل الغرفة طوال الوقت. ولج الرجل القصير الغرفة بخفة أفزعتها أخبرها بهمس كأن بينهما أسرار مودة قديمة عن زائر لها. قبل أن تفيق لحديثه ولج شخص ملثم حالما كشف عن وجهه استردت إليها روحها عندما أطل عليها وجه سالم. جلس بجانبها يحادثها وهي تمسح في وجهه بيدها كأنها تبحث في ملامحه عن كل ما ضاع منها. تأسف لها كثيراً على وجودها في هذا المكان وأكد لها لا حيلة أخرى له. أخبرها بأنه نفسه مطارد وله كثير من الأصدقاء وقريباً سيكون كل شيء بخير. حدثها بأسي بأنها سوف تظل هنا فترة أطول لسفرة المفاجئ والملح اليوم ولا تستطيع مرافقته. طمأنته على نفسها ممنونة لكل ما يفعله لها وهي صابرة معتمدة عليه. قالت له وهى لا تزال تمسح على خديه:

ـ تدري يا سالم أنت تشبه أبى كثيراً أخي حميدان لم يكن يشبهه

ابتسم لها بمودة شديدة وقبل رأسها. أخبرها بأنه لا يرى آمنة ولكن عثمان يعرف أنها برفقته. دفع لها بكيسين من الجلد بهما نقود وأخبرها أن تعطى إحداهما للمرأة وتحتفظ بالآخر جيداً بعيداً عن الأعين ربما تحتاجه. قبل يديها وتسلل خارجاً فانحدرت دموعها غزيرة على خدها لفراقه.

❊ ❊ ❊

(30)

اعتادت هنومة المكان لا تغادر غرفتها إلا لقضاء حاجتها. ليلاً تحس بدبيب وهمهمات منخفضة لزوار في الخارج كانت تفزعها بادئ الأمر وتجعلها في ترقب متوجس. صارت نهاراً تخرج إلى فناء المنزل ولكن لم تحاول يوماً الخروج إلى الشارع. المنزل به عدة غرف صغيرة جدرانها من سيقان القصب ومعروشة بالجلود والشمائل تتدلى قطع من القماش على منافذها المنخفضة. يقطنها نساء قلّ ما تراهن خلال اليوم وفى الليل يكثر دبيبهن. غرفتها وغرفة المرأة البدينة المتاخمة لها من الطين ولهما أبواب خشبية يمكن إحكامها. عرفت أسرار المنزل من هلال ذلك الرجل الأنثوي الذي توطدت علاقتها به وصار بينهما مودة. أسر لها بكرهه للمرأة البدينة التي عرفت منه أن اسمها تام النفايل. حكى لها عن قسوتها عليه وضربها له عندما تكون مخمورة.

تغيب تام النفايل أغلب النهار وتلوذ بغرفتها ليلاً. كان هلال يمد

هنومة سراً بالخمر التي أصبحت لا تنام جيداً بدونها. بدأت تام النفايل تتذمر من غياب سالم الذي طال أمده وعندما ضيقت عليها الخناق دفعت لها هنومة بكيس النقود الذي بحوزتها ثمناً لبقائها. فوجئت تام النفايل وبحثت في الغرفة على المزيد وهي تتوعدها.

كثر تحرش تام النفايل بها وجعلت حياتها جحيم وتوتر. تضيق أحوالها حين تحس بحضورها إلى المنزل وتلوز بغرفتها متنبهه ولا تستكين إلا بعد أن يعلو شخيرها في الغرفة المجاورة. دلفت لها يوماً وهي مخمورة ويتبعها رجل فجن جنونها وقد أدركت مقاصدها. هبت فزعة وهرعت لأغراضها والتقطت منها خنجر ضخم فزع له الرجل وغادر المنزل مسرعاً. وقفت تام النفايل تنظر للخنجر في يدها ويتطاير الغضب في عينيها. هجمت عليها فلم تتردد هنومة في غرز الخنجر في أحشائها فسقطت من فوقها بدون حراك. تسللت برعب من تحتها وقد تلطخت بدمائها.

دخل هلال على صوت الارتطام ووقف مذهولاً ينظر إلى تام النفايل على الأرض جثة هامدة. فجأة تحدث مع هنومة بصوت عادت له بعض ذكوريته طالباً منها أن تتبعه. ولج بها غرفة تام النفايل وطلب منها البقاء هناك. ظلت جالسة طوال الليل مضطربة وهي تسمع دبيب حفر في الغرفة الأخرى. قبل الفجر ولج هلال إليها في الغرفة بعد أن طرق عليها على غير عادته. دخل بهدوء ووضع الخنجر على الطاولة أمامها نظيفاً لامعاً ووضع بجانبه إناء الخمر وغادر دون أن ينبس بكلمة. احتست

هنومة كثير من الخمر حتى غابت عن وعيها وهي جالسة على الأرض.

استيقظت منتصف النهار بأجفان ثقيلة متضخمة وآلام في رأسها. وجدت نفسها ممددة على الفراش بغطاء عليها. وهي تغالب القيام دخل هلال مسرعاً يحمل الطعام وضعه على الطاولة أمامها وأسرع يسندها يساعدها على النهوض وقد عادت إليه طبيعته الأنثوية مما أعاد البسمة لفمها. سألته عما فعله بتام النفايل وهي لا تنتظر جواب ولم يغيب عنه ذلك. ضحك مرحاً قائلاً لها:

ـ ستظلين أنت هنا يا ستي وسأنام أنا من فوقها كما جثمت على صدري كل هذه السنين

ضحكت هنومة وهو يخاطبها بستي التي كان يخاطب بها تام النفايل.

❊ ❊ ❊

(31)

وجدت هنومة في الغرفة خزانة خشبية عتيقة مليئة بأكياس من الجلد محشوة بالمال. حينما أتى إليها هلال ليلاً بإناء الخمر وضع بعض النقود على الطاولة أمامها. أخذت النقود بعناية وأعادت له نصفها فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. استوقفته وهو يهم بالخروج وقادته للخزانة الخشبية وفتحتها أمام دهشته التي اصطنعها فهي لو لحظت نظرته لها وهو يتبعها لفطنت أنه عالم بكل الخبايا. قالت له بصدق وامتنان:

ـ كل شيء سيكون بيننا مناصفة

أمسك بكتفيها بنظرات ممنونة فضحكت بسعادة في وجهه وقبلته كطفل على فمه وقد تعودت على غياب رجولته ولم تكترث يوماً بتلاصقه داخل الغرفة الصغيرة المليئة بالأغراض المتراكمة. انزعجت وهو يجبرها متشبثاً ويعيد تقبيلها. لم تقاوم تقبيله ولكنها وجمت تماماً. تواصل تقبيله وامتدت يده تتلمس جسدها بدراية اقشعر له بدنها وسرى فيه شعور لم

تألفه. ابتعدت عنه فجأة تستوقفه بإشارة من يدها حاسمة تدعوه لقليل من التريث.

صبت لنفسها ثم له بعض من الخمر وتركته يداعب جسدها ويلحفها بأنفاسه على عنقها وهي تحتسى الخمر دون أن تتجاوب معه أو تنفره. سرت فيها نشوة الخمر فالتفتت إليه وسلمته طائعة شفتيها. أخذ يقلبهما بشفتيه ويعصرهما وهي مغمضة عينيها دون حراك. عندما استنفر جسدها تماماً وارتفعت أنفاسها تسللت ببطء على جانب الفراش وهو يتبعها ملتصقا بها مطبقاً على شفتيها وبيديه يعتصر صدرها. تحت نشوة الخمر وهي تسلمه شفتيها أفاقت وهو يتسلل بين فخذيها. تجمدت وتيبس جسدها وهي تتذكر تلك الاختراقات القاتلة. توقف فوراً بإحساس نفورها وأصبح يدغدغ أذنيها وعنقها حتى استكانت واسترخى جسدها. عاد لشفتيها وأعاد كرته متسللاً وتوقف عند كل صده منها وعاد بهدوئها كأنه يقرأ دواخلها. شهقت عالياً كأنها تستنشق كل الهواء وهو يولجها بكل الهدوء وقد تهيأت له بتجاوب مفاجئ تخطى صحوها. حررت وجهها بعيد عنه وغطت في نوم عميق.

صباحاً لم تجده بجانبها وكأنه ينتظر لحظة قيامها دخل عليها بالطعام وهو يثرثر بطبيعته الأنثوية ويخاطبها بستي كما لم يحدث شيئاً بينهما فتعالت ضحكاتها مجلجلة. اعتادت حياتها الجديدة وصارت ناهية آمرة في المنزل وأصبحت علاقتها بهلال صاحبة الكلمة الأولى فيها حتى على الفراش تسخره كما تريد وهي مخمورة لساعات طوال مستمتعةً بخصوبته التي

لا تنضب. أرسلته للاطمئنان على عائلتها عن بعد ونجحت بواسطته في الحصول على عنوان سلمان وصارت تراقب سكناته بنفسها.

****

عاد سالم وتفاجأ بهنومة في ثوبها الجديد كانت حازمة معه فترك الدار غاضباً بعد أن كاد يصفعها. أبدت له عدم اهتمامها وحذرته من مغبة إخبار الآخرين. بعد خروجه انهارت تماماً وبكت بحرقة وهي تشعر بانهيار آخر جدار يربطها بعالمها الذي أتت منه.

قامت حازمة بعد أن استعادت هدوئها وتلحفت بعباءة سوداء وخرجت من المنزل. سارت بتمهل بالقرب من الجدران حتى وصلت تحت شجرة الدوم العملاقة وجلست تحتها كأنها تتسول وعيناها متعلقتان بمنزل سلمان الضخم أمامه حفنة من الجياد وتكثر فيه حركة الداخلين والخارجين. رأت فتاة متلحفة بالسواد تخرج من المنزل تتسلل بسرعة ملتصقة بجدار المبنى. تنبهت هنومة لطريقة سيرها كأن لها رجل أقصر من الأخرى قليلاً ليست غريبة عليها. وعندما مرت بها تأكدت منها إنها نفس تلك الفتاة التي كادت أن تقتل الأمير. هبت في إثرها حتى بلغت منزل آخر أفخم بناية يبدو لأحد الأمراء وقد التف حوله فرسان كثر وعدد ضخم من الخيول ينبئ بعدد المتواجدين داخل الدار. لم تدخل الفتاة المنزل والتصقت بالجدار قرب باب النساء. تخبت هنومة ترقبها وصارت تبدل مكانها بتأني حتى اقتربت منها دون أن تلاحظها. تراجعت وخبأت نفسها عندما خرجت امرأة أخرى خلسة ودنت من

الفتاة وبسرعة أخرجت من طيات ملابسها صندوق خشبي وناولته الفتاة التي دسته على عجل تحت عباءتها وانسحبت مسرعة عبر الشارع. تبعتها هنومة عن بعد حتى ولجت منزل سلمان.

****

عندما سمع سلمان بقصة خنجر الأمير الذي استولت عليه الفتاة تضايق كثيراً وهو يضمر استرجاعه. ذهب للأمير وطلب تفويضه بالتحقيق مع الفتاة. كان الأمير مشغولا بأخبار الحرب ويجهز نفسه على رأس الجيش أصدر أمره بمنح الفتاة لسلمان ملكا له ويتصرف فيها بما يريد. شكره سلمان ووعده أن يجد أحسن الأخبار عند عودته. اقتيدت الفتاة إلى منزله بعد أن بحث بنفسه عن الخنجر في مخدع النساء ولم يتمكن من التدقيق جيداً وانسحب متضايقاً عندما رأى خالته هنومة التي أهداها إلى الأمير تقرباً منه.

دلف إلى المنزل فوجد الفتاة موثوقا رباطها على الأرض وفى حالة رثة وآثار الكدمات على كل جسدها. أمر بفك وثاقها وإطعامها وأمر المرأة التي تعمل على خدمته بالعناية بها. غاب عنها يومين مرافقاً الأمير حتى غادر المدينة. عاد وطلبها وكانت قد تعافت كثيراً فارتمت على قدميه وهي تبكي تستجدى رحمته. لم يسألها كثيراً عن الخنجر وقد لمس من روايتها الصدق وتشكك بأن أحد الحراس الذين قبضوا عليها قد يكون أخذ الخنجر.

أعجبته الفتاة فأحسن معاملتها وطمأنها كثيراً وتركها في خدمته.

تركها طليقة في المنزل حتى تعافت تماماً وهي تتفانى في خدمته وقد وجدت في هيئته وسلوكه اختلافا عن الآخرين. صرف خادمته وكانت مملوكة للأمير مكتفياً بها. أرضته في كل ممارساته الشاذة حتى اعتادت عليها وأوهمته أنها تستمتع بها. اكتفت بالأمان في منزله الذي يتغيب منه طيلة النهار وأحيانا بالأيام. ارتدت لها صحتها وعادت لها نضارتها.

كانت نوارة وقد تم استرقاقها بعد نهب عشيرتها وقد كانت سليلة أسياد في قومها. عرف سلمان منها أصلها وأجج في روحها حلم الانعتاق والرجوع لعشيرتها. أفهمها بأن الوقت ليس ملائماً وستعيش معه حرة حتى يأتي وقت مناسباً. سخرها مع أخرى خادمة السيد الكبير نفسه وكانت خليلته أيضاً قبل أن يدفع بها الأمير هدية لسيده. جعلهما يسرقان له مصاغ نساء الأمراء وأصحاب الحظوة مقابل حلم الحرية.

عادت نوارة بالصندوق وسلمته لسلمان. فغر فاه عندما رأى ما يحتويه من ذهب ومصاغ كان أكبر من حلمه. انتبه والذهب بين يديه لعواقب اكتشاف فقدانه وضعف النساء أمام التعذيب. نادى على نوارة منذرا لها بالخطر المحدق وقد آن أوان الرحيل فكادت أن تطير من الفرح. أمرها أن تحضر رفيقتها وينتظرانه أمام بقايا القصر المهدم في طرف المدينة قبل غروب الشمس.

في الميعاد المحدد وجدهما في انتظاره دفع لهما بكيس جلدي منتفخ بالمال وآخر من القماش به زاد يكفيهما معاً. دلف إلى القصر الذي كان حطمه القصف وشرع في رفع الحطام بدراية حتى اهتدى إلى السرداب.

تقدم الفتاتان بحرص في ظلام دامس وقد دُفنت الكوات المضيئة في سقفه. لاح الضوء ضعيفاً في نهايته وكان الباب مشرعاً لم يوصده آخر الهاربين. عندما صاروا في الساحة المهملة بين السرداب والحائط العتيق وهما أمامه استل سيفه وصرعهما بخفة قبل أن يتمكنا حتى استيعاب ما يحدث. استعاد كيس النقود وقفل عائداً عبر السرداب موصداً بابه خلفه.

❊ ❊ ❊

(32)

تأكد لعثمان من تحاشى سالم الخوض في أحوال هنومة معه. تملكه القلق وضيق عليه الخناق عليه فحكى له سالم مقتضباً مما أشعل الغل في نفسه نحو سلمان وأقسم مرة أخرى أن يقتله. حاول سالم إخراجه من حالته بسرد أخبار التمرد في أنحاء البلاد والانشقاق الداخلي في صفوف المحاربين ولكنه تحاشى أن يذكر له شيء عن تعاونهم مع الجيش القابع في حدود البلاد وهو يعلم غله الدفين نحوهم. فارقه عثمان وحلقه علقم وهو نادم لمهادنة آمنة في زواج سلمان من طهره.

صمتت طهره وانطفأت نضارتها. اعتمدت آمنة على زهرة في رعايتها التي قامت بها طائعة بكل جوارحها وهي تذكرها بلحظات الأسى التي مرت بها بعد أن نكل بها الجنود. اهتمت هي بعمران بنفسها وهي تراقب ابنتها بشفقة وحسرة. عثمان قلبه كان ينفطر علي ابنته وفى أعماقه لوم لآمنة. اعتمد على خليل في كل شئون البيت هروبا من مواجهة طهره وأصبح

يلازم شئون أعماله التي تقلصت تماماً لغياب سالم وغياب التعامل خارج المدينة. سيطرة الجند على كل الموارد وإمكانية نزع الأموال والأملاك لدعم الحروب صار نهباً حد من التوسع في الأعمال. نقل عثمان كثير من مخزون الحبوب داخل منزله ومنزل سالم سراً وكثيراً من تجارته كانت تتم في الظلام.

خليل صار فتى يانعا قليل الحديث لصيق بأمه زهرة التي أصبحت عليلة كثيراً ولكنه ينصاع تماماً لآمنة كقائدة للمنزل وما تلفه به من حب ورعاية فكانت لا تهجد إلى مخدعها حتى يعود من الخارج تحضر له طعامه وتعتنى بهندامه. تعنفه لتأخيره ليلاً الشيء الذي لا يفعله عثمان ولكنه وزهرة لا يتدخلان وفى أعماقهما ارتياح لصرامتها مع الفتى.

كان الفتي في فورة شبابه ولا توجد لديه رفقة من عمره ينكب جل يومه في عمل صامت مع والده يلبى كل طلباته فأصبح بدراية كاملة بالأعمال. التجارة السرية جعلته يتعرف على دروب المدينة الخلفية لتوصيل الطلبات وإتمام الصفقات بعيداً عن أعين العسكر. عرف مخابئ اللهو وشهد كثيرا من الرجال يتسللون في جنح الظلام لبيوت اتخذها بعض النساء مرتع لجمع الأموال ببيع المتعة والخمور.

تلك البيوتات يختبئ فيها اللائي هربن من ذل العبودية إلى ذل بيع الجسد مقابل اختفائهن. خليل يعرف كل الخبايا ويكتفى بالتجوال حول تلك الأمكنة ينازعه نداء الجسد في فورة صباه المتدفق بجامح الرغبة. في مرة أكمل صفقة حبوب مع أحد تجار الشرق فأغدق عليه بمال فوق

قيمة الصفقة. خفق قلبه متسارعاً وقد حزم أمره أن يدخل إحدى بيوت المتعة. اختار أكثرهم تخفياً وقف متردداً أمام الباب وكاد أن يعود لولا فتُح الباب كأن هناك شخص يرقبه خلفه حسم له تردده. أتاه صوت خافت يدعوه للدخول فتسلل مسرعاً تاركاً الباب خلفه مواربا. قاده الرجل القصير قاطعاً عنه طريق العودة إلى غرفة صغيرة بها قنديل زيت بإضاءة خافتة. نظر الرجل في وجه الفتى على ضوء القنديل فاتسعت عيناه بابتسامة خبيثة. طلب منه الانتظار في الغرفة وانسل خارجاً من الباب المنخفض مسرعاً مقتحماً غرفة هنومة. فزعت لدخوله وأحست بخطر فهبت على قدميها. وضع يده على كتفها مطمئناً وقال لها متلعثماً:

ـ لدينا زائر لم أره جيد في الظلام عندما أدخلته إنه ابن أخيك

قفزت هنومة فزعة وصفعته على وجهه بقوة. خرجت من الغرفة ووقفت في الفناء ونظرت إليه متسائلة. أشار لها إلى الغرفة وهو يتصنع الانكسار ويتابعها وهي تتقدم بعين ثعلبية شامتة. ذهبت هنومة خلف الغرفة ونظرت خلال الصريف في عين مخصوصة ينظر منها النساء الهاربات قبل أن يدلفن على الزوار للتأكد من أنهم غرباء عنهم. صارت تتأمل الفتى وهو جالس مرتبك يجول بعينيه في المكان. ابتعدت فزعة وهو ينظر ناحيتها وعادت إلى غرفتها وظلت جالسة واضعة وجهها بين يديها تسلل خلفها هلال وظل واقفاً في صمت ينتظر قرارها. دون أن تنظر إليه قالت له:

ـ نادى لي بحرية

خرج هلال يجرجر قدميه ولكن اعتلت وجهه ابتسامة خبيثة

وأسرعت خطواته فور أن أصبح خارج الغرفة. انتظر في الظلام وبحرية مع هنومة وحدهما في غرفتها.

بحرية فتاة سمراء أتت للمنزل حديثاً هاربة من مدينة أخرى التقطتها هنومة وهي تجوب الطرقات بملابس رثة. كانت صبية لم تتعدى السابعة عشر من عمرها ذكية وسريعة بديهة أسرت هنومة ببراءتها التي لم تنطلِ على هلال. حارب هنومة في فكرة تبنيها واستطاع أن يقنعها بانحراف الفتاة. قبلت بها هنومة مضيفة لزبائن المنزل ولكنها صارت لها مكانة خاصة عندها وأصبحت كوصيفتها.

اعترض هلال بحرية في الظلام وهي خارجة من لدى هنومة في طريقها إلى خليل. دس في يدها مبلغ من المال فضحكت الفتاة وقد اعتادت خبثة واندست داخل الغرفة. بعد أن اطمأن هلال لانغماس هنومة التام في الخمر تسلل خلف الغرفة واستكان يرقب خليل وبحرية على ضوء القنديل. استنفره تماماً غنج الفتاة في مطارحة الصبي. تسلل إلى هنومة التي كان الخمر قد أهمدها. تسلل بجانبها ولكنها عندما أحست به هبت غاضبة وأوسعته ضربا بكل شيء حولها صابة جام غضبها عليه وهي تحمله وزر إدخال الصبي المنزل. هرب خارجاً فوجد بحرية تقود الصبي خارجاً وهي تقبض بدلال على خصره. تخبأ في الظلام وقبض بها وهي عائدة ودس لها مبلغا كبيرا من المال في يدها وسحبها إلى غرفته.

توالت زيارات الصبي إلى المنزل وخصص له هلال غرفته. اعتكفت هنومة في غرفتها طوال وجود خليل بالمنزل تعاقر الخمر. أصبح هلال يتسلل لجلسات خليل وبحرية ويشاركهما السمر. في مرة أحست هنومة

في الغرفة المجاورة بجلبة وضحكات وصوت بحرية تصدح بالغناء. قامت غاضبة واقتحمت الغرفة فوجدت بحرية عارية جالسة على الفراش تحمل إناء فخاري كطبل تغنى وخليل وهلال يرقصان بطريقة أنثوية. جن جنونها وانتزعت عصا غليظة تسند باب الغرفة وانهالت على الصبي ضرباً على وجهه. وتحولت إلى هلال تطعنه بالعصى كالسيف على بطنه كأنها قررت قتله فصرخ وهو يتمكن من الهروب. تمكنت بحرية من الهرب قبل أن تطالها يد هنومة.

أفاق الفتى وهنومة تضمد جراحه وقد غسلت الدموع وجهها. نفر منها وتسلل خارجاً بظهره لا يأمنها. بعد خروجه بكت هنومة كما لم تبك في القريب وهي لا تزال تحس بثقل الصبي على كفيها وترى دماءه على ثوبها فتذكرت يوم ولادته وطافت بها صور كل الموجودين آنذاك.

تسلل خليل إلى مخدعه ولم يلحظ آمنة قابعة في الظلام ترقبه. لحظت تعثره وعندما رأت الدماء ولولت بصراخ فزع له عثمان وزهرة. تلك الليلة صمت المنزل ولزم الكل فراشه وسط هرج آمنة المجلجل الذي طال عثمان وزهرة وصبت جام غضبها على خليل الذي استلقى على جنبه في جزء قصي من المنزل مفتوح العينين. عندما كفت آمنة عن الصراخ بدأت في نحيب مكتوم وضميرها يؤنبها لكل ما حملته للآخرين. تسللت زهرة حاملة فراشها وبصمت وهدوء طرحته بجانبها واستلقت عليه. اكتفت بأن ربتت ممتنة على شعر آمنة الأشعث ومسحت دموعها بأصابعها. قبلّت آمنة يدها واستكانتا للنوم.

❊❊❊

(33)

هنومة حجبت نفسها عن الجميع ولكنها كانت ترقبهم عن بعد. تنبه لها عمران وهو يتسكع في السوق وهى ترقبه بنظرات تخللته. اقترب منها عمداً فاعتصر قلبها ولم تستطع مقاومة التودد إليه فنادته باسمه وقلبها يخفق. توقف مذهولا ودنا منها. ارتبكت وهي تتناول يده وردت على تساؤل عينه بأنها سمعت مرة أحدهم يناديه باسمه. قالت له إنه يشبه طفلها الذي ضاع منها منذ زمن بعيد. أشفق الصبي كثيراً لروايتها ولكن ليس فقط ذلك ما شده إليها. كان بها شيئاً من جدته آمنة لا يعرف كنهه ربما في طريقة حديثها وربما صوتها وتعابير وجهها وحركتها حتى ابتسامتها وجد فيه الكثير من جدته وإن لم تكن تشبهها ولكن وجد فيها شبه من شخص يألفه. سألها ببراءة كأنه يبحث عن شيء:

ـ هل تعرفين عمى سالم حميدان؟

خفق قلبها بشدة وقد علمت أن الفتى وجد فيها شيء يربطه بها.

هنومة وسالم بهما شبه كبير يربطهما بأبيها خليل يلاحظه الجميع. أومأت له نافية وقلبها يكاد ينفطر. طلبت منه أن يناديها بجدتي. ابتسم الصبي قائلاً لها:

ـ أتدرين أن جدتي صارمة وقليلا جداً ما تبتسم ولكن ابتسامتها مثل ابتسامتك وربما صوتها أيضاً.

طفر الدمع من عيني هنومة أخفته عنه وهي تبحث عن موضع تغير مجرى الحديث وقد ارتبكت أمام نظرات الطفل التي تشع بالذكاء. قبلت يديه وسألته أن يقبلها صديقة ويقابلها في نفس المكان دوماً. وافق في حبور فدست في يده قطعة من النقود النحاسية قائلة:

ـ هيا اذهب الآن واشتر لنفسك شيئاً تأكله سأكون في انتظارك غداً

قبل أن تذهب توقفت مترددة وهي تربت على رأس الصبي. طلبت منه أن يكون الأمر سرا بينهما. لمعت عينا الصبي وراق له الأمر خاصة وقد قبل منها القطعة المعدنية ولم يفعلها من قبل وقد غمرته ألفه للمرأة فود أن تكون له وحده. توالت لقاءاتهما وكانت أغلب الأوقات تنصت الى ثرثرته التي لا تنتهي يفرغ لديها ما لا يستطيع أن يفعله في منزله الذي يلفه الصمت الدائم. عرفت ما يحبه من طعام وحلوى وكان تحضرها له معها ويأكل كل شيء بوجودها كأنه لا يأخذ معه سر من أسرارهما.

تفاجأت هنومة يوما بخليل أمامها وهي برفقة عمران. وتفاجأ هو أيضاً فانتزع الصبي من يده بشراسة وهو يرمقها بازدراء. صمتت هنومة وقلبها منقبض تتابعهما مبتعدين وهو يقبض بيد الصبي الذي يتبعه

منزعجاً ويلتفت ينظر إليها فأظلمت الدنيا أمامها. اكتفى خليل بتوعد عمران منفردين بأنه سيخبر آمنة إذا رآه برفقة تلك المرأة مرة أخرى. صمت عمران وطافت به تساؤلات طفولية كثيرة ولكنه اكتفى بذلك الوعد الذي طياته تعنى بأن خليل يحفظ سره. أومأ موافقاً ولكنه قد عزم بينه وبين نفسه أن لا يفي بذلك.

عمران الذي صار على أعتاب الصبى من عمره كان ملتصق بجدته وجده أكثر من أمه. صار شبيهاً لعثمان في صباه وورث منه سرعة الغضب وشابه أمه في هدوئها. توتر المنزل منذ غياب والده سلمان الذي لم يره واكتست طفولته كهولة. يجد نفسه كثيرا في حضور عمه خليل الذي صار شابا في مقتبل العمر. خليل كاتم سره يفرغ له مأقى قلبه دون الآخرين. توطدت علاقتهما منذ أن تكتم خليل على علاقته بتلك المرأة التي تغدق عليه العطايا. وعده بالبعد عنها كذباً ولكنه لم يهتد إليها مرة أخرى.

❊ ❊ ❊

(34)

اضطربت أحوال المدينة وشحت مواردها بأخبار تقدم الجيوش وتوغلها في البلاد قادمة من الشمال. صار لقادة المقاتلين اليد العليا في مصادر موارد الناس لتسخيرها للجنود. عمت الفوضى وطال النهب مستودعات عثمان من الحبوب. تصادف وجود خليل فضربه الجند بدون رحمة. تنازع عثمان وهو يحمل الغلّ لهم في صدره ويحمل أكبر منه للجيش الزاحف من الشمال. أتى اليوم الكبير ودقت طبول الحرب تصم الآذان مقرونة بتهليل الجنود وحوافر الخيل التي خلت الطرقات إلا منهم. لزم الناس منازلهم ليس لديهم سوى الترقب بما يخبيه لهم القدر. بدأت أصوات المدافع متفرقة من على البعد وازدادت كثافة ورتابة. خلت الطرقات من الجنود وبدأ صوت المدافع بالاقتراب والشمس تميل للغروب ورائحة البارود تزكم الأنوف. أصبح الضرب كأنه داخل المنزل وامتلأت الطرقات مرة أخرى بحوافر الخيول لفلول الهاربين من جحيم الحرب فسقطت مزالج الأبواب أمام الذين أرادوا اقتحام المنازل في رعب الهروب.

حين عم الظلام كانت طلقات المدافع فى السماء هي النور الوحيد. تسللت هنومة متجاهلة توسلات هلال متوشحه بملائة سوداء تغطيها تماماً. شقت الطرقات والأزقة غير عابئة بقصف المدافع التي كانت تشفى غليلها كأنها تطلقها هي في صدورهم. تتوقف أحياناً ترقب فلول الهاربين فترى فيهم جرزان تريد أن تبصق على وجوههم.

سلمان كان في أول فوج نال منه الرصاص. كان بنيته التسلل ولكن طلبه كبير الفرسان ليكون في مقدمة الجند لعلمه بمداخل المدينة تقهقر في بداية القذف ولكن نالت منه قذيفة أطاحت بذراعه فأجلاه الفرسان عن ميدان المعركة وهو في ذهول لا يحس بذراعه المبتورة. تسلل لا يلوى على شيء وسط الهاربين حتى ولج منزله. قبع نصف جالس ونصف ممدد تحت حائط الغرفة المتهدم. زحف وانزوى بين حطام الغرفة متكوراً على نفسه ينتفض جسده وتعلو أنفاسه كأنها شخير وزراعه المبتور نازف بركة من الدم يجلس عليها. انتفض جزعاً وهو يرى شبحا أسود دامسا ينتصب أمامه ماتت الصرخة في فمه وارتسم الرجاء في عينيه وارتجف فمه. أزاح الشبح الغطاء عن وجهه ببطء. أطل وجه هنومة ترمقه بنظرات جامده زادت من هلعه ويأسه. سالت دموعه مدراراً وهو يرقبها صامتا وهدأت أنفاسه مستسلماً تماماً. دس يده السليمة خلفه وبضعف شديد دفع لها بصندوق خشبي عندما وقع بصرها عليه عرفته وتذكرت يوم تسلمته نوارة من بيت الأمير. اعتلت فمها ابتسامة صفراء ودست يدها في صدرها ببطء وأخرجت خنجرا اتسعت عينا سلمان لمرآه أكثر دهشة من إنها رعب وكابد زاحفاً بعيدا عنها. لم يختلج فيها جفن وقد

أمسكت بالخنجر بكلتا يديها ودسته بغِل دفعة واحدة في صدره. ظلت قابضة بكلتا يديها بنصله برهة ترقب انطفاء بريق عينيه. استلت الخنجر ومسحته على صدره وأعادته إلى بين طيات ثيابها. توقفت قليلاً قبل أن تغادر ترمق الصندوق الخشبي. لم تنتظر طويلاً التقطته وخرجت بعد أن نظرت إلى سلمان في عينيه الجاحظتين.

****

قبع الجميع داخل غرفة واحدة. آمنة تحتضن عمران وطهرة وزهرة يلتصقن بها وبعيد عنهم جلس خليل متوهجاً تغمره أحاسيس شتى ليس من بينها الخوف. تعلقت عينا آمنة بعثمان وهو جالس وسط الفناء على الأرض مكتفاً يديه وينظر إلى السماء وهي تشتعل. انفك عمران من يد آمنة وهرول إلى عثمان فلم تمنعه والجزع في عيني طهره وهي ترى ابنها على ضوء النيران التي تحترق بها السماء يقطع الفناء. ابتسم عثمان كما لم يفعلها في القريب. احتضن الطفل قليلاً وأجلسه بجانبه ممسكاً يده بقوة.

عند بزوغ الفجر على المدينة التي لم تنم ليلتها هدأ الكون فقط صوت طلقات متفرقة من الحين والحين. مع كل طلقة يرى عثمان وجه أحد أشقائه. أمر الطفل بإشارة من يده أن ينضم إلى جدته وأمه ونظره متعلق بالباب وهو يُقتلع قلعاً. امتلأ المنزل بجنود بملابس مليئة بالألوان يغطيها التراب ولون الحرائق. تقدم أحدهم من عثمان الذي لم يبرح مكانه. ضربه بمؤخرة سلاحه على وجهه. هوى عثمان على الأرض بدون صوت وعينه متشبثة بوجه مهاجمه بقوة. وهو ويحاول أن يمد يده للقبض على الرجل

ارتطم رأسه بالأرض. غاب في لج عميق قبل أن يشعر بيد تقبض على كتفه. فتح عينيه فوجد وجه عمران يحثه على الدخول إلى مخدع السيد. نظر إلى وجه السيد فكان هو وجه الرجل الذي ضربه على وجهه بمؤخرة السلاح. كاد أن يطلق على وجهه النار ولكنه فزع ووجهه يتبدل إلى وجه سلمان فتشبث بالسلاح وارتخت أوصاله عند تبدل وجهه إلى حميدان مبتسماً فاغرورقت عيناه بالدموع وكاد يخفيها متماسكاً حين لاح له وجه خليل وصار يتغير في بطء وملامحة بين الغضب واللوم والعطف فبان له قليلاً قليلاً وجه آمنة.

شهقت آمنة عالياً وعثمان يعود إلى وعيه ورأسه على حجرها تلفت عثمان فزعاً لم يجد أثر للجنود وقد آل البيت حطاماً بعد نهبه تماماً. أعادت آمنة رأسه على حجرها بحنو تهز رأسها تطمئنه أن الجميع بخير.

***

(35)

مالت الشمس للغروب ورائحة البارود تملأ المكان ظل الجميع في صمت في وسط الفناء انتبهوا لجلبة طفيفة في الخارج. كأنها حوافر خيل توقفت عند المنزل. تعلقت أعين الجميع بتوجس بالباب المخلوع. ولج إلى المنزل سالم يحمل بندقية في هندام نظيف ليس كالفرسان المهاجمين وليس المندحرين. وقف منزعجاً وقد هالته فوضى المكان. هرولت له زهرة وارتمت عليه وعلا نحيبها وخرج صوتها وهي صامتة من الأمس. تعلقت عينا طهرة به كأنها تسأله عن مصير سلمان. ولم ينتبه لها وهو مشغول بتفقد الجميع وعينيه تجوب في المكان. قال مخاطباً عثمان محتفظاً بزهرة تعانقه:

– ستقضون ليلتكم هنا مؤمّنين وسننتقل إلى بيتي غداً

قضى سالم ليلته معهم مع نفر من رفاقه في فناء المنزل بعد أن أدخلوا خيولهم داخل الدار. انضم لهم عثمان يتسامرون طوال الليل. تلمست آمنة وزهرة وطهرة برفقتهن عمران مكان بين ركام إحدى الغرف

وافترشوا الأرض نائمين واختار خليل أن يكون وحده ولم ينضم لأبيه ورفقته. صباحاً غادر الفرسان وبقي سالم معهم مجتمعين تحت تعريشة في الفناء بين غرفتين ظلت منتصبة.

****

بين اندهاش الجميع ولجت امرأة إلى المنزل من الباب المخلوع. لم تتقدم داخل الدار سارت قليلاً بحذو الحائط وجلست القرفصاء على الأرض. كانت تلتف بثوب يغطى جسدها العاري تماماً من الأمام يكشف عن صدر يكسوه جلد رقيق تبرز عظامه ويتدلى منه ثديان مفرغان. بحثت آمنة عن طعام ونجحت في الحصول على شيء وذهبت لها بالطعام ووضعته أمامها بعد أن فشلت بإحضارها داخل الدار والمرأة كتمثال لا تتحرك. طيلة الوقت وعثمان صامت ينظر إلى المرأة ولم يغادر مكانه. تحرك ببطء وذهب إليها وجلس بجانبها بدون حراك.

تنبهت كل حواس آمنة وعرفت من هي. قبضت عمران تقوده أمامها في رعب وأمرت طهره بعنف أن تتبعها. دلفت إلى الغرفة التي حطمها الجند وهيأت مكان للصبى وأمرت طهره ألا تغادره. شعرت طهره بالخطر تنقله لها والدتها فجلست ملتصقة بابنها الذي كان مذهولا تماماً. عادت ترقب عثمان يتحدث مع المرأة وهى جالسة كصخرة تنظر أمامها. زاد قلق سالم وهو يرقب آمنة وقد تتطاير الشرر من عينيها. سألها سالم قلقاً من توترها الذى عرف توثقه مع وجود المرأة فسألها إن كانت تعرفها. ردت عليه كأنها تتهيأ لنزال:

ـ أنها رأس الأفعى والدة سلمان

فغر سالم فاه غير مصدق وتبلد لا يعرف ما يقول. تقدم عثمان نحو آمنة فوقفت قبالته متحفزة. صار محتاراً وقال لها:

– أين عمران يا آمنة من حقها أن تراه.

لم ترد آمنة ووقفت قاطعة عليه الطريق في تحفز عدائي لم يره فيها من قبل. لم يستطيع أن يتخطاها عنوة وأصبح يرمقها برجاء. نادى عليه سالم ينبئه بأن المرأة قد اختفت. هرول عثمان للخارج ولكن كأن الأرض قد أنشقت وابتلعتها. عاد وجلس حزين كأن كل الدنيا قد تألبت عليه في لحظة واحدة ووضع رأسه بين كفيه صامتاً. آمنة وقد وخزها ضميرها لألم عثمان قالت له ولم يخلو صوتها من العداء:

– من رمت بابنها كل هذه السنين ولم تسأل عنه لا تستحق منك شفقة

انتهر عثمان كما لم يفعل من قبل منتفضاً:

– لا توزعي أحكاماً جائرة يا آمنة لقد عاشت المرأة مأساة لا ذنب لها فيها بعد مقتل عمران

احتبست الكلمات في حلقه وهي أول مرة يذكر موت عمران مقتولاً أمام آمنة. فاضت روحها رقة له وهو يحافظ دوماً على إحساسها ولم تنكأ رجولته يوماً أن يسيئ لذكراها لعمران وهى تعلم كم يؤلمه ذلك. قبضت على يديه بقوة كأنها تنبئه بأنه هو حبها الخالص ولم تعبأ بزهرة التي تسللت ببطء تاركة المكان. قالت له بهدوء:

– أكمل يا عثمان يهمني أن أعرف كل الذي حدث لقد حكى لي حميدان كل شيء وأنا فخورة بكما لم يضع دم أمي وأهلك بدون ثمن.

بعد صمت تحدث عثمان وكان الجميع في انتظاره:

– بعد مقتل عمران في فورة الغضب قتل الجند والد تمارا وأمها وهربت هي والتجأت لقومها وهربوا بها خارج المدينة. عندما ظهرت عليها بوادر الحمل أجمع القوم على التخلص من الطفل ظناً منهم بأنه جالب الشؤم وهو الذي تسبب في مقتل أبيها وأمها. هربت بحملها منهم وظلت هاربة حتى وضعت طفلها بين فريق من الغجر. اهتدى قومها إليها وهم يؤمنون بلعنة المولود التي ستطارد قومهم وتقضى عليهم هربت به ثانية وذاقت أهوال حتى اهتدت إلينا.

تنبهت حواس سالم لهذه القصة حتى جحظت عيناه لها وأصبح يتمتم:

– لقد صدقوا إنه لعنة لقد كان على رأس الجند عندما غزوا الشرق قتلوا قرية مسالمة بأكملها دون إذن من القائد وكان يومها هو في أوج قسوته ربما كانوا هم عشيرته.

وجم الجميع فعادت زهرة والتصقت بآمنة يكسو وجهها الخوف. بعد صمت قال عثمان وهو يزال غارقاً في حال تمارا وكيف كانت تجلس صامتة كحطام إنسان:

– لقد ظهرت فقط الآن يا آمنة ربما قضت كل هذه السنين رهن الاعتقال أو في ذل الاسترقاق لقد رأيتها فتية حالها هذا من جور الزمان.

انقبض صدر آمنة وهي تتذكر هنومة فمنت نفسها أن تراها. شعرت بظلمها للمرأة واكتفت بصمت حزين وهى تضم زهرة عليها تعطيها الأمان.

❋ ❋ ❋

(36)

خلال أيام دبت حياة حذرة في المدينة. توقف النهب وكثرت جحافل الجنود في الطرقات. ليلاً تُسمع طلقات متفرقة أو جلبة خيول مسرعة كأنها تطارد البعض. عثمان الذي ظل صامتاً طيلة الوقت نادى باسم آمنة بنبرة توحى بنفاد الصبر والوصول إلى قرار فانتبه له الجميع:

- حان موعد الرحيل يا آمنة

لم ترد آمنة وامتلأت عيناها بالدموع وتراءى لها النهر يشق العباب والطيور مغادرة أفواج إلى الجزر المتناثرة وجريد النخيل يتمايل مع الهواء وأباها يقبع في غرفته ينتظرها. شهقت كأن شجرة الهجليج تلوح لها في البعيد عند مغارب الشمس قبل أن يبتلعها الظلام.

آن الرحيل والجميع يتبعون إعدادات سالم الذي كان وحده يفعل كل شيء. عثمان كان آخر من لحق بالجمع. حانت من آمنة التفاته فوجدت شبح امرأة منتصبا عن بعد يرقبهم. تسارعت ضربات قلبها وتدفق

الدم غزيرا في جسدها وفى جفون عينيها حتى بهتت الرؤيا أمامها وهي تصرخ جازمة أنها هنومة. هرولت إليها بخطى لاهثة وضاع صوتها وهي تلوح بيديها وهي تكابد تسلق منحدر المرسى. على عجالة تسلل الطيف مختفياً منها بين الأزقة. لم تتوقف آمنة وبين ضيق أنفاسها وعبرات حلقها تردد اسم هنومة والدمع يزرف مدرارا من عينيها. صارت تجرى في كل الاتجاهات وأياديها تمتد لكل المارة يملأها جزع أن تضيع منها مرة أخرى. لحق بها سالم وأمسك بها وأجلسها على الأرض وتركها تفرغ أساها وهو يدفن وجهها قصداً على صدره وهو يرقب هنومة التي أطلت من خلفها كاملة لكي يراها بنظرة كأنها توصيه بها وغابت وسط المنازل. عاد بها سالم وتلاقت عيناه مع عثمان الذي شرع في ترتيب الرحيل.

****

شعرت آمنة برئتاها تمتلئ بهواء نقى والمركب تمخر عباب النهر. كاد قلبها يقفز من صدرها والربوة أمام منزلهم تطل أعلى النهر. تدفقت دموعها غزيرة وارتجف كل كيانها قبض عثمان على كتفها وهو ينظر في البعيد كتمثال هرم. اعترى آمنة شعور بالزهو وهي تتقدم الجميع دليلا لهم على أرض تمتلكها. تعالت صيحاتها تدعوا الجميع أن يقبل الأرض صاحت بعمران وخليل

– هلما اعدوا في كل مكان اقفزا هنا الأمان هذه أرضكم

تعالت صرخاتها تنادى صليحة وكل اسم يرد في عقلها، الأحياء منهم والأموات. أسرع سالم بجانبها دون أن يمنعها والدموع تتدفق من عينيه.

أسرعت طهره وخلفها زهرة الخطى خلفها يراقبانها ويبكيان لمناداتها. أثقل عثمان خطاه مخبئاً دموعه. كانت لوعة وصليحة تأتى حافية عدواً ثقيل الخطى تختلج أردافها الضخمة على نداء آمنة وتصرخ بأصوات أشبه بالجنون. كاد قلب آمنة يسقط منها وهي تراها طيبة قادمة إليها. تبعها وتخطاها خيري واحتضن آمنة في وسط الطريق. تركها لصليحة حين بلغتهما وهرول إلى عثمان. تقالدا طويلاً وصار يقبل جبهته ويديه.

****

طافت آمنة عدة مرات بالدار ولجت غرفة والدها فوجدتها نظيفة مرتبة كأنه غادرها لتوه. اعتصرها قلبها وهي تدري حب صليحة له ومشاركتها في نظافتها منذ نعومة أظافرها. انطفأت جذوة فرحتها عندما وقعت عيناها على مجلس طيبة المفضل وهي تدندن بأغنياتها الحزينة وتغزل في سعف النخيل. أحست بنظرتها صليحة فالتصقت بها وهمست لها:

- كانت تناديني آمنة عندما تقدم بها العمر

بكت آمنة بحرقة حتى أصابها دوار وهي تحتضن صليحة.

صليحة تحورت وأصبحت كلها طيبة. خطواتها وبسمتها وصوتها حتى أردافها. أصبحت طيبة فقط قد امتلأت بالحياة وفارقها ذلك الحزن المسكون فيها. تابعتها آمنة بنظراتها وهي شعلة تتحرك وسط الحاضرين فتذكرت طيبة يوم عاد عثمان أول مرة وقد دبت فيها حياة لأول مرة فها هي تبتعث الآن في صليحة. جلست صليحة قربها وهي ترقب فتوة خليل ابن عثمان ورزانته وهو جالس في صمت يرقب الفرح في عيون

الجميع ولم يرهم في حياته هكذا. التقت عيناه بصليحة فسحبهما بعد غمرها ببسمة نقية. همست لآمنة:

– يا له من شاب جميل زوجيه لإحدى بناتي يا آمنة فقد ولج قلبي

ابتسمت آمنة وقد عادت إليها صليحة ببساطتها وهي تحمل قلبها على كفها. لا تخفى عشقها ولا يختبئ غضبها. همست لها آمنة:

– كيف لا يلج قلبك واسمه خليل

قالتها قاصدة أن تلهب قلبها وهي تعرف حبها لأبيها الذي كان يصطفيها من بين الأطفال. تلألأت عيناها بالدموع وكأنها تاهت في عالم آخر أفاقت بآمنة تقبض بشدة على يدها. فاكتفت هامسة:

– لقد كان أبى

****

نامت آمنة ليلتها في فناء الدار تحت إلحاحها والطقس يميل للبرودة. كادت صليحة أن تفقد عقلها صباحاً عندما لم تجدها مكانها. قبل أن تفوق من ذهولها ولجت آمنة من الباب يملأها حزن ثقيل. هرولت لها صليحة تمسكها مستنكرة ومتسائلة فتلقت منها آمنة مساعدة كانت تحتاجها بعد تجوالها الطويل منذ الفجر في الحقول. وهي تتوكأ عليها همست لها كأنها تعزى نفسها:

– حتى شجرة الهجليج لم يعفها الزمن

جلست بقربها ومسحت على وجهها وهي تنظر إليها بتمعن. ماتت أمها مِسكة وهي طفلة ولازالت تذكرها جيدا. وجدت في صليحة شبه كثير من أمها ولكنها أكثر بدانة. احتضنتها وهي تقبلها همست لها:

– هل تعرفين ماذا حل بهنومة وأخى حميدان يا صليحة؟

أسكتتها صليحة واضعة يدها على فمها وأخبرتها أن عثمان أخبرها بكل شيء. على ذكرى هنومة دار في رأسها سلمان الذي لم تره وحكى لها عثمان عنه القليل. قالت لها متجاهلة أمره:

– هالني الشبه بين الصبي عمران وعثمان.

صمتت وهي تجد نفسها تفتح لواعج أخرى. واصلت متعدية للحزن تحكى لها عن أبنائها وعن القرية وعن كل شيء يبعدها عن أحزانها. دنا منهما خيري وكله حبور بوجودها وقال لآمنة معاتباً:

– سألتي عن كل إنسان يا آمنة ولم تسألي عن أبينو وهو الذي لم ينفك عن الحديث عنك وقصصه معك.

فزعت آمنة كمن أصابه لوثة وعادت لها كل حيويتها. صاحت بدهشة

– أبينو على قيد الحياة؟ أين هو؟ خذوني له

قالتها بأنفاس متلاحقة مما جعل خيري يضحك عالياً

كان خيري قد انتصب رجلا ناضجا ويتمتع بمرح لا يخلو من خبث أحياناً. قال لها ضاحكاً:

– أبينو يقول إنك جميلة كجنيات البحر وشقية مثل أنثى الثعابين إن لم تكوني صغيرة لتزوجك هو

ضج الجميع ضحكاً وأحست آمنة بفرح يملؤها وقد تذكرته بالأمس عندما رأت في غرفة أبيها تمثال الخشب العملاق للمرأة السوداء تحمل

طفليها والأغلال محطمة عند قدميها. انتبهت آمنة وخيرى يحكى لها عن أبينو:

ـ كثرت حركة الأعراب في المنطقة وتسللوا برقيق يملكونه في رحلات غير شرعية. بدأت همهمات حول أبينو فتبدلت أحواله وبدأت الغربة تدب فيه. طمأنه خليل أنه في بيته آمن ولن يجرؤ أحد على التعرض له.

❊ ❊ ❊

(37)

اشتهر حانوت أبينو بالأعشاب وامتدت يديه بصيرة في علاج الكسور وأوجاع الظهر. أحد الأعراب أهتم به وصار يدور حوله ويتسقط أخباره. ذات ظهيرة ذهب إلى خليل وعرض عليه مبلغا من المال لشراء أبينو. طرده خليل غاضباً من المنزل واحتد الحديث بينهما فضربه خليل بعصاه الأبنوس التي يحملها دائماً حتى شج رأسه. خرج الرجل غاضباً متوعداً وعم الخبر في القرية ووصل إلى أبينو الذي ظل صامتاً ولم يتحدث مع خليل في الأمر. أبلغت طيبة خليل بأنها سمعت من النساء بأن الأعرابي عرف قصة وأصول أبينو في القرية فتوعد أن يبلغ الأمر للسلطات.

مساءً أخبر خليل أبينو بنصح طيبة بأن ينتقل سراً إلى منزلها في قريتهم حيث يوجد أقرباء لها يقطنون المنزل. يظل هناك حتى يغادر الأعرابي، وهم عادة تأتى بهم تجارة ولا يبقون كثيراً. رافقت طيبة أبينو ليلاً إلى

القرية ووصلا فجراً قبل أن تدب الحياة في القرية. كان أبينو متوجساً أول الأمر ولكنه سرعان ما ألف المنزل وهو يعج بكثير من الأطفال الذين يحبهم كثيراً. بلغت شهرة أبينو القرية في العلاج بالأعشاب والسحر فالتف حوله أهل القرية. بعد فترة اقتنى منزلًا صغيراً وعمت شهرته. أصبح مقصد النساء والرجال للعلاج من الأوجاع والآلام وامتد الأمر للعقم والعلاج بالسحر والبخور والطبول.

قهقه خيري عالياً عند خاتمة القصة وآمنة تتابعه بفضول وتنبه. واصل بنبرة أكثر جدية بأن أبينو كان لا يغيب عن زيارة والدها مرة كل شهر. وقال لها:

– عندما تقدم به العمر كنت أرافقه في رحلته الشهرية وكان هذا سبب تقربي من عمى خليل

تبدلت لهجته صاخبة مرحة ناظراً إلى صليحة قائلاً:

– لقد استغل عمى وعمتي الفرصة وابتلوني بهذه المرأة

انهالت عليه صليحة ضرباً وهو يضحك ملئ فيه. ويخاطب آمنة بلغة تعلمها من أبينو فتعالت ضحكاتها فزادته صليحة ضرباً. قالت له آمنة ضاحكة:

– لا تكذب لقد أعطيتك لها أنا هل نسيت

****

تسللت آمنة إلى بيت أبينو فلم يهتم بقدومها مهتماً بترتيب بذور صغيرة بحذر على ظهر صندوق خشبي منحوت أمامه. هيكله بدأ لها أكثر قصراً وجسده نحيل أقرب للهزال وشعره أبيض بالكاد ينبت على رأسه كأنه حبات من الذرة المتفرقة. يظهر جلد رأسه أقل سواداً من جسده. لم تستطع آمنة الصبر فخاطبته بلغته بكلمات منظومة أقرب من الشعر تعلمتها منه. فزع وسقطت الحبوب والصندوق من يده. هرول إليها يحتضنها وهو يبكي وقد ضاع منه صوته وهو يحاول أن يناديها باسمها. بكت آمنة بين يديه حتى هدأت وأخذت تهدئه هو. ولكنه واصل البكاء وقال كأنه يقول لها خبراً:

– لقد مات خليل يا آمنة وتركني وحدي

بدأ يحدثها بلغته فأوقفته بيدها متحسرة تخبره بأنها نسيت الكثير منها طيلة هذه السنين. عادت له الحياة ووعدها بحماس أن يعلمها لها ثانية.

****

عادت آمنة وهي في شوق لعمران بعد أن مكثت عدة أيام مع أبينو الذي روت له كثيراً من قصصها حزينها ومفرحها منذ أن افترقا. قابلها الصبي متذمراً من القرية ويحن للعودة إلى المدينة. زجرته غاضبة قائلة وهي تشوح يدها في وجهه بغضب:

ـ يجب أن تحب أرضك فمن ترك أرضه هلك يجب أن تفهم ذلك جيداً.

نظر عثمان إليها مشفقاً ولكنه تعدى الأمر يسألها عن أحوال أبينو.

لم تيأس آمنة من غرس حب الأرض في قلب الصبي عمران. رافقته لكل مراتع صباها التي جالت فيها مع عمران وعثمان. كثيراً ما تنفر الدمعة من عينيها وهي تروى له عن واقعة أو مكان. بدأ الصبي ينصهر مع القرية ويتمتع بمداخلها ولكن لم يخبُ بريق المدينة في ذاكرته الصغيرة. شعور فقد الأمان الذي عقب الأحداث الأخيرة في المدينة ربطه شيئاً فشيئاً مع القرية وقد لفه الأمان وقد خرج من حصار الحزن الذي كان يلف المنزل. رافق آمنة في جولة في الحقول رغم إصرار صليحة عليها أن تتركه يتعلم أن يذهب وحده. وحقيقة كانت صليحة قلقة على آمنة التي أصبحت تصاب بالإرهاق لأقل مجهود تقوم به. كانت صامدة كعادتها وتحاول ألا تقلق من هم حولها. ذهبت مع الصبي مطمئنة صليحة على حالها. ترك عمران آمنة تحت بقايا شجرة الهجليج المتيبسة التي اختارتها ملاذا ترتاح فيه وتوغل هو في الحقول.

أسندت آمنة ظهرها على جزع الشجرة وجالت بنظرها على الحقل كأنها تراه لأول مره. تراءى لها النخيل شامخاً ويتمايل مع الهواء كأنه يلوح لها والنهر يبرق عن بعد بألوان زاهية والصحراء أمامها صارت كالذهب المنصهر. فجأة فارقت الطيور الأشجار وطارت عالياً مكونة سرب منمق وهي تصدح كأنها تنادى باسمها. تابعتها حتى غابت في الشمس. امتلأت عيناها بضوء النهار وداهمها نعاس شديد فأسندت رأسها على جزع الشجرة وراحت في لحظات نوم عميق. أفاقت منه فجأة وجدت الحقول قد تبدلت واخضرت شجرة الهجليج وغمرتها بظلها والطيور

عادت جماعات فوق أشجار النخيل التي امتدت على مد البصر مبتلعة الصحراء. حانت منها التفاتة فوجدت عمران يجلس جوارها مبتسماً بنفس ملابسه التي أنتقتها له يوم السفر. قبل أن تفوق من دهشتها أشار لها بيده فتابعت إيماءها رأت والدتها مِسكة قادمة إليها فاردة ذراعيها وحولها إعصار يكاد يقتلعها. هبت إليها صارخة بصوت ضائع وارتمت في أحضانها وغابت فيها.

❊ ❊ ❊

(38)

كان عثمان وحده في ثباته الكامل يوم دفن آمنة. أرسل في طلب أبينو ليحضر الدفن الذي بكى طويلاً على قبرها وترنم بلغته التي لم يتحدث بها منذ زمن طويل حتى الساعات الأخيرة من الليل. انصرف الجميع إلا عثمان جلس بعيداً حتى أحس أن أبينو قد فرغ من أوراده تقدم منه وقاده إلى المنزل.

فقد عثمان كل انتمائه وأحس بضياع وغربة وظل صامتاُ طيلة أيام العزاء. تطفر الدموع من عينيه دون نحيب وهو يحس أن آمنة قد تخلت عنه في أحلك أيامه. يرقب الجموع ويُخيل له في كل لحظة خروجها من بينهم ويتراءى له أحياناً أنه يسمع ضحكتها المجلجلة فيتململ في جلسته وتضيع الأصوات من حوله وتصير كأنها صدى آت من واد سحيق. يتصنع الابتسام في مصافحة المعزيين والدموع لا تكف من القفز من عينيه. يحرص باللحاق بها ويظل شاربه مبلل بها. حرص على تواجد

أبينو في مجلسه كآخر الحقيقة في فجيعته. يهب واقفاً لرؤيته ليحاصره بالقدوم إليه. حين حانت لحظات الفراق طلب من خيري أن يرافقه إلى منزله في قريته بنفسه.

****

اعتكف عثمان في غرفة خليل وهي المكان الوحيد الذي لا تحاصره فيه ذكرياته وفى كل ركن في المنزل كان يسمع دبيب وضجيج عمران وآمنه والطفلتين وصوت أمه تهمهم بالغناء يملأ المكان. رافقه عمران في غرفته بإصرار منه كأنه يفي بوصية أودعتها له آمنة. كان الصبي شغوفاً بالبحث والنبش في أغراض جده خليل. لم يهتم عثمان وهو يعيد كل شيء إلى مكانه. يحاصره بأسئلة عن جده ويجيب عثمان مقضباً بم يرضى الصبي. بانت الدهشة في عيني عمران وهو يتوصل إلى الخنجر داخل عصا الأبنوس. صارت العصاة هاجسه ويقضى أوقات طويلة في تنظيفها وتلميعها.

شعر عثمان عدم تواؤم سالم مع القرية وإن لم يبدِ تزمرًا أو ضجرًا. اختلى به وفاتحه برغبته القديمة في زواجه من طهره وحرص على ترك مساحة كبيرة له في الخيار. أطرق سالم وقد تفتحت فيه مسام حبه القديم ورد على عثمان بهم ثقيل:

ـ يجب ترك الخيار كاملاً لها فحجم حزنها فوق احتمالها

عادت طهره مع سالم إلى المدينة ولم تمانع رغبة أبيها في بقاء عمران وخليل معه حتى يشتد ساعدهما ويكون سالم قد أفلح في تدبر أعماله

التي انهارت في الآونة الأخيرة. كان فراقا حارا على قلوب الجميع خاصة خليل الذي كان يتوق إلى العودة إلى المدينة.

زادت محاصرة صليحة العفوية لخليل لتزويجه من ابنتها إرادية. رقب عثمان عدم رغبة خليل في الزواج ومجاهدة عدم إظهار ذلك. لزم الصمت لخضوعه عندما طلب منه خليل تزويجه من إرادية. زهرة كانت عكس عثمان قد تصالحت تماماً مع حياتها الجديدة ولمست أمان وانتماء كان ضائعاً منها طوال حياتها. مرافقة صليحة بعفويتها المنفرطة وجدت فيها خير جليس وأنيس. رغم فرق العمر بينهما كانت قريبة منها وفاضت سعادتها لزواج ابنها من إرادية.

أنغمس خليل مع خيري في أسفاره نحو الشمال ورافقهم عمران في بعض أسفارهم داخل الحدود في ترويج بضاعة الشمال بين القرى والمناطق المتاخمة لقريتهم. عمران جل وقته كان مع صليحة في المزارع وفى المتجر الذي أصبح موسمياً يعمل بعودة خليل من الشمال.

استقل خليل بأعماله عن خيري وكثرت أسفاره إلى الشمال وطالت فترات غيابه. اهتم عثمان بإرادية التي كانت في خدمته بتفان ولحظ انطوائها بدون تذمر أو ضجر فتذكر انطواء هنومة. اختلى بخليل واقترح عليه ربط أعماله بالمدينة وانتقال إرادية وعمران ليلحقا سالم وطهرة. عقل خليل ذلك وعاد له حنينه القديم إلى المدينة رغم عشقه الجديد للشمال.

عاد عمران إلى المدينة بقلب خافق كأنها مغامرة جديدة وقد اعتاد حياة القرية ورافق خيري كثيراً في تجواله بين القرى. اعتاد الأسفار وتجانس مع

وداعة الريف وأمان التآلف بين أهله. طهره أحست بأمان بعودة عمران وأغرمت بعنفوانه ورزانته ووجدت فيه الكثير من والدها. شبح سلمان كان لا يزال يطارها في منامها غير متيقنة وتأتيها كوابيس كثيرة بعودته.

تنازعت عمران شتى المشاعر ولكن وسرعان ما عادت له ألفه المدينة. اعتاد العمل مع سالم وخبر مداخلها وخباياها. ولم ينسَ تلك المرأة ويتذكرها كلما يمر بمكان لقاءاتهما التي ربما تعمد المرور بها. كان عمله لصيقاً بالشرطة وتوريد الحبوب لحوانيت مدعومة تخصهم في مراكز تجمعاتهم. نمت بينه وبين حديثي منتسبي الشرطة صداقات تعدت خارج ميادين العمل وكانوا يقضون ليالي سمر ساهرة في أطراف المدينة.

****

أنجبت طهره من سالم طفلتان وتعيش في عزلتها. اعتادت غياب سالم وعمران وتهب لخدمتها عند عودتهما. في خلوة لها مع سالم أسر لها بقلقة على عمران من رفقة أصدقائه في الشرطة ولكن تدارك نقل الكدر إليها بتأكيد ثقته فيه حسن تقييمه للأمور. ابتسمت طهره فتلك هي اللحظات التي تقرب وجدانها منه وهو يطوقها بالأمان. حثها بنظراته طالباً التوضيح دون الاعتراض على بسمتها. صمتت طهره قليلاً وقد كانت لا تستمع جيداً لحديث سالم ولكنها تتأمل الوصايا المبكرة فيه للجميع وحبه لهم ناكراً لذاته ولم تكن غافلة عن حبه القديم لها الذي لم يحاول محاصرتها به. ردت بنفس الابتسامة:

ـ عمران لديه رغبة بالانضمام بالشرطة وطلب منى الحصول على موافقتك

لم يكن سالم غافلا عن عمران ولكن تعود أن يعامله بندية ولا يقحم نفسه في أسراره. شجعه في رغبته وإن لم تكن دواخله قد تقبلت الفكرة وقد صار يعتمد عليه كثيراً في أعماله.

❊ ❊ ❊

(39)

لم تعلم هنومة بعودة سالم وطهرة إلى المدينة وقد صارت تعاقر الخمر صباحا ومساء وتركت زمامها تماماً لبحرية، مشهد آمنة في لحظات الفراق لا يفارقها وهي تهرول مجهدة تنادى باسمها. صارت بحرية عشيقة لهلال والآمرة والناهية في المنزل. عرفت منه كل أسرار المنزل وأين تخفى هنومة مالها.

تآلفت بحرية مع أحد التجار الذين يترددون على المكان وأغدق عليا فهجرت هلال ومنحته غرفة متهالكة من الحصير في ركن قصي من المنزل وحازت على غرفته وحدها لاستقبال عشيقها. توسعت في أعمالها معه وأصبحت من كبرى تجار المخدرات في المدينة. أعادت بناء المنزل وأضافت غرفا محصنة لحفظ المخدرات. توقفت عن تجارة البغاء وحصرته على تكريم موردي المخدرات من خارج المدينة. انتقل عشيقها ليسكن معها ولكنها احتفظت لنفسها بالزعامة. ضجر عشيقها من

وجود هنومة ولكنها رفضت أن يتعرض لها فقط نقلتها إلى غرفة هلال وحازت على غرفتها. كانت تضحك كثيرا عندما تشرع هنومة ليلاً تتحدث وحدها بأقبح الألفاظ وهي مخمورة وهي لا تعلم أنها تخاطب تام النفايل التي ترقد تحت مخدعها.

هلال أصبح متذمراً وساخطاً وقد تقدم به العمر. يقبع صباحاً على الأرض صامتاً أمام غرفة بحرية أحياناً حتى منتصف النهار تلفحه الشمس حتى تخرج وترمى له أمامه بعض النقود. يأخذها متذمراً ويغادر الدار ويعود آخر الليل مخمور يترنح حتى يصل غرفته أحياناً في صخب وغناء وأحيانا يصب لعناته تارة على تام النفايل وأخرى على هنومة وبحرية.

****

كثرت المشاحنات وطالها العراك بين بحرية وعشيقها فهجرها بعد أن سرق منها كل مالها وغادر المدينة. جن جنونها وبحثت عنه في كل الأماكن. يائسة ذهبت إلى مخفر الشرطة وهي لا تدري عن ماذا تبحث وهي لا يربطها مع عشيقها أي صلة ولا تعرف حتى اسمه كاملاً. دارت بها كل الأفكار الممكنة وكادت أن تنسحب من صف المنتظرين لمقابلة رجل الشرطة. تقدم الصفوف رجل أنيق معتذراً وتعانق مع الشرطي بشوق المسافر وحميمية القربى. وعده بالانتظار وأنصرف معتذراً لجمع المنتظرين. تلاقت عيناه مع بحرية فابتسم لها بألفه من يعرفها ولم يتعرف عليها. تملكت ملامحه كل كيانها ودارت داخل ذاكرتها كأنها تعتصرها

وعندما تجمعت الصورة في كيانها كانت أمام الشرطي وأفاقت بتساؤله عن غايتها. تفحصت ملامحه فوجدت فيه ما يربطه بخليل فقالت له مشيرة بيدها خلفها:

ـ هذا الرجل الذي صافحك هل هو من أقربائك؟

انتبه عمران لاهتمامها وداعبه حسه بأن هناك اهتمام غريب في عينيها فرد عليها بتفحص واهتمام:

ـ إنه عمى هل تعرفينه؟

تجاهلت تساؤله وبادرته:

ـ ما اسمك؟

رد مشجعاً قاطباً حاجبه ليعرف المزيد

ـ عمران

انسحبت بحرية من أمامه تسرق خطواتها ولم تعبأ بصوته يلاحقها

****

تدهورت بحرية بعد اختفاء رفيقها وصارت أكثر قرباً من هنومة تشاطرها شرب الخمر. أسرت لهنومة وهي مخمورة بعزمها بيع المنزل لكي تبدأ مرة أخرى. صفعتها هنومة على وجهها بقسوة فزعت لها باندهاش وهلع وسلبتها الصفعة كل إرادتها. لم تغضب وكانت تملؤها دائماً عاطفة نحو هنومة مثل والدتها منذ أن التقطتها وهي تتسول في الطرقات. بعد فترة صمت تمكنت من ثقتها وكأنها تعيد الصفعة لها سألتها:

ـ هل تعرفين شخصاً يدعى عمران؟

أفاقت هنومة بانزعاج وبجنون تعلقت بتلابيبها والشر يتطاير من عينيها. فزعت بحرية وفي هلع توسلت لها أن تتركها وستحكى لها كل شيء. وهي تحكى تفاصيل مقابلتها لعمران قفزت إلى هنومة كل الذكريات وداعبها وجه الطفل عمران وهو يثرثر في مقابلاتها في سوق المدينة. اطمأنت لحديث بحرية وتحولت عنها بجسدها المترهل بتثاقل مبدية عدم الرغبة في سماع ما تبقى من شكوى بحرية عن حالها وحسرتها على مصابها.

صباح اليوم التالي أفاقت بحرية بطرق رتيب بدون انقطاع على باب غرفتها. اندهشت عندما وجدت هنومة أمامها وكانت تظن أنها لا تقوى على الحراك. رفضت هنومة مساعدتها ودخلت بثبات وتوجهت إلى ركن الغرفة وأزاحت بصعوبة صندوقا عتيقا ثقيلا. جلست على الأرض وشرعت في تأنى وصبر تحفر الأرض الصلبة بيدها. باهتمام تناولت بحرية مدية من تحت وسادة فراشها ومدتها إليها. ظلت هنومة بتمهل تحفر بالمدية وتزيل التراب بيدها الأخرى حتى ارتطمت المدية بسطح صلب. أزاحت هنومة التراب فظهر سطح صندوق خشبي. تنحت لبحرية التي جلست ملتصقة بها بترقب. احتلت مكانها وأخذت تحفر بالمدية وبأصابعها بغير تمهل حتى أخرجت الصندوق. حين فتحته شهقت عالياً وهي ترى الذهب والمصوغات المكدسة داخله. تلفتت وكلها تساؤل فوجدت هنومة قد غادرت. لحقت بها تعانق الصندوق كأنها تخاف ضياعه. لم تهتم بها هنومة ولم تلتفت للهفتها وقالت لها بهدوء:

ـ أريد أن أعرف كل شيء عن عمران

أردفت كأنها تحمية منها:

ـ إياك من الاقتراب منه تلمسي أخباره بعيداً عنه

ابتسمت بحرية وهي تتذكر اشتعال هنومة في ليلتها الصاخبة مع خليل وهلال.

عادت مرتبكة مساءً بتخوف عدم تصديق هنومة لها. قالت لها بصدق:

ـ لم يعد عمران يعمل بالمخفر. علمت من آخرين قد تم إيفاده للعمل في جنوب البلاد

لم تعرف هنومة ما اعتراها هل كان حزنا أو ارتياحا فهي لا تأتمن بحرية عليه . بذكرى جنوب البلاد طافت بذاكرتها قهقهة أبينو وهو يداعب والدها.

❊ ❊ ❊

(40)

عمران في بداية التحاقه بالشرطة كان جل يومه في ميادين العمل التي نبغ فيها وقابلت هواه. مساء يشاطر زملاءه السهر والسمر في حارة الغجر. اتخذ له عشيقة غجرية يخلد إليها في عطلته نهاراً ولا يقضى ليلته معها ويحرص على تناول وجبته المسائية مع سالم ووالدته وشقيقتاه. لم تكن تعنى الغجرية عنده الكثير ولم يهتم كثيرا عندما اختفت وهو لا يعلم أنها كانت تحمل منه جنيناً في أحشائها.

جنوب البلاد كان نقطة تحول اهتز لها كثيراً وهو يرى أهل البلاد العراة وعاداتهم الغريبة. تذكر أبينو الذي بلغه خبر موته حديثاً. تذكره جاثم على قبر جدته آمنة وهو يقرأ في أوراده وتذكره وهو يأتي غاضبا يعنفه لعدم زيارته عندما يكون برفقة خيري في زيارة قريته لبعض الأعمال. حضر بعض جلساته السحرية بالبخور وهو يدق طبله الصغير العتيق. لم يهتم عمران بذلك في حينها ولكنه اهتم بجلسات الطبول والسحر كثيراً

في مدة وجوده في جنوب البلاد. اعتاد سريعاً عليهم وتعلم بعض من لغتهم المتداولة محلياً وهي خليط من عدة لهجات محلية يتخللها كثيراً لغة أهل الشمال.

اهتم كثيراً بفتاة شرسة كانت تجوب كثيراً مخيمات الشرطة تبيع فواكه وأشياء صغيرة. كان يهرع الجنود للشراء منها رغم توفر كل ما تبيعه في الأسواق. يعمدون لمغازلتها مشاكسة وبعضهم يحاول لمس صدرها العاري الذي يقف منتصباً لا رخو فيه. كانت تزجرهم بعنف وأحياناً تعمد ضربهم بالحجارة وهم يتضاحكون ولكن لا تكف عن العودة لأعمالها بينهم. اهتمت بعمران الذي كان يكتفى بمراقبتها عن بعد فكانت تسعى له ويبتاع منها ما تخصه به ويدفع لها ما تطلبه دون جدال.

أصيب عمران بالحمى ولزم فراشه عدة أيام. تفقدته الفتاة وعندما علمت بمرضه أصبحت تعوده نهاراً مع والدتها التي تسقيه دواء مر كالعلقم تحلبه من إحدى الأشجار داخل المعسكر. وتدلك جسمه بدهن سميك تأتى به معها. تذهب المرأة وتبقى معه الفتاة داخل المخيم تخدمه ولا تتركه حتى يأتي رفاقه. نالت الفتاة احترام الجميع باهتمامها بعمران وتبدلت معاملتهم لها وعمدوا أن يعتمدوا عليها في كل حاجياتهم. أصبح تواجدها الدائم في المخيم أمر معتاد وتوغلت بتوريد طلبات الجميع داخل ثكناتهم. عندما تماثل عمران للشفاء طلب منها أن تأخذه لأمها ليشكرها فرحت لذلك كثيراً وقادته الى فريقها خارج المدينة. راقبه الجميع صامتين وهو يسير برفقتها وقد كان أول الغرباء الذين يصلون

إليهم. ولج قطيتها البرحة المصنوعة من القش وفروع البامبو. وجد أمها في الداخل تجلس على الأرض تتمدد قدميها أمامها. لم تحفل بالترحيب به فقط تناولت شراب بجانبها ومدته إليه عندما جلس بجانبها. ابتسمت وهو يحاول أن يقول لها كلمات شكر تعلمها من أبينو. قهقهت كايا وهي تربت على كتفه موضحة له أن ما يقوله لغة أخرى لا تفهمها أمها وأعادت له ما قاله بصورته الصحيحة.

اعتادت القرية تردده ولم يهتم الناس بوجوده وأصبح يقضى جل عطلاته برفقتها في القرية ولا تنقطع عن زياراتها له في غرفته بعد أن تفرغ من توزيع تجارتها في المخيم. اعتادت أن تقاسمه طعامه وقبلت مداعباته ولكنها منعته من أن يتمادى معها وكان قد ضمر أن ينالها ولكنه تحلى بالصبر ولم يغب ذلك عنها. غابت كايا عن المخيم فجأة فصار غيابها حديث الجميع. انزعج عمران وانتظر عطلته وذهب إلى قريتها. شعر بأنظار أهل القرية له غير ما تعودها. وصل قطيتها ودلف كعادته فوجد كايا تتوسط عدد من الفتيات وشعرها حليق تماماً. وجم الجميع لرؤيته ولاح حزن عميق في وجه كايا. شعر عمران بأن وجوده عير مستحب من الوجوم الذي عم المكان فخرج دون أن يؤدى التحية. تبعته إحدى الفتيات وعندما أصبح خارج القطية لحقت به وأخبرته بأن كايا طلبها رجل من قرية أخرى للزواج وستسافر غداً. غادر بقلب منقبض ولم يعد مرة أخرى إلى القرية.

قضى عمران زمن في جنوب البلاد متنقلاً واعتاد الحياة وتوائم معها.

بلغه أن سالم قد أصيب بمرض الحمى الشوكية وطريح الفراش. قابل رئيسه وشرح له ظروفه وأنه الآن العائل الوحيد لأمه وشقيقتيه. بعد لأي حصل على عطلة للسفر ووعده رئيسه أن يكمل إجراءات نقله أثناء عطلته.

وصل عمران إلى المدينة وأحس بغربة كبيرة وتوجس وهو يدلف إلى داره. هللت طهره لرؤيته وبكت على كتفه فلقد عانت كثيراً في مرض سالم. حكت له عن زملائه وملازمتهم لها في محنتها. كان سالم قد تعافى من الحمى ولكن ارتج دماغه وفقد ذاكرته تماماً وأصيب بشرود تام وعندما تعود له ذاكرته نادراً يتحدث عن أسماء وأحداث قديمة كأنها واقع حاضر. ينقبض قلب طهره وتحاول إعادته لحاضره ولكنها تلتزم صمتا تاما خاصة عندما يتحدث معها كزوجة سلمان.

❊ ❊ ❊

(41)

صارت بحرية أمراه ناضجة أنيقة ترتدى أفخر الثياب تعيش حياة مزدوجة. صاحبة أملاك في المجتمع وتاجرة مخدرات في منزلها القديم. صارت من الملاك اقتنت عدة منازل وأصبح لها حانوتين أحدهما لصناعة الجلود والأحذية وآخر لمصوغات الذهب. انتقلت سراً من هنومة في منزل آخر ولكنها أغلب أوقاتها تقضى الليل معها وتنام في غرفتها بجانبها. أتت بفتاة تعتنى بها ولكنها أهملت تماماً هلال ولولا هنومة لرمت به في الطرقات.

كسبت ود كبير من التجار وأعيان المدينة وأدارت سهرات عشق وخمر ولم تبخل بجسدها في تصريف أعمالها. اصطفت شابا مفتول العضلات في مقتبل العمر يعمل لديها في حانوت الجلود. اتخذته خليلاً تقابله سراً في منزلها مع هنومة. في غيابها نمت علاقة مودة بين عشيقها وبين هلال الذي أصبح هرم وتضاءل حجمه وأصبح كقزم مسخ. ذلل له هلال

جلسات ماجنة مع وصيفة هنومة الجديدة التي اختارتها بحرية لها بعناية. كان الشاب يجزل عليه العطايا فعرف منه كل شيء عن تاريخ المنزل وعن سيرة بحرية. ليلاً وهلال يتسلل مخموراً إلى المنزل رأى الشاب مغادراً مسرعاً يحمل حقيبة جلدية كبيرة. وجد غرفة بحرية بابها موارب فدلف فوجدها مسجيه على الأرض تسبح في دمائها وتئن بضعف. جلس بجوارها ينظر في وجهها بابتسامة شامتة يرقبها تغادر الحياة ببطء وهو جاسم على ركبتيه دس يده تحت الفراش وأخرج المدية التي يعرف مكانها وبِغل شرع في تمزيق وجهها. أخذ يرقب جسدها حتى توقف ارتجافه تماماً. وضع المدية بجانبها ولم يذهب إلى غرفته بل تسلل إلى غرفة هنومة وتوسد الأرض بجانب فراشها وغط في النوم.

****

أخذت هنومة وهي جالسة على الأرض تتابع بعينيها بإعجاب الحركة الدؤوبة للشرطي كأن الأمر لا يعنيها. اهتمت ببذته الأنيقة وخطوته الواثقة وهو يتجول في المكان متفحصاً كل شيء. أمر بجمع محتويات المنزل وجلس يتفحص جسد القتيلة المسجى على الأرض باهتمام. بعناية عمل على تغطيتها بقطعة قماش أتى بها بنفسه من على المخدع بجانبها. وقف أخيراً على رأسها ونظر للرجل العجوز الذي تكور على الأرض شبه نائم بجانبها بدون اكتراث متوسدا يديه وقال لها:

– هل تستطيعين القيام يا جدتي

ارتعش جسدها كله لكلمة جدتي. نظرت إليه ودموعها التي تحجرت سنين طوال تلألأت في عينيها وقالت له:

– أستطيع الوقوف إذا ساعدتني يا بنى.

سندها بيديه حتى نهضت بتثاقل. سندت نفسها على كتفه وهمست في أذنه:

– اشتقت إليك كثيراً يا عمران خذني معك وجب عليك أن تدفنني

فغر عمران فاه وسألها من هي ومن تكون ولكنها تبلدت تماماً. قهقه القزم النائم على الأرض عالياً بطريقة مبتذلة قائلاً:

– إنها تفيق أحياناً وقد حظيت بإحداها.

نظرت إليه ووصفته بالبؤس وعادت لعمران تسأله عن سالم إن كان على قيد الحياة. أومأ لها بالإيجاب وهو ما زال مذهولا فقالت له:

– كنت خادمه لجدك الكبير خليل خذني إلى سالم فهو أحق بدفني.

وسط اندهاشه تفتحت ذاكرته وتعرف عليها. لم تفارقه ذكراها منذ طفولته وقد بحث عنها كثيراً بعد واقعة انتزاع خليل له من أمامها. وبعد عودته للمدينة كان يمنى نفسه أن يراها وهو يتسكع في الأسواق. ولكن سؤالها عن سالم أدخل الشك في قلبه. توجس فيها سرا كبيرا لن يحل طلاسمه سوى أمه طهره وهي قليلة الحديث. قرر تأجيل البحث عنها حين يفرغ من مهمته. نادى أحد الجنود وأمره بترحيل المرأة برفق والاعتناء بها حتى يعود. تركها وذهب حيث كان يرقد جثمان القتيلة بحرية صاحبة المنزل ممداً على الأرض بعد أن تلقت طعنتين على صدرها وانطمست معالم وجهها.

****

سالم يفوق نادراً ويتحدث قليلاً عن زمن سحيق. جل يومه على فراشه لا يتعرف على الذين حوله. طهره تعتنى به تماماً وترد على تساؤلاته فقط قائلة:

– لقد ذهبوا جميعاً يا سالم .. لم يتبق إلا أنا وأنت

دخل عمران إلى المنزل ومعه زميلان من الشرطة يسندون هنومة. وقفت طهرة فاغرة فاها وقد عرفتها فور رؤيتها بكت طويلاً على صدرها حتى كادت أن تفقد وعيها. كل ما قالته وهنومة تربت على رأسها:

– كم كانت أمي تتوق أن تراك لكنها ماتت دون أن تراك

تأكد عمران أنها جدته خالة أمه الغائبة التي كان يعلم إن غيابها سر البؤس الذي أحاط طفولته. تذكر كيف كان يأنس لها في طفولته وهو لا يعرف أنها جدته. حزم أمره ألا يبحث في سرها وهي من أسرار شقاء والدته الدائمة التي لم يرها مسرورة في حياته. زواجها من سالم لم يغير من حياتها رغم إنجابها منه بنتين. كان زواجها قرار اتخذه جده عثمان الذي قرر عودتهم للمدينة لمباشرة أعمال جده حميدان ومنذ ذلك الزمن لم ير جده عثمان حتى وفاته. زواج خاله خليل بنت صليحة صار الرابط الوحيد له بذكريات تلك البلاد بعد رحيل الجميع.

جلست هنومة عند قدمي سالم تدلكهما وهو غائب عنها ينظر في البعيد. رنت إليه قائلة:

– كم تشبه أبى يا سالم. حميدان لم يكن يشبهه مثلك.

تفاجأ عمران بهنومة على باب غرفته. وضع الخنجر الذي بيده جانباً

الذي كان منهمك في تنظيفه وهب يساعدها بالدخول. أمسك بها حتى أجلسها بعناية وعاد إلى مجلسه وأعاد الخنجر داخل عصا الأبنوس وعلقه على الحائط. كانت هنومة تراقبه برفق وقد تعرفت على عصا أبيها. لحظ عمران ذلك فاستعاد العصا ومدها إليها. لم تأخذها منه ونظرت له برضاء مبتسمة. دست يدها بين طيات ملابسها واستغرقت وقت ليس بالقصير في بحث متمهل وهو يرقبها بصمت. بعناء أخرجت قطعة رثة من القماش تلتف على جسم صلب كانت ملتصقة بملابسها ففصلتها انتزاعاً. مدتها له وهي تشجعه بنظراتها لأخذها قائلة:

- إنه يخص والدك

أخذها باهتمام وأخذ يفك القماش بحرص عاقداً بين حاجبيه. أخذت هنومة تتأمله وهو في جديته وعبوس وجهه صورة طبق الأصل من عثمان. اتسعت عيناه وانفرط حاجباه عندما تحرر الخنجر كاملاً بين يديه. في تلك اللحظة دخلت طهره فشهقت عالياً وسقطت الأواني التي تحملها بالطعام لابنها. هب واقفاً والخنجر في يده وقبل أن يصل لأمه نظرت إلى هنومة برعب وغادرت الغرفة مسرعة. تبعها عمران وغاب قليلاً وعاد لهنومة وجلس في مكانه يقلّب الخنجر وقد تأكد دون أن تخبره طهره بأنه يخص أبيه وبه من الأسرار الكثير.

تفادت طهره خالتها زمن طويل ولم تخاطبها. أتت لسالم لكي تطعمه وهنومة جالسة عند قدميه تدلكهما وهي منهمكة في إطعام سالم قالت لها هنومة:

- لقد أوصاني أن أعطيه لابنه

لم ترد طهرة ونظرت بتساؤل يحثها أن تقول المزيد وقلبها منقبض بشتى الأحاسيس. قالت هنومة وهي تنهى الحديث:

- لم أره منذ يومها لكنه أرسله لي مع أحدهم

عادت طهره لإطعام سالم بارتياح وإن لم تهضم القصة في أعماقها. لم يكن سلمان شخصا له عاطفة ليهتم بابنه. وتذكر جيداً كيف صفعها عندما وجدها يوماً تمسك الخنجر في فضول. انتزعه منها وحذرها مهدداً لا أحد له علم به. كانت تخبئ معاملته عن والديها وهى تعرف صرامة أبيها وسرعة غضبه. غياب سلمان كان كابوسا جعلها في خوف دائم من عودته. رؤية الخنجر بعد كل هذه السنين أعاد لها بعض توازنها بأن سلمان لن يعود.

صار عمران يعود من عمله تواً إلى الخنجر ويعكف ساعات بدراية في تنظيفه وقد اعتلاه الصدأ وتهتكت أطراف مقبضه وفقد بعض قطع الزجاج الملون. جعله في أحسن حال وعاد له بعض البريق بعد أن سنن أطرافه فأصبح راضيا عنه وخبأه جيداً.

❊ ❊ ❊

(42)

عادت هانم إحدى ابنتي طهره اللتان كانتا قد فارقتا المدينة. الصغرى آمنة غادرت إلى غرب البلاد مع زوجها وهانم كانت في الشرق. سعدت هنومة كثيراً بقدوم هانم وعندما عرفت من طهره أن سالم هو من اختار أسمها. أحست بغصة عندما تذكرت كيف عاملته في آخر لقاء لهما.

هانم كانت فاتحة اللون فارعة الطول مثل جدها حميدان وشعرها ناعم طويل وكلها حيوية وجرأة. تحمل بعض الملامح من حميدان لحظتها هنومة. وما لا يدريه أحد أن هانم كانت نسخة أخرى من حسنية كأنها ابتعثت فيها.

دهشت هانم عندما عرفت أن هنومة جدتها ولم تسمع بها يوماً. ولم تفلح رغم إلحاحها أن تعرف قصتها من أمها ولم يكن لها أمل أن تعرفها من هنومة الصامتة تماماً وتغمرها فقط بنظراتها وابتسامتها الزابلة. لاحظت أمها ليلاً تدس لها كوبا بجانبها، وعندما اكتشفت أنه خمر يوفره

لها عمران قهقهت عالياً ورأت أن وراء جدتها قصص كالخرافة. نمت بينها وبين هنومة مودة وصارت ملتصقة بها طوال يومها. تضع طفلتها في حجر هنومة وتجلس قبالتهما تطعم كلاهما في فمه. تركت هنومة قدمي سالم ولكن لم تبارح مجلسها بجواره ونسيت كل من في المنزل وتعلق قلبها بهانم. طهره أراحها الود بينهما وكثيراً ما ابتسمت وهي على البعد وأحياناً تشارك هانم بعض الحديث تجاوبها عما لا تجيبه بها هنومة في صمتها.

****

تواترت الأخبار متوجسة من تلبد الأجواء الكونية بنذير حرب قادمة. أعداد الجيوش تطلب اعتماد كثيف على الشرطة وفى حركة تنقلات مكثفة تم استدعاء عمران للسفر إلى جنوب البلاد. تصادف نقل زوج آمنة إلى المدينة في هذه الهوجة من الترتيبات. تنفس عمران الصعداء وأوكل مختار على معاشه واستلام ريع حانوت الحبوب الذي أوكله لأحد أقرباء زوج هانم لإدارته منذ أن أقعد المرض سالم.

مختار من أعراب وسط البلاد. أهله من الرعاة الذين نزحوا من شمال البلاد. استقر بهم الحال في وسط البلاد والعمل بالزراعة التي هيئها لهم الحاكمين وتم توطينهم في قرى متواضعة بعد شق قنوات تتصل بالنهر. التحق مختار بالشرطة في مدينة أخرى قبل حضوره إلى المدينة. عند مرض سالم أوكله زملاء عمران كشرطي أقل رتبة بالاهتمام بعائلته وتوفير حاجياتهم. داوم التصاقه بالعائلة وأكثر من زياراته ليكون في خدمتهم خارج تكليفه وفى أوقات راحته وقد تعلق قلبه بآمنة. عمران لم يعرفه من

قبل وعندما حضر مختار ليرحب به ويتعرف عليه. لاحظ عمران الارتياح الذي قابله به أهل الدار ولم يغب عنه اهتمام آمنة صغرى شقيقاته به. بعد فترة قصيرة فاتح مختار عمران برغبته في الاقتران بشقيقته وفاجأه عمران باستشارة آمنة وطهرة أمامه. هربت آمنة خجلة وباركته طهره باطمئنان.

آمنة لم تكن منفتحة مثل هانم وتعلوها صرامة وتهتم بتوأمها ببعض الخشونة. تذكرت هنومة طيبة وصرامتها ولا سيما أرداف آمنة التي تشابهها في طريقة سيرها. ولكنها تشبه كثيراً جدتها آمنة خاصة إذا اعتلي وجهها بسمة أو تعبير اندهاشه. الذي لم تدريه هنومة بأن آمنة كانت تشبه والدتها مِسكة تماماً التي لم ترها.

كانت فرحة هنومة لا توصف بانضمام آمنة لهم ولكن مختار لم يرتح لصحبتها خاصة عندما كلفه عمران بتوفير حاجياتها الخاصة ولكنه لم يمانع ولم يبد سخطه باحترامه الجم لعمران.

❊ ❊ ❊

(43)

وصل عمران جنوب البلاد وتقلد عمل في مدينة أخرى غير التي كان بها من قبل. تذكر أبينو منذ أول يوم وهو يرى رجل مسن يجلس يرتاح تحت شجرة يشبهه كثيراً. لغة أهل البلاد أيضاً تقارب لهجته والناس ليسوا بانفتاح المدينة الأولى. سمع بأن القبائل حول المدينة تمردت على السلطات بقيادة سلاطينها. وشبح الحرب من الداخل والخارج بائن على الوجوه وعدم الاطمئنان هو الغالب. تقلد مهامه في نفس اليوم ومتاعه لا زال معه في مقر عمله. مساء ساعده أحد الجنود في حمل حقيبته الحديدية يدله إلى مقر سكنه. لم ينم ليلته وقد أغارت بعض القبائل على أطراف المدينة وتعالت الطلقات. في اليوم التالي لحظ أن الأحوال طبيعية وقد اعتاد الناس مثل هذه الغارات.

مساء عاد إلى المنزل وقد نال منه الإرهاق وهو لم يذق طعم النوم منذ يومين. انتبه أن باب سكنه ليس موصداً. دخل بتوجس وهو منتبه لأي خطر. وجد متاعه الذي تركه مهملا قد تم توضيبه في خزانة حديدية وسريره قد أُحسن ترتيبه وطعام أعد بعناية على الطاولة. قفز قلبه وهو

يتذكر كايا وقبل أن يفوق شعر بالباب يُفتح وشخص يدخل المنزل ويغلق خلفه الباب. تفاجأ عندما رأى كايا أمامه التي صرخت وسقطت أغراض من يدها. تجلجلت ضحكاتها وخاطبته مصافحة تلومه على إخافتها وتعيد حمل الأغراض على طاولة صغيرة. ظل صامتاً يستنط إليها في ثرثرتها كأنها فارقته بالأمس.

ظل يتابعها بنظراته وتحين لحظة صمت واستهل حديث بالسؤال عن والدتها. فهمت مراده فأخبرته بأن والدتها لا تزال في نفس القرية وأنها لم ترها منذ أن انفصلت عنها ولكن تصلها أخبارها. مات زوجها في صراع مع إحدى القبائل العربية الرعوية وتم إحراق قريتهم بالكامل وكثير من أبناء القرية صاروا مقاتلين منتشرين في الأدغال وانضموا للفصائل التي تناوئ الحكام الأجانب. هربت هي لعدة مدن واستقرت هنا حديثاً. رأته بالأمس وهو يغادر الباخرة وهي تعمل هناك في بيع الفواكه للقادمين. تتبعته عن بعد وظلت جل يومها تراقب مقر الحامية عن بعد وهم ممنوعين من الاقتراب. تتبعته ورفيقه حتى عرفت سكنه ولم تستطع أن تحضر ليلتها وتخفت في الأدغال إبان الهجوم وتبادل إطلاق النيران.

توقفت عن ثرثرتها الغير مرتبة كأنها تسترد أنفاسها. ظل عمران يستمع دون تعقيب لروايتها التى حكتها بتلقائية كاملة دون أن تتوقف عن الضحك أو الأكل. تعجب لقدرتها للتواؤم مع كل هذه الأحداث كأنها أحوال عادية. كأن خاطرته بلغتها طفرت منها دمعة قائلة:

ـ طفت مدن كثيرة أبحث عنك

****

وصلت حامية كبيرة من الجيش بعتاد ثقيل فاستقرت الحياة في المدينة وتم تأمينها من الخارج. ازدهرت الأسواق ودبت الحركة وامتلأت المدينة بالقادمين. تحصل عمران على سكن أوسع وشاطرته كايا حياته كزوجة تهتم بكل شئونه دون تذمر أو تطلب لنفسها شيئاً. لاحظ تبدل أحوالها وثقل حركتها فأشفق عليها وطلب منها مرافقته لطبيب الحامية. رفضت وهي تهون عليه بأن الأمر عادياً واضعة يدها على بطنها بدون اهتمام وهي تباشر أعمالها التي لا تنتهي. فغر فاه والتزم الصمت وقد فهم أنها تحمل جنيناً. كان يحمل همها واضطر كثيراً أن يعنفها ويأمرها بتقليل جهدها والخلود للراحة.

عندما حانت عودة عمران عانى كثيراً للحصول على تصريح لسفر كايا وطفله منها لحظر أهل تلك البلاد من السفر إلى شمال البلاد. استخرج شهادة زواج دون علمها فما كانت توافق بدون إتمام عادات قومها.

❊ ❊ ❊

(44)

قبل عامين من عودة عمران بلغه موت هنومة وقد تصادف وجود خليل بالمدينة الذي كان دائم السفر إلى القرية وبلاد الشمال. تحولت تجارته إلى الجمال ولكنه في طريقة يحملها بالتمور ولا يزال يحتفظ بتجارة الأواني والقماش في قرى شمال البلاد وفى المدينة.

قام خليل بدفن هنومة التي لم تتعرف عليه وقد رأته في آخر أيامها وقد تاهت تماماً. عندما عرف لاحقاُ من عمران أنها نفس المرأة بعد أن ذكره بالواقعة تبكم وهو يتذكرها وهي تعتدى عليه بالضرب. تفهم دوافعها وشعر بارتياح شديد في داخله بأنه دفنها بنفسه. أحجم عن إخبار عمران ما يعرفه عنها وشعر بأن سرها يجب أن يُدفن معها هو لا يعرف تفاصيل الأحداث ولكن يعلم أن والد عمران خلف اختفائها.

مختار لم يهضم وجود كايا وبهدوء انتقل إلى مسكن آخر. انفجر يوماً في آمنة وهو يحاول أن يحدها من الارتباط بعائلتها وفى غمرة غضبه عيرها

بجدتها هنومة. لم تتوانَ آمنة فغادرت إلى دار عمران. لم يحاول عمران أن يصلح بينهما بعد أن انفجرت آمنة تحكى بكل شيء وعن تاريخ معاملته الدونية لها. ومما جعل الطريق مسدود حضور مختار مخموراً ومحاولة التعدي على آمنة فتصدى له وراق زوج هانم وصفعه على وجهه ودفع به خارجاً فلاذ عمران بالصمت التام.

لم تفطن طهره لأحوال آمنة وكانت قد تلهت تماماً بأطفال عمران. تعودت سريعاً على كايا وكانت تضحكها تلقائيتها حتى تتدفق الدموع من عينيها. عادت لها حيوية أراحت عمران كثيراً وكان يحمل همها هي فقط عند عودته مع كايا. هانم كانت أسعد الجميع بعد أن عاد زوجها وراق الذي يكبرها كثيراً وكان متزوجا قبلها. كان لونه فاتح وأصوله من أهل الشمال مع خليط قبائل نازحة من أرض الشمال. رغم فارق العمر بينهما كانا متفقان ومنسجمان تماماً.

وراق رغم صرامته في العمل وكان رئيس عمران ومختار. متواضع في حياته العادية بشوش وقد استمدت منه هانم ثقتها بنفسها. حاربت للزواج منه وكان عمران تردد كثيراً لفارق العمر بينهما. رأته هانم بعد عودة عمران لمرض سالم وكان يحرص بمجاملة زملائه في مناسباتهم. أعجبت به وبكياسته وانبهرت بالاحترام والحفاوة به من عمران وزملائه وتأدبهم في وجوده. عندما أتى للمشاركة في عقد قران مختار من آمنة تحلقت حوله وحاصرته حتى مال إليها وكان منفصلاً من زوجته التي لم ينجب منها. أصبح يخلق الذرائع للتقرب من عمران وزيارته ليرى هانم.

لم يغب ذلك عن عمران وعّنف هانم كثيراً ولكنها كانت عنيدة وتتدلل عليه وقد كبرتا هي آمنة تحت رعايته كصديق أكثر منه شقيق وكان عمران يكن لهما عاطفة أبوية وكانتا فرحة حياته التي لفها غم منذ طفولته.

وراق أحب أطفال عمران ودائماً يتحلقون حوله وهو يداعبهم بكلمات بلغتهم وقد عاش زمناً في جنوب البلاد. والسر الذي لا يعرفه أحد أنه لديه طفل لم يجرؤ أن يحضره وأمه معه ولا يعلم عنهما شيئا مما زاد إكباره لعمران لفعله ما عجز عنه. وسط هذا كله أحست آمنة بالغربة ولازمت بيت عمران بطفليها حتى تم انفصالها الكامل عن زوجها.

❊ ❊ ❊

(45)

بإلحاح من خليل ترك عمران الشرطة وأوكله على أعماله في المدينة وهو دائم السفر. انتقلت آمنة بطفليها إلى بيت خليل الذي هو في الأصل بيت حميدان بعد زواجها من عبدو. عاشت في الجزء الذي كانت تعيش فيه حليمة في سابق الأيام وقد كان خليل قد أعاد بناء المنزل فأصبح كأنه منزلان داخل منزل واحد الولوج إليه من باب واحد. الجزء الأكبر عاشت فيه إرادية زوجته وابنها صالح.

إرادية امرأة هادئة تميل إلى العزلة وقليلة الاختلاط تعودت على غياب زوجها فكانت تعتمد على نفسها كثيراً وبعيدة عن الشكوى والتذمر. عبدو ابنها الآخر الذي يكبر صالح كان مرحا ويشبه كثيراً جده خيري وكان صالح ودودا ولكنه يشابه أمه في الهدوء وقليل الحركة متريثا في تعامله مع الآخرين. اعتمد عليه عمران كثيراً في إدارة الحوانيت ومعاملة الأسواق فأصبح له مكانة مرموقة بين التجار رغم صغر سنه. عبدو

أصبح اليد اليمنى لعمران في توسيع الأعمال وجاب القرى والمناطق المتاخمة للمدينة وخبر دروبها في زمن وجيز وكسب ود الجميع بمرحة ومزاجه الرائق. لم تكن إرادية مباركة ميل عبدو لآمنة ولكنها كانت معجبة برزانتها وانضباطها. لم تعارض زواجها وكانت سعيدة بانتقال آمنة للعيش معها واهتمت تماماً بطفليها.

رغم حزن طهره بعد موت سالم ارتاحت دواخلها وكانت منقبضة دائماً وهي تراه جالس لا حول ولا قوة له بعد عنفوانه ومواقفه الشهمة طوال معرفتها له قبل وبعد اقترانها به. بكت كثيراً عند وفاته وحرصت أن ترافقه حتى قبره رغم محاولة عمران على إثنائها. التفاف الأطفال حولها أعطاها حرية في قلبها وعاشت ود بينهم لم تعيشه مع أبنائها. أكبر الأطفال توأم آمنة عابد وساجد يليهما درية بنت هانم. أما أبناء عمران سلمان وشهبة كانوا أصغر الأطفال. لم تعش طهرة لترى بنت آمنة التي كانت في أحشائها عندما ماتت وأسمتها طهرة.

حزنت كايا بعمق لموت طهرة وكانت أقرب الجميع لقلبها. تطبعت بحياتها الجديدة وتخلت كثير من عاداتها في لبسها وتلقائيتها. لا تضيع لكنة بلادها رغم تمكنها من لغة أهل المدينة بطلاقة تامة. كانت لا تستطيع البقاء في مكان واحد وأصبحت ملاذ الجميع والاعتماد عليها كاملاً في أغراض المنزل والتسوق فأصبحت شخصية معروفة في سوق المدينة. ابنها سلمان كان ببشرة غامقة لم يكتسب شعر أمه القاسي ويشبه عمران جده قليلاً وربما لون عينيه من جدته تمارا. شُهبة التي ولدت

في ليلة فريدة ظهرت في السماء عدة شُهب. لها اسم آخر تناديه بها أمها ولكنه لم يلازمها ويعنى أيضاً شهاب بلغتها. كانت حالكة السواد وتشبه أمها في اكتناز جسدها دون ترهل ولكن شعرها الغزير المنساب وعيناها الواسعتان وأنفها الدقيق كانت مثل جدها تمارا التي لم يرها أحد وفطنت لذلك طهرة التي رأتها عن بعد أن غدر بها الزمن وكل ما تذكره عنها وهى تجلس القرفصاء ولم يتبق منها سوى مسايرها الطويلة على وجهها. ورثت عنها شهبة أيضاً جيدها المشوق.

❊ ❊ ❊

(46)

دخل وراق عليهم ذات يوم برفقة رجل أبيض يرتدى رداء قصير وعلى رأسه خوذة صلبة مثل المحاربين ولكن بحواف عريضة تتقيه من الشمس. يحمل معدات ثقيلة يحرص عليها ويعيد ترتيبها بعناية مهملاً الاهتمام بمن حوله. كان الرجل في العقد السابع من عمره ذو شارب أبيض كث وتحرك في الفناء بماكوكيه كأنه يبحث عن شيء دون إذن أو إلقاء تحية. لم يعبأ بتحلق الأطفال حوله بل عمد لإشراكهم في مساعدته فتجاوبوا معه بلغة الإشارة.

أفهم وراق عمران ضاحكاَ بأن الرجل سائح متجول يجوب أفريقيا يحصل على صور لكتاب يقوم بتأليفه وطلب منه أن يساعده لأخذ بعض الصور فأتى به بعد ووعده بمنحة نسخة منها.

تهيأ الجميع للصورة وهم مأخوذين من التجربة. اصطفوا بالملابس التقليدية والرجل خلف ماكينته الضخمة. هب عمران طالباً منه مهلة

بيده وأسرع إلى غرفته. عاد يحمل عصا خليل وخنجر سلمان وجلس يضعهما على صدره. بعد إجراءات طويلة أتم الرجل عمله وأطلقت آلته صوتاً عقبه دخان كأنه طلق ناري. لم يجمع الرجل متاعه وتوجه لعمران وبإشارة مهذبة طلب منه أن يريه الخنجر الذي كان واضحاً قد استرعى انتباهه منذ أن أتى به عمران. تفحص الخنجر باهتمام بين يديه وأخرج قطعة زجاج مستديرة من سترته وقربها من عينه وهو يفحص في الخنجر حتى اهتدى إلى ما يريد فأخرج دفتر صغير من سترته وسجل ما وجده باهتمام. أعاد الخنجر إلى عمران وتحدث مع وراق يطلب منه الإذن لصورة منفردة لعمران مع الخنجر.

طلب وراق من عمران أن يرتدى ملابس آخري تليق بالخنجر. هرولت كايا خلفه وأقنعته أن يرتدى بزته العسكرية. ووسط ذهوله تخلصت هي من ملابسها وارتدت ثوب من بلادها متعدد الألوان ومنتفخ يكشف عن صدرها وتعلوه عقود كثيفة من الزخرفة. ذهل عمران ولم يره من قبل ولكنه أحس برغبتها وهاله جماله. اختطفت منه عصا خليل وتقدمته خارجة يعلو وجهها ابتسامة بزهو. ذهل الجميع وهلل لها وراق ضاحكاً مجلجلاً واتسعت عينا الرجل ببريق وإعجاب قد راقه ذلك تماماً. استغرق وقت ليس بالقصير لم يمله أحد حتى أجلسهما كما يريد وأعاد تصويرهما في وضعين مختلفين وعن قرب قدر المستطاع وكايا تقبض بزهو بتلك العصا ولا تدري عن الخنجر الذي تحويه الذى تلطخ بدماء قومها.

****

حرص عمران بتشجيع من وراق وقد أصبحا لا يفترقان أن يدخل أبناءه وأبناء آمنة إلى المدرسة. كان وراق قد بلغ سن التقاعد ورفض العمل مع عمران ولكنه كان يرافقه طوال الوقت في حانوته. عمران نفسه ترك جل الأعمال لعبدو وصالح وأصبح مسئولا عنهما فقط أمام خليل الذي يحرص أن تكون مكاتباته ولقاءاته مع عمران وقد حمله مسئولية عائلته كاملة. كان خليل قلق من عزوف صالح عن الزواج والتزامه بأمه الكامل. أسر لعمران يحثه أن يدفعه للزواج وقد أصبح عمران أقرب منهم إليه.

❋❋❋

(47)

بلغ عمران مرسال مكتوب من خليل يبلغه بمرضه ويحثه أن يسافر له دون علم الآخرين فأحس عمران بغموض الأمر وتوجس في قلبه. حزم أمره على عجل ولم يخبر سوى وراق الذي سهل له الحصول على أوراق ثبوتيه تمكنه من مغادرة البلاد وتصريح بالسفر بالقطار ليقطع نصف المسافة. بعد رحلة لم تكن ميسورة وصل عمران حدود البلاد وأمخر بالباخرة النهرية حتى وصل لأكبر مدن البلاد. أخذه منظر البنيان الشاهق وتدافع الناس الذين تكتظ بهم الطرقات وتصايحهم الذى لا ينتهى. اقترب منه سائق مقطورة أنيقة يقودها جواد غطاؤها مكشوف. تسع أربعة ركاب بمقعدين متقابلين ومقعد بجانب السائق. وضع متاعه في إحدى المقاعد وجلس بقرب السائق بعد أن أعطاه العنوان. لم ينتبه كثيراً لثرثرة السائق وهو مأخوذ يتجول بعينيه في المدينة.

وصل العنوان وتأكد تماماً من المعالم التي شرحها له بإسهاب مرسال

خليل. وجد طريقه بيسر إلى البناية التي يسكنها خليل وارتقى ثلاثة طوابق دون أن يحتاج للسؤال. فُتح الباب قبل أن يطرقه خرج صبي يانع ووقف قبالة عمران الذي ألجمت الدهشة لسانه والصبي صورة أخرى من خليل في صباه. سأله عن خليل في توجس وفغر فاه عندما قال له الفتى أنه أبى. تبع الفتى الذى أدخله غرفة بها أريكتان وكرسيان ضخمان ويفترش أرضها سجاد سميك وعلى نوافذها ستائر بيضاء لا تحجب ضوء الشمس. غاب الصبي وعاد تتبعه امرأة فارعة بيضاء ممتلئة وليست بدينة تلتف بملاءة بيضاء وتعصب رأسها بمنديل ذي ألوان عدة. هب لمصافحتها وعرفها بنفسه فأومأت له تنبئه بمعرفتها له وطلبت منه الجلوس. . سألها عن خليل فنظرت إليه بدمعة تلألأت في عينها قائلة:

– سيكون في استقبالك

دخل الصبي وقدم له كوب من الماء وانسحبت المرأة في تأدب. ظل عمران جالس والفتى أمامه في صمت. أتت والدته ووقفت عند الباب تنظر إلى ابنها نظرة ذات معنى فهب الفتى على قدميه يستأذن عمران أن يتبعه.

دخل عمران غرفة أخرى وقد تقدمته المرأة التي تنحت له وهي داخل الغرفة ليتقدمها. وجد خليل يجلس على مقعد وثير مثل مقاعد غرفة الاستقبال يرتدى جلبابا نظيفا ويجلس بعناية ولم يغب عن عمران مسحة المرض على ووجهه وتأكد من عدم قدرته على الحراك. تقدم منه بخطوتين واسعتين وانحنى يطبع قبلة طويلة على جبينه وتناول يده وطبع عليها قبلة طويله كأنه يريد أن يزيح منه ثقله. ارتسمت ابتسامة منهكة

على وجه خليل كلها رضاء. أومأ له بالجلوس فأسرعت المرأة بمقعد تناوله منها عمران يعفيها من تجهيزه له.

جلس عمران قبالة خليل فانسحبت المرأة بهدوء مغلقة الباب خلفها. عم صمت برهة فكسره عمران يبلغه أحوال الجميع وانتقل بتلقائية يحكى له عن رحلته وطرائقها فاستطاع أن يزيح عنه الكثير وارتخت أوصاله وعاد له هدوئه. بعد طرق خفيف على الباب دلفت المرأة تحمل الشاي في أواني جميلة. حالما فرغت من صب الشاي وتقديمه بكياسة لعمران تكلم خليل لأول مرة بصوت خفيض ولكنه واضح النبرات قائلاً لعمران:

– هذه زوجتي مديحة ستحدثك بنفسها عن الكثير الذي يجب أن تعرفه.

أومأ لها عمران بتحية قابلتها بابتسامة مهذبة كلها ترحاب فواصل خليل حديثه لها:

– هذا عمران لقد حدثتك عنه كثيراً إنه مثل ابني

قهقه عمران وهو يمسك بيده بمودة وقال مخاطبا سميحة بطريقة لا تخلو من المداعبة لتذيب الجليد وعربون من المودة:

– نعم هو عمى ولكن لا يكبرني كثيراً شببنا سوياً وكان مستودع أسراري التي يساومني بها عند الضرورة

ضحكت سميحة لأول مرة وارتسمت ابتسامة ممنونة على وجه خليل. طلب من مديحة الجلوس ولكن قبل أن تجلس طلب منها بمودة أن تحضر أبنائها ليراهم عمران. ظهر الاهتمام على وجه عمران فابتسم خليل وقال له بعد أن خرجت مديحة:

– لدى خمسة أبناء ولدان وثلاثة بنات سيكونون حملك ورد جميل حملي لأسرارك

قبل أن يقول عمران شيئاً دخلت مديحة تتبعها فتاة سمراء جميلة يعلو وجهها حياء وهى تتقدم أمها لتصافح عمران. وهو يصافحها قال خليل:

– آمنة

دهش عمران وقبل أن يفيق تبعها الصبى الذى استقبله معيداً مصافحته قال خليل مبتسماً:

– أما هذا فهو عمران

قبل أن يستوعب عمران قوله جيدا أقبل الثلاثة الآخرين دفعتهم أمهم حسب أعمارهم المتتابعة بين العاشرة والسابعة واصل خليل تعريفه:

– زهرة سالم صابرين صابرين سميتها على والدة مديحة.

لم يفق عمران من دهشته إلا بعد أن غادرت آمنة تقود أمامها أشقائها وتبعها أخوها عمران. جلست مديحة تعلوها ابتسامة وتنظر بتشوق إلى عمران كأنها تتوق أن تقرأ أفكاره. كان عمران في ذهول وقد فارقته صدمته الأولى ليحل مكانها فرح بميلاد عائلة جديدة ولجت قلبه وألفها كأنه يعرفهم منذ قدم. حاول أن يخاطب مديحة محطماً كل الحواجز لم يدر كيف يعبر عما اعتراه من أحاسيس. اكتفى أن يردد لها:

– نحن أهل أولادك هم أولادي يوجد خطأ لكنه من خليل وليس منى

ابتسم خليل وقد وصلته الرسالة كاملة وطفرت الدموع في عينيي مديحة مما وصلها من حرارة حديثه.

في اليوم التالي عندما أفاق عمران من النوم لاحظ خيال خلف باب غرفته ذات الكوات الزجاجية المطلية أحس بقلق ومرض خليل يشغله فتوجه إلى الباب وفتحه. وجد آمنة خلف الباب التي شهقت لرؤيته ولكنها سرعان ما ضحكت ولم تخف لهفتها وانتظارها له. قالت له بانفعال:

- إفطارك جاهز لقد طهوته بنفسي

هرولت وعادت بالأكل ووضعته أمامه وهرولت مرة أخرى وأتت بكوب من الحليب وضعته أمامه وهو يراقب الفرحة تتقفز في عينيها مالت فجأة عليه كأنها لم تتماك نفسها وقبلته على خده. قبل أن يفيق قالت له:

- لقد تحرك أبى لقد شفى على يديك أنا أحبك كثيراً قلى كيف أناديك

قال لها وقد غمرته فرحة وصفيت روحه تماما:

- قولي "عمى" أبوك عمى ولكننا شببنا شقيقان.

مكث عمران قرابة الثلاثة أسابيع معهم تجول في المدينة مع الصبي عمران الذي يعرف خفاياها. ولم يخف عن عمران بأنه ولج قلبه فكان كل الصبية في بساطة والدتهم. عمران الوحيد الذى يشابه أبيه كثيراً أما آمنة ورثت لونها من أبيها ولكنها تشبه أمها كثيراً. الثلاثة الآخرون كلهم ذوو بشرة بيضاء ولهم ملامح أمهم عدا سالم فكان الوحيد ذو شعر قاسى

ولو رأى عمران حسنية لعرف من تشبه صابرين ولكنه وجد فيها شقيقته هانم. تعافى خليل وتحرك داخل الدار وكان يقضى جل وقته مع عمران. أعمال خليل هناك كان يديرها حمدي شقيق مديحة الذي اطمأن له عمران كثيراً عند مقابلته وتحت إلحاح خليل فوض عمران بأوراق موثقة على كل أعماله بحرية التصرف فيها.

❊ ❊ ❊

(48)

غادر عمران بقلب منقبض والأطفال وأمهم يودعونه بالدموع. رافقه عمران وهم بالقرب من النهر تعالى من الشط الآخر صفير من نواحي متفرقة وعقبه طلقات نارية فتوقف الناس في الطرقات ما بين الاندهاش والخوف والفضول. أمر عمران الصبى حازماً أن يعود أدراجه إلى المنزل. وحث هو الخطى إلى الباخرة التي وجدها تهيأت للرحيل. عندما مخرت الباخرة بعيداً سمع همهمات تحكى عن اغتيال أحد الزعماء ولكنه لم يهتم بذلك وظن أنه ترك كل شيء خلفه. كان قد أفاق لنفسه وقد بدأ رحلة العودة فتذكر إرادية وأبنائها فناء صدره لأول مرة بالسر الذى سيحمله معه.

انسابت الباخرة على النهر بهدوء ولم يعكر صفوه شيء ولكنه لحظ حركة دائبة من طاقم الباخرة والجنود كأنهم على استعداد. عند الحدود لحظ بعض القوارب تتبع الباخرة وتمخر بجانبيها. ملأ الجنود الباخرة فور رسوها وبدأ إنزال الركاب بعد تفتيش دقيق لا يخلو من المهانة.

حتى الجنود على الباخرة وطاقمها لم ينجوا من التدقيق. لم يتم تفتيش متاعه بل تم تمزيقه تماماً. امتلأت الصالات بالصحف والأوراق مكدسة على مكاتب السلطات. لم تسلم القصاصات والخطابات الخاصة من المصادرة. تم احتجازه مع آخرين وفقد كل متاعه وتبقت في حوزنه حفنة صغيرة من النقود بعد أن نُزع منه جرابه بكل نقوده وأوراقه الثبوتية

وصلوا إلى منتصف الطريق وتم نقلهم في قطار مردفين في قاطرة مغلقة النوافذ تنتصب عليها قضبان حديدية من الداخل. اختلطت أنفاس الموجدين وبالكاد وجد عمران مكان ليجلس ويحرر إحدى قدميه بينما بقيت الأخرى لاصقة بصدره. بعد رحلة ساعات توقف فيها القطار أيضاً ساعات وهم لا يدرون ما يجرى في الخارج سوى بعض الأصوات العسكرية التي تتنادى وأحياناً طرق عالي على هيكل المقطورة من الخارج وصوت أجراس يليها صفير مثل صفير العسعس الليلي الذي يخترق الظلام وعندما يبدأ القطار رتيباً يتحرك يتنفسون الصعداء تمر بهم لفحة هواء تتسلل من كوات المقطورة. توقف القطار لساعات واشتدت درجة الحرارة وشعروا بالاختناق. تعالت الهمهمات حتى صارت صريخ وبدأوا في طرق موتور على جدران المقطورة المصمتة. سقط البعض على الأرض يرتجف وهناك من همد تماماً فشرع من حولهم في نزع ملابسهم تمزيقاً وترادفوا فوق بعضهم يفسحون لهم مكان وبأيديهم يلوحوا فوقهم بحثاً عن هواء. فجأة فتحت الأبواب وقفز الناس فوق بعضهم البعض خارجاً يبحثون عن هواء ويعترضهم الجند ضرباً ويجبرونهم على الانبطاح على الأرض. لم يقاوم أحد الضرب وانصاعوا للجنود فقط يخرجون إلى

الهواء. التفت عمران ووجه ملتصق بالأرض وفمه مليء بالتراب ينظر للجنود ينقلون الموتى من داخل المقطورة.

تم نقلهم إلى سجن مكتظ بالناس. منهم منبطحين على الأرض نيام ومنهم حديثي عهد لا تزال الثورة مشتعلة في صدورهم يقبضون على قضبان الزنازين ويهتفون يناغمون الأصوات الهادرة التي تصلهم من الشارع ولا يتوانى العسكر عن ضرب أياديهم من الخارج لإبعادهم عن القضبان. قضوا يومين ولا زالت الزنانين تتكدس بالمعتقلين الجدد. عمران ينزوي بصمت يراقب المعتقلين. جلهم من شباب في مقتبل العمر ويبدو عليهم من هندامهم وحديثهم أنهم طلاب أو موظفون متعلمون.

في اليوم الثالث عم السجن هدوء حتى الجنود والسجانين اعتلتهم سكينة وتبدلت معاملتهم وأصبحوا في خدمة المسجونين وتزويدهم بالماء وعدم الاكتراث بثورتهم بل اعتلت نظراتهم تعاطف وربما تضامن. رأى عثمان أحد الجنود عن بعد يجلس ورأسه بين يديه ويقف حوله زملائه عن قرب أحدهم يضع يده على كتفه فأيقن أنه يبكي. تسللت الأخبار إلى الزنازين بإعدام عدد من الضباط والمدنيين فتبدل الحال داخل الزنازين وأصبح النواح مباح والإحباط يسود المكان. بدأ عدد المعتقلين يتناقص دفعات. يرافق الجنود الذين يطلق سراحهم مطأطئين واضعين أياديهم على أكتافهم عكس الوحشية التي رموهم بها داخل الزنازين. خرج عمران مذهولا بدون أي أوراق أو هوية وجد نفسه على قارعة الطريق بالكاد يذكر من هو.

دلف إلى الدار بثياب رثة ولحية غير حليقة وقد فقد عمامته ويعلو وجهه التراب. صادفته آمنة أمام الباب وهى تهم أن تغادر فوقفت مذهولة وقد تعداها كأنه لم يرها. تسمرت كايا في وسط الفناء تنظر إليه وهو يسير إلى غرفته القديمة. قبضت كايا بهانم بقوة التي هلعت مهرولة له وأشارت للجميع أن يتركه الآن. ملأت إناء ضخم بالماء وساعدتها هانم بنقله أمام باب الغرفة وأشارت لآمنة أن تذهب وتأتى بعبدو فذهبت مسرعة. نظرت إلى هانم التي ردت على نظراتها لها بحيرة فهي لا تعلم أين ذهب وراق.

دخلت كايا إلى الغرفة وأحضرت معها الماء. توجهت إلى عمران دون أن تتحدث معه شرعت في نزع ملابسه عنه فطاوعها صامتاً فتركته يكمل خلعها وهي تحضر مكان لتحميه. قام معها وجلس حيث أرادت فأخذت تصب الماء على رأسه وتتخلل شعره وأذنيه وأنفه كأنه طفل. ارتعش مع الماء وسكن جسده وأسلمها نفسه كاملاً. بعد أن جففت رأسه وجسده كاملاً ساعدته على ارتداء ملابس أعدتها مسبقاً وأمسكت به حتى استلقى تماماً. وهي تنحني معه طوقها وأطبق على شفتيها. صارت منحنية عليه تسلمه نفسها دون حراك حتى ارتخى ونام كطفل. انتصبت بهدوء وفتحت نافذتي الغرفة وجمعت الأواني وغادرت الغرفة وتركت الباب بنصف اتكائه لمزيد من الهواء النقي.

حتى ساعة متأخرة من الليل جلس الجميع في فناء المنزل بوجوم. شهبة التي كانت تتسلل كل فترة تتفقد والدها أتت مسرعة تنبئهم بأنه قد أفاق.

توقف الجميع على أرجلهم حين خرج عليهم عمران بخطى ثقيلة وكاد يترنح ولكنه أعاد ثباته ذهب إليهم وبادر حديثه إلى إرادية قائلاً:

- خليل بخير وربما في الشهر القادم يكون بيننا

قالها ليبعد عنهم أي ربط بحالته المتضعضعة وخليل وقد رأى القلق بائنا في عينيها وفى نظرات أبنائها. كأنه قرر بدون إسهاب أن يعلمهم بأخباره ليزيل عنهم كل ريب أردف وهو لا يزال يخاطب إرادية:

- أرسل لكم معي هدايا كثيرة ولكنى فقدت كل شيء وقد صادره العسكر وصرنا رهن الاعتقال طوال الأسبوع المنصرم. لقد وصلت هنا منذ أربعة أيام.

فغر الجميع أفواههم وشهقت هانم عالياً وهى تضع يدها على فمها. التصقت آمنة بعمران الذي طوقها برقة بيده. وجلست كايا كأنها عجزت عن الوقوف وهى تتمتم بلغتها. ترك عمران آمنة وربت على كتف صالح وعبده واعتصر كايا بيديه على كتفيها وأومأ لبراق أن يتبعه وفى طريقه ربت على خد هانم مداعباً بشبه صفعة.

***

(49)

عاد عمران إلى عمله وقد تملكته تلك الأحداث المتسارعة فصار كشخص آخر. جل فراغه كان في غرفته التي تركها بعد حضور كايا لغرفة أكبر ولكنه ترك هناك أشياءه القديمة تلك التي أتى بها من صومعة جده خليل. يقضى جل يومه في نظافة الخنجرين وعدد من العملات الفضية كان قد حصل عليهم من خزانة جدة خليل.

فاتحه وراق برغبته بإدخال شهبة إلى مدرسة تابعة للسلطات كان قد ألحق بها بنته. رفض عمران بحدة وقد تسللت البغضاء في قلبه لهؤلاء الناس بعد الأحداث التي مر بها. بعد حين تنازل تحت ضغط كايا وانكسار شهبة التي تعلقت حياتها بإدرية وكانت تقضى جل يومها معهم في منزلهم الذي مُنح لهم بعد تقاعد وراق. انتقلت شهبة بصورة شبه دائمة تسكن معهم ولم يكن عمران راضياً عن ذلك فبرغم صداقته اللصيقة بوراق لم يكن مرتاحا لصداقاته مع الكثير من الوافدين

ويستقبلهم كثيراً في منزله في جلسات سمر تمتد أحياناً لخيوط الفجر. استفاد كثيراً في أعماله من علاقات وراق هذه وزللت كثيرا من العقبات ولكنه أخفى عنه تماماً تمويله لبعض الخليات الوطنية من الطلاب تعرف عليهم في معتقله. لم يكن يعرف نشاطهم ولا يقحم نفسه فيه ولكنه وفر لهم غرفة سرية ينسخون فيها مطبوعاتهم في وسط السوق. يتسللون لها نهاراً فلا يشك بهم أحد.

****

ارتبك عمران كثيراً عندما بلغه مرسال خليل ليأتي لمقابلته في القرية. لو لم يكن يعلم سره لكان الأمر هيناً. ولم يكن ذلك فقط مصدر قلقه فهو يعلم أن أعمال خليل تقريباً توقفت تماماً هناك ولم يتبق له غير التزام أخلاقي أوصاه عليه وهو توفير تجارة الثياب والأواني المنزلية دون أرباح وفاء للبلاد التي انطلقت منها كل أعماله وتكونت ثروته. لم يستطيع عمران أن يكذب على كايا ولكن أوصاها أن تخفى الأمر على الجميع حتى لا يتسلل القلق لأبنائه وزوجته. لم يكن عمران أخبر أحد بسر حياة خليل فشعر في داخله كأنه يكلف كايا أن تكذب عنه وغادر دون أن يخبر أحد.

عند منحنى النهر تعلقت عيناه بالربوة التي تطل عليه وخلفها المنزل العتيق. ثارت شجونه وجاهد أن يحجر دمعة طفرت من عينيه وهو يتذكر لهفة جدته آمنة وهي تعتلى تلك الربوة مهرولة تصيح وجسدها والسنون لا يساعدانها وهو وأمه يعدوان بجانبها يشفقان عليها. اعتلى الربوة بخطى ثقيلة وقد عاد فكره إلى خليل. فتح الباب على مهل بعد طرق

خفيف وهو يعلم لن يسمعه أحد لبعد الفناء الواسع داخل الدار. فوجئ بالجميع وسط الدار وقوف واجمون وحالما رأته آمنة هرولت إلية وارتمت بين أحضانه مجهشه ببكاء حراق. اقترب منه الأطفال كأنهم يحتمون به. وقف عمران الابن عند باب غرفة جده خليل وتعلقت عيناه به. أطلت مديحة من باب الغرفة على نشيج البكاء وكان شعرها غير مغطى كعادتها ينساب بإهمال على كتفيها تتخلله خيوط مشيب غليظة ووجها جامد خال من كل تعبير. تحرك عمران منزعجاً متخلصاً من قبضة آمنة برفق ودلف إلى الغرفة بدون أن ينظر إلى مديحة التي أفسحت له.

وجد عمران خليل مستلقياً هامداً تماماً لولا صوت شخيره لظنه فارق الحياة. اقترب منه وصار يمسح على وجهه ويرتب أطراف شعره نظر لمديحة التي تبعته ووقفت كالتمثال. قالت بصوت محشرج كأنها تبحث عنه بعد طول غياب:

– أحياناً يفوق ويسأل عنك لنا يومين في هذا الحال لم يأكل فقط قليل من الماء

قالتها وهى تنظر لإناء الطعام المغطى على الطاولة الصغيرة. طلب منها أن تذهب لترتاح وسيجلس هو بجانبه. لم تمانع وكان الإرهاق قد تملكها تماماً فانسحبت بهدوء دون تعقيب. شيعها بنظره حتى خرجت وعاد ينظر إلى وجه خليل الهادئ كأن الشخير يصدر من شخص آخر. حل الظلام فأتى عمران الابن بقنديل متوهج رأى نوره عمران على الباب. كاد أن يهم بالوقوف دلف الصبي فتراجع عمران في جلسته.

وضع الصبى القنديل على الطاولة بحرص وتناول إناء الطعام ووضع آخر كان بيده الأخرى. نظر إلى أبيه ثم إلى عمران الذي ربت على صدره امتنانا فخرج الصبي في هدوء.

غفا عمران وهو يراقب نار القنديل الذي كاد ينطفئ وأنفاس خليل في أذنه. أفاق منزعجاً عند الفجر فوجد خليل قد تغير رأسه وهدأت أنفاسه. انتفض واقفاً فزعاً وأمسك رأسه بيده وكاد أن يهزها لولا أن فتح خليل عينيه. ارتخت أوصاله ولم يعرف ماذا يقول. شعر أن خليل يجاهد أن يصلح من نفسه فأسرع بوضع وسادة خلف رأسه فارتفع قليلاً وهدأ كأنه قنع بذلك. أسرع عمران بإعطائه بعض الماء فلم يمانعه وتكلم بصوت واهن لم يسمع عمران شيئاً فاقترب منه بأذنه فجاهد خليل ولكنه فشل فهمس مختصرا:

- أولادي كلهم

أومأ عمران وهو يهز ذقنه مؤكداً عدة مرات وقد بللت دموعه وجهه التي صارت تتقاطر بدون توقف. ردد خليل بشفتيه اسم مديحة مراراً فخرج عمران مسرعاً فوجدها خلف الباب كأنها تنتظر فنظرت إليه هلعة. لم يقل لها شيئاً فقط أفسح لها فدخلت مسرعة. توقف قليلاً وولج حالما علا صوتها بالنشيج. مع ارتفاع البكاء دُفع باب الغرفة ودخلت امرأة مسنة تتوكأ على عصا. تبعها رجلان اكتفيا بالوقوف خطوة عند الباب. تقدمت المرأة وأمسكت مديحة بين زراعيها بعد أن تركت العصا تسقط على الأرض. توجه عمران إلى الرجلين الذين صافحاه يشدان

من أزره وهو يصافحهما لحظ بأن خلف الباب اكتظ بالنساء وعلى البعد وقف جمع من الرجال. شرع في فتح الباب على مصراعيه فهرع له أحد الفتيان للقيام بالمهمة فتركها له وقد أتى آخر يساعد في فتح ذلك الباب العتيق الذي ربما لم يفُتح من سنين خلت.

اكتظ البيت بالناس والتف النساء حول مديحة وأبنائها. ودخل عدد من كبار السن مع عمران إلى خليل. بعد زمن ليس بالقصير. خرج الجميع يحملونه في موكب مهيب. عندما رأته مديحة فوق الأعناق أيقنت أنه الفراق. صرخت هالعه وشبت وقد توحشت كأنها تريد انتزاعه منهم وتشبث بها النساء كأنها معركة وهي تصرخ مستنجدة بعمران. فقد عمران كل ثباته أمام هذا المشهد وأصبح يبكى بنحيب مثل طفل فقد كل الأمان. احتواه رجل مسن بقبضة حديدية وكلمات استنكار جافة يأمره بالثبات. تبعت مديحة الموكب والنساء يسيطرون عليها ما استطعن ولم يهدأ نحيبها إلا بعد أن توارى جسد خليل في التراب. بعض النسوة قد تخلفن عن الموكب يرافقن آمنة التي فقدت وعيها تماماً حتى شفقن أن تضيع هي الأخرى. كاد عمران يفقد عقله عندما رآها مسجيه أمامه بلا حراك ولكن قبضت عليه إحدى النساء المسنات تطمئنه. ساعدت آمنه ببعض الأعشاب النفاذة كانت مربوطة في طيات ثيابها فصحيت بسعال مخنوق فاحتضنها عمران بقوة باكياً فخلصتها إحدى النساء من بين ذراعيه وشجعته على الرحيل لينضم لجمع الرجال. عمران الابن وسط كل هذا كان مذهولاً تنقله خطواته وسط الجموع يرقب والدته تصارع النساء وداخله يتقطع ويحس بطعنة في جوفه ارتفع نحيبه عالياً حتى كاد

يغشى عليه ووالده أمامه ينزل القبر. في غمرة هذا كله استطاعت إحدى النساء بمشورة امرأة مسنة أن تصحب الأطفال الثلاثة إلى منزلها قبل خروج الموكب بجثمان خليل.

امتلأ المنزل بالناس طوال اليوم وأتت كثير من المقاعد من الخارج وتوالى دخول الماء والطعام من الباب. لم ير عمران مديحة وأبنائها طوال يومين. يغادر الرجال الذين يتناوبون الحضور في منتصف الليل ويبقى عمران وعمران الابن وحدهما لا يتبادلان كثير من الحديث فقط يكون الصبي متأهب لخدماته حتى يخلدا إلى النوم. لا ينصرف كل النساء ليلاً وتقضى اثنان أو ثلاثة منهن الليل مع مديحة وآمنة.

اليوم الثالث اجتمع جمع غفير بالمنزل وبعد الظهيرة عقب تناولهم الطعام توجهوا جميعاً إلى المدافن عند قبر خليل وقرأوا أوراد كثيرة. تحدث أحد الشيوخ يعدد مآثره ويودعه باسم القرية الشيء الذي انتبه له عمران مشدودا. بعد أن انفض الجمع توجه عمران إلى قبر جدته آمنة وجلس أمامه بحزن. استرعى انتباهه قبر عثمان بجانبها فجال بين القبور فوجد صليحة وخيرى يتجاوران ثم وجد خليل وطيبة ومسكة. أصبح يجول بين القبور يبحث عن قرب في القبور المتهدمة يقرأ ببطء وهو يكاد يفك الخط. اقترب منه ذلك الشيخ وسأله عن من يبحث. كان عمران منكب على إحدى القبور فرفع رأسه بأمل وقال له:

– أبحث عن جدى عمران

اتسعت عينا الرجل ببريق وقال له:

-هل أنت عمران؟ لقد حضرت هنا صبياً برفقة عثمان وآمنة أليس كذلك؟

أومأ عمران بالإيجاب منتبهاً ربت الرجل على كتفه ودودا وقال:

- لن تجد جدك عمران هنا سأحكى لك كل شيء هيا بنا ولكن قبل أن نذهب يجب أن تزور إحدى القبور لرجل عاش أكثر من مئة عام بين عائلتك.

اهتم عمران وتبع الرجل لقبر منعزل عليه اسم واحد صعب عليه قراءته فتبرع الرجل قائلاً:

- اسمه أبينو لا نعرف له اسم آخر كان الناس يقولون أنه أخ لجدك خليل.

صمت عمران وقد تذكره وهو يقرأ أوراد لا يفهمها أمام قبر جدته آمنة

رافق الرجل عمران إلى المنزل وحيداً حيث اكتفى الباقون بمصافحته عند المدافن. بقي قليل من النساء مع مديحة وقد عاد أبنائها الثلاثة الذين التصقوا بآمنة. أتت امرأتان بطعام العشاء وانضمتا لمجلس النساء. تتناول الرجل الشيخ معهما طعام العشاء وقد انفرجت أساريره كثيراً عندما علم كلاهما اسمه عمران. بدأ حديثه مستهلاً:

ـ اسم عمران كان غريبا عن بيئتنا. وأول عمران كان جدكم. يقال أن والده كان شيخا صالحا له كرامات. كان يسافر سائحا خلف البحار وتزوج من امرأة أتت معه هنا وأعطى ابنها اسم أبيها الذي كان شيخا زاهدا. بعد استشهاد عمران انتشر الاسم في نواحينا.

شرع يحكى لهم عن جديهما عمران وعثمان اللذان وحدهما جابها جيش من الغزاة وقتلا منهما ألف مقاتل ونجا عثمان ومات عمران في ميدان المعركة. اتسعت عينا الصبي عمران وأصابته خيلاء وصار يطارد الرجل بسيل منهمر من الأسئلة حيث ظل عمران صامتاً لا يخلو من فخر ولكنه لم يعقل كل حديث الرجل الذي صور جده عثمان شخص آخر وهو يعرفه جيداً ولكنه تأكد أنه خلفهما قصة بطولة طالما قرأها في عيني جدتيه زهرة وآمنة. تمنى لحظتها أن خليل بجانبه فهو يعرف الكثير ولكنه لا يتحدث كثيراً.

انتهز عمران صمت الشيخ فبادره يحدثه عن خطبته في المدافن. شرح له بأن خليل له صبيان آخرين وأنه يدير كل أعماله. طلب منه أن يدله على كل أعماله الخيرية في القرية فهو يريد الحال أن يكون على ما هو عليه. تهلل وجه الرجل ووعده أن يجول معه اليومين المقبلين في القرية يدله على أعمال خليل ويزور أسرتين يقوم بإعالتهما. تهلل الصبى عمران وشعر بفخر كبير نحو والده.

رحبت مديحة كثيراً بالبقاء لمدة أطول وقد طاب مقامها بالرعاية التي احتوتها وشعرت لأول مرة بجذور زوجها التي كانت لا تعرف عنها إلا القشور. طربت كثيراً بلهفة ابنها وهو يحكى لها عن ما سمعه من بطولات أجداده وكرم أبيه بين قومه وأقسم بأنه لن يجعل جذوره تنقطع عن هذه الأرض التي أحس أنه مرتبط بها.

50

شيع عمران مديحة وأبنائها حتى حدود البلاد وفارقهم مودعاً وهم على متن الباخرة بوعد زيارتهم . رحلة عودة عمران كانت ثقيلة الحمل. حرص أن يسبقه مرساله إلى المدينة بخبر موت خليل. بلغ المدينة وتوجه أولاً لبيت خليل وهو متوجس من وصول الأخبار. قابله الجميع وتفتحت جروحهم برؤيته وكانوا كلهم مجتمعين في بيت خليل مما جعل الأمور أكثر سهولة معه. لم يتحدث كثيراً ولم يسألوه شيئاً وقد أحسوا جميعهم بأنه بلغه قبل وفاته. لم يذكر لهم أنها سويعات ولكنه أفاض في حديثه عن إكرام أهل القرية له في دفنه وحفظ جمائله عليهم التي لم يعرفها هو نفسه قبل موت خليل.

عادت الحياة رتيبة وقد اعتاد أبناء خليل فراق أبيهما لكثرة غيابه عنهما منذ نعومة أظافرهم. إرادية كانت صامتة أكثر هدوءً وتقبلاً كانت رغم شبهها الكبير لوالدها خيري لم تورث بشاشته وتشبه كثيراً في هدوئها ورزانتها جدتها طيبة التي تكاد لا تتذكرها.

****

لحظ صالح وهو القائم بالتدقيق على كل الأعمال أن عمران أصبح يحجب الكثير عنه وأن بعض توجه الأعمال وريعها لا يمر بقنواته. كثرت أسفار عمران إلى القرية والى الشمال خارج الحدود وكثرت مصاريفه التي كان لا يهتم بها في سابق الأيام. تابع صالح ذلك بقلق ولم يلحظ تغيير طرأ على حياة عمران العادية يبرر اختفاء تلك الأموال. أسرّ صالح بعد تردد إلى عبدو عندما تأكد من فقد أملاك كاملة. استنكر شقيقه ذلك في بادئ

الأمر ولكن بدأ يلحظ غياب الكثير بعد أن لفت شقيقه انتباهه. كثرت الهمهمات واللقاءات بين الشقيقين مما لفت انتباه آمنة وأسرت إلى إرادية التي لم يغب عنها ذلك.

عمران يتناول الطعام مرة في بيت خليل كعادة التزم بها منذ حياته. كانت إرادية ممنونة بذلك وتهتم بذلك اليوم وتجعل منه وليمة خالصة للجميع. ذات يوم وهم جلوس حول الطعام بتردد فاتح عبدو عمران برغبته بالانفصال بأعماله. فوجئ صالح الذي لم يكن هناك بينه وبين شقيقه اتفاق ولكنه فهم ما يرمى إليه. لم يهتز عمران وكان يحس كثيراً بريبتهما وحيرتهما. قبل أن يجمع أفكاره ليناقشه في رغبة أبيه المكتوبة تركت إرادية مجلسها في طاولة الطعام التي لا تشارك فيها إلا في وجود عمران. توجهت إلى ابنها وأمرته بالوقوف عندما انتصب أمامها صفعته بقوة على وجهه. بهت عبدو وتوقف ينظر لها بدهشة وغادر مطأطئ الرأس إلى غرفته. أعطت آمنة هلعة ابنتها لصالح وتبعته راكضة. عادت إرادية بهدوء لمجلسها. الوحيد الذي أكمل طعامه عمران كأنه واجب وقام مستعداً للانصراف. تبعته إرادية إلى الباب كعادتها. وقف يصافحها مودعاً وهمس لها:

– ما كان عليك أن تفعلي ذلك لم يعدوا أطفالاً أرجو أن تطيبي خاطره ودعته راضية بدون تعقيب.

توالت وتيرة الحياة رتيبة. التزم صالح بعمله دون محاولة التعمق في ما يحدث مستسلماً لرغبة والدته. عبدو أيضاً أغرق نفسه في أعماله متفاديا

ما أستطاع اجتماعه بعمران. لا يجتمعان إلا عند حضور عمران لمنزلهم ويحرص على ذلك لإرضاء والدته دون أن تطلب منه ذلك. أصابت علاقة عبدو مع آمنة بعض الفتور فأصبحت في حيرة ولم تعرف إلى من تسوق اللوم فلف حياتها حزن دفين. تسابقت الأيام وحبلت آمنة وأنجبت صبي سماه عبدو خليل على اسم والده وفرح به كثيراً فغير الكثير من حياتهم.

****

ندرت مقابلات وراق بعمران وقد صار وراق من نجوم المجتمع وانغمس في عالم السياسة. هانم أصبحت امرأة ناضجة يزيدها مظهرها وسلوكها بهاء يخفى من عمرها الكثير وكانت لم تنجب غير درية وتظهر أصغر من آمنة سناً رغم أنها تكبرها بعام.

كايا كانت لها حياتها بعد أن التحق ابنها مع توأم آمنة بمدرسة داخلية تنتظره آخر الأسبوع يقضى معها يوم عطلته خارج المنزل ويحرصان أن يكونا مساء في حضرة عمران يتناولون الطعام معاً. شهبة تبنتها هانم تماماً وكانت تحرص أن تأتى بها هي ودرية لعشاء آخر الأسبوع في حضور أخوها فيتحول المنزل مساء لساحة من النزال وكانت شهبة ببنيتها القوية مثل أمها على رأس الجميع. كايا كانت لا تهدأ تعيد ترتيب البيت يومياً وتتجول في الأسواق تبحث عن كل جديد وتعرج يومياً على آمنة وعلى هانم ولا تهجد تساعدهما في أعمال المنزل ومساء تكون في المنزل في ميعاد عودة عمران إلى المنزل. لم يحس أحد بأحزانها الدفينة وتوقها لوطنها وعالمها القديم.

****

توفيت إرادية فكاد عبدو أن يموت خلفها حزناً وجد صالح نفسه يعزى أخيه أكثر من نفسه وبكى عمران مثل يوم مات خليل. إرادية رغم صمتها وانطواءها كانت رابطه الوحيد بحياته السابقة. تهدم الجسر الذى يوصله بآمنة وصليحة وقصصهما عن طيبة وخليل وعن زمن مضى. إرادية فوضته على حياتها وعلى أبنائها من فوق هذا الجسر وليس فقط وصية زوجها. أحس بخيانتها وهو يدفن سر خليل بين أضلعه. أول شهر بعد وفاتها كان في منزلهم في ميعاده. دخل مغموم وقلبه ثقيل وتبادل صالح وعبدو مصافحته بحرارة كأنهم يعزونه ويعزون أنفسهم فيه وانزوت آمنة تبكي بحرقة. أرغمها عبدو مداعباً وهو يدفعها لجلب الطعام ولا تتزرع عنه. أكلوا جميعاً صامتين كأنهم يخلدون ذكراها بصمتها الدائم. ترقرقت عينا عبدو وتوقف عن الأكل وقام احتضن عمران وهو يبكي وقد تذكر والدته وهى على فراش كأنها تعتذر عن الواقعة القديمة:

– عمران يكن لكم كل الخير وهو شقيق والدكم

تريث عمران يربت على كتفه وعندما هدأ عبدو كان يريد مغادرة المائدة ولكن عمران استوقفه وطلب منه الجلوس. عاد إلى مكانه وكان الجميع اكتفوا بما أكلوا وصاروا يرقبون عمران الذي كان واضحاً أنه عزم على أن يقول شيئاً مهماً. تريث قليلاً وخاطب آمنة قاطعاً بما لا يقبل المغايرة:

– ستأتي كايا غداً وتقيم معك هنا وفي نهاية الأسبوع تذهبون إلى هناك وتقضون اليوم مع هانم والأولاد وعندما يعودون إلى منزلهم تعودون أنتم هنا.

والجميع منتبهون بدهشة أردف عمران يوزع نظره بين صالح وعبدو حازما:

– سنغادر غدا ثلاثتنا في رحلة قد تستغرق زمن ليس بالقصير

قالها وترك مائدة الطعام وأصلح من هندامه وحمل عصا خليل الأبنوس التي أصبحت لا تفارقه وغادر الدار بين دهشة الجميع وهم في استسلام تام.

❊❊❊

(51)

أعدت كايا متاع عمران بدون تعجل وقد اعتادت سفره وتدرى ما تفعل جيداً. مر عليه صالح وعبدو بكثير من المتاع فضحكت كايا وطلبت منهما أن تعيد ترتيب متاعهما موضحة أنه يجب في الأسفار أن يكون الإنسان طليقاً. قالت لهما:

ـ في بلادنا متاعنا كان فقط حربة نحملها إلى أعلى

رفعت عصا عمران الأبنوس نحو السماء قائلة:

– هكذا لمقابلة انقضاض الفهود من أعلى الشجر. الحربة زادنا لصيد الحيوانات وحمانا من الأعداء. والأشجار ظلنا الذي ننام تحته وثمارها تطعمنا وقد نلهو به في إطعام صغار الحيوانات وأيضاً نجدها أحياناً عبء ثقيل.

قالتها مقهقهه ولكن لمعت عيناها بدمعتين لم تخطئهما عينا عمران. شرعت دون إذن في إفراغ متاعهما وانضمت لها آمنة تساعدها.

كان وراق الذي مر عمران عليه في الأمس ينتظرهم على رصيف القطار وقد جهز لهم حجز السفر وأخذ يحدثهم كعادته مفاخراً بصداقاته ومعارفه وقدراته في تسهيل الصعاب. ربت عمران على كتفه ممنونا لا يعلق على سيل حديثة الذي تتخلله توزيع التحيات للكثيرين بزيهم الرسمي من مسئولي القطارات.

تحرك القطار متمهلاً ولم يكن عمران أخبرهم بوجهته. والقطار يغادر المدينة قال لهم بهدوء كأنه صمم أن يجعلها جرعات صغيرة لشأن كبير:

– بدء سنذهب إلى القرية نزور قبر والدكم وهنالك كثير من الأمور التي يجب أن تكون مهمة لكما.

تقبل عبدو حديث عمران بارتياح ولكن صالح بطبعه الدقيق انتبه إلى كلمة "بدء" التي استهل بها عمران الحديث واعتراه شعور بأنه يقودهما إلى سر كبير. قرر بينه وبين نفسه الانتظار وأن لا ينقل القلق إلى شقيقه.

استمرت الرحلة حتى حل الظلام وصلوا إلى مدينة كبيرة وقضوا الليل في نزل صغير قرب محطة القطار في نوم غير هانئ. ضجيج القطارات وأجراس وصفير متقطع إلى ما بعد منتصف الليل. في الصباح توجهوا ليس بعيداً داخل المدينة وبعد إفطارهم استقلوا شاحنة قديمة من بقايا الحرب الكونية. تعطلت عدة مرات وغاصت مرات في الرمال حتى وصلوا بمحاذاة النهر في منتصف النهار. أبحروا بقارب خشبي ضخم عتيق وانضم لهم البعض ومعهم أغنامهم وبغالهم. أخذ التعب مأخذه من عبدو وصالح. قال عمران مداعباً ومهوناً:

– تبقى لنا فقط ساعتين قديماً قطعت هذه الرحلة وأنا صبي في أسبوع زمان.

قالها وهي يتذكر تفاصيل الرحلة وبين الجميع لاح له وجه عثمان الواجم وبجانبه زهرة وهو الآن على النيل مع أحفادهما. لم ينسَ أن يرقب الربوة مثل كل مرة حيث يزول عنه كل عناء الرحلة.

لحظ عبده وصالح معرفة عمران للجموع وهشاشتهم لاستقباله. حرص عمران كعادته أن يمر على المدافن وبكى عبدو طويلاً على قبر أبيه وكان صالح جلد وربما حال شقيقه هو الذى ترك الدموع تنهمر من عينيه. بلغا المنزل وكان عمران قد نقل إحدى العائلتين التي كان يعولهما خليل الى جزء من المنزل وحرص أن تكون غرفة خليل في الجزء الذي ينزل فيه. أعد لهم أهل القرية كثير من الطعام الشهي وناموا هنيئاً بعد إعياء في الفناء الواسع.

تجولوا في القرية وزاروا حقل التمور الكبير يحمل ثماره خضراء مترادفة بوفرة. لحظ عمران بقايا جزع شجرة الهجليج التي تم قطعها فتذكر جدته آمنة وهي متكئة عليها كأنها نائمة. زاروا عدة متاجر رحب بهم أصحابها وحكى لهم بأن والدهما دأب تعميرها بالمواد بقيمة تكلفتها وينتظر عليهم حتى يبيعوها لتسديد قيمتها لتصل للناس بأسعار منخفضة. زاروا العائلة الأخرى وكانت لامرأة لها طفلان وقد صارا صبيين قادرين فعمد عمران لمنحهما حانوت جده خليل يقتاتون منه بدلاً من العطايا.

في المساء وهم وحدهم في الفناء جلس ثلاثتهم وأفاض عمران في حديثه عن القرية وأجدادهما وعراقة المنزل ولم ينسَ أن يحكى لهما عن بطولات جديهما عمران وعثمان. كان صالح يتابع صامتاً وشعر بصدق حدسه بأن عمران بصدد الولوج إلى سر هو هدف وجودهما هنا. لم يتضايق عمران من عيني صالح المتوقدتين بالذكاء بل شجعه ذلك أن يكف عن التطويل ويدلف إلى لب الحديث. قال وقد كان ضبط تماماً ترقب صالح:

– لقد أصبحتما راشدين وقادرين على تحمل مسئوليتكما تماماً منذ زمن طويل. لم أتحدث إليكما من قبل حفاظاً على مشاعر والدتكما التي أكن لها الكثير. آن الآوان لتديرا أعمالكما بأنفسكما ولدى كل الأوراق لتقسيم الإرث بينكم مناصفة ولكن هناك ما يجب أن تعلماه أنه لديكم شركاء في هذا الإرث من دمكم ولحمكم.

وجم الشابان ينتظران منه مزيد من الإيضاح فدلف إلى داخل الحقائق بدون تورية أو تخبئه. أكد لهم هو نفسه صدم في الأمر ولم يعلم إلا في زيارته الأولى. لكنه عاد وشكر لهم كثيرا في معدن إخوتهم وزوجة أبيهم. وأضاف إنهم يعلمون عنهم كل شيء ويتحرقون إلى لقائهم.

وجم صالح وعبدو وقضيا ليليتهما تلك وقد هرب النوم من جفونهما. في اليوم التالي لم يتجاذبا سوى حديث مقتضب بينهما ومع عمران. عمد على تركهما وحدهما طوال الوقت وشغل نفسه بالبحث في غرفة جده خليل. عثر في داخل الخزانة على مكتوب مغلف بغلاف سميك به أوراق

مرقمة ومكتوبه بعناية بأحرف سميكة حجمها كبير ولكن لغة لا يعرفها تعلو بعض حروفها نقاط أو رموز تفصلها خطوط ثم أرقام لتبدأ كتابة أخرى اهتم عمران بها كثيراً وود لو يفك طلاسمها. أعادها كما كانت داخل جراب جلدي وجدها فيها وضمر في نفسه أن يحملها معه. اعتراه شعور شديد أن قصة موت جده عمران سيجدها هنا وربما الكثير. خبأها جيداً في متاعه. عندما خرج من الغرفة وجد صالح وعبدو يجلسان قبالة بعضهما صامتين فتأكد إنهما قد حزما أمرهما على شيء اتفقا عليه. ارتاح كثيراً عندما أبلغه صالح برغبتهما في التعرف على أشقائهما.

❊ ❊ ❊

(52)

انبهر عبدو وصالح بالباخرة النهرية والترف في أثاثها وسطحها الوسيع المتأنق. ارتاح بال عمران لانشغالهما بالرحلة وقد زال عنهما عناء السفر المرهق. عندما بلغوا المدينة زاد انبهارهما وغاب توجسهم من لقاء المجهول. قادهم عمران إلى نزل صغير تعود أن ينزل به منذ أن مات خليل. هيأ لهما غرفة واسعة وأفرغ أمتعته التي كان معظمها هدايا شرع في شرائها أثناء الرحلة. تركهم في النزل ووعدهم بأن لا يغيب. عاد ليلاً وذهب بهم إلى مطعم مكتظ بالناس ورائحة الشواء تفوح في المكان وتتعالى الصيحات من الناس بحيث يصعب أن يسمع الإنسان الذي بجانبه. كان شواء طيب لم يتذوقا مثله من قبل. صبر عمران معهما رغم رغبته العودة للنزل وقد تملكه النعاس.

صباحاً ابتاع عمران كثير من الفواكه وحمّلها لهما وسار أمامهما لا يحمل شيئاً. عم الشابين وجوم وهما يتسلقان الدرج وقد دنوا من المجهول.

على صوتهما على الدرج سمعا صوت باب يُفتح وكثير من الهمهمات. كان عمران قد تسلل لهم ليلاً وهيأهم لزيارة الغد. لم تنم ليلتها آمنة أعادت ترتيب المنزل مرات عديدة وكانت متعصبة في تعاملها مع أخوتها. تمكنت مديحة من إدخالهم المنزل وتبقى فقط عمران الابن في انتظارهم خارجاً. ارتج عبدو وسقط كيس من يده عندما وقعت عيناه على عمران والشبه الكبير بينه وبين والده. مد عمران يده مصافحاً فوضع عبدو باقي الأكياس على الأرض واقترب منه متناولاً يده وهو يحدج به كأنه يبحث عن والده فيه وبرد فعل غير متوقع جذبه عليه وأطبق عليه بذراعيه وقد طفرت الدموع من عينيه. كان صالح متريثاً وصافحه مقالداً فقط تجارياً مع سلوك أخيه.

جلسوا جميعاً في غرفة الاستقبال فدخلت مديحة فهب الشابين وقوفاً. سلمت عليهما مصافحة وهي تحس بانقباض ويعتليها شعور بأنها لا تعنى إليهما سوى المرأة التي سرقت والدهما وقد تملكتها ظنونها فبدأت أمامها جامدة لا تعكس أصلها الطيب. دلفت آمنة وصافحتهما وهي ترتجف وتتنازعها مشاعر شتى وهي تشتاق أن تعانقهما. دلف الصبي الصغير وشقيقتيه وأدوا تحية مسرحية سريعة وشرعوا في الانسحاب ولكن عمران نادى عليهم وطلب منهم البقاء فتوسدوا بطاعة الأرض على الحصير. جلسوا جميعاً في صمت قطعته مديحة وهي تدعوهم للطعام. هبّ عمران وتبعه الجميع وجلسوا حول مائدة عالية مستديرة مليئة بطعام كثير وبعرض جميل كانت آمنة قد أعادت ترتيبه عدة مرات. جلسوا يأكلون بصمت تتخلله مداعبات الصبي لشقيقتيه. عندما قام عمران وهو الوحيد الذي اهتم بتناول طعامه كاملاً كأنه أذن لهم بالقيام.

عادوا إلى مجلس الصمت الذي صممت آمنة على كسره. خاطبت عبدو مباشرة بعنف كأنها تحثه على النزال:

– حدثنا أبى كثيراً عن روحك المرحة ومداعباتك ولكنى لا أرى سوى وجه عبوس

ابتسم عبدو وعرف مرادها وقد صفى قلبه لها وقد طرب في نفسه من ذكر أبيه عنه لهم فقال لها وقد ضمر أن يناكف نظرة الخبث في عينيها:

– أتدرين أن زوجتي اسمها..

قاطعته كأنها تهزمه:

– اسمها آمنة وهي أخت عمى عمران فماذا بعد

زادت ابتسامة عبده وهو يقول لها:

– لقد هربت منها كل هذه الفيافي لأجد أمامي آمنة أخرى تتحرش بي.

ضج الجميع بالضحك وهبت آمنة محتجة وتواصل بينهما المكايدات حتى امتدت الأيادي مداعبة ومصافحة. اجتمع الصغار وآمنة حول عبدو وتعالت الضحكات. ظل عمران ومديحة مبتسمان وقليلاً يساهمان في الحديث. احتفظ صالح بهدوئه وجلس يتجاذب الحديث مع عمران الابن. مالت مديحة تهمس بنبرة غمز نسائي لعمران وهي ترقب صالح قائلة:

– لدى ابنة خالتي ولكنها صغيرة أكبر قليلاً من آمنة وهي جميلة جداً

اتسعت عينا عمران وابتسم لها برضاء كأنه يفوضها تماماً متذكراً وصية خليل.

****

لم تكف آمنة عن الشهقات وتكاد عينيها تخرج من محاجرها اتساعا وعبدو يحكى لها عن أشقائه وعائلته الجديدة. انتشر الخبر بين الجميع واجتمعت العائلة مساء جميعها في بيت عمران وتبادل الجميع الدهشة والاستنكار واللوم. عند نقطة خطوبة صالح تصدت هانم حاسمة بأنها التي ستسافر لتتقدم لخطبة صالح فوافق فوراً عمران حاسماً:

– وراق خير من يتقدمنا

أراح وراق ذلك كثيراً واكتفى ببسمة عريضة. كان عمران قد تخلص هكذا من المهمة وهو لم تفارقه دمعة كايا منذ أن غادر مع عبدو وصالح. بعد أن غادر الجميع خلد عمران إلى فراشه باكراً فانتبهت كايا لمراده فلم تتبعه. أعادت ترتيب المكان بحيث لا تعود له هيأت نفسها بكل العطور التي منحتها لها هانم واستلقت بجانبه تتجاهله لا تدري كيف تقترب منه وقد طال فراقهما. قال لها مدعياً عدم الاهتمام:

– لقد كلفت وراق باستخراجه تصريح لنا لنسافر معاً جنوب البلاد

صمتت كايا بذهول حتى أشفق عليها وهب يتفقدها. فجأة أطلقت صرخة عالية لم تتوقف عنها حتى نفدت أنفاسها وبما يشبه العراك انقضت عليه تقبله في كل جزء من وجهه.

تخلف عبدو وآمنة لرعاية المصالح واستقبال أطفال هانم وعمران في العطلة الأسبوعية. وعد عبدو آمنة بالسفر في أقرب وقت بعد عودة الجميع متشوق لتقديمها إلى عائلته الجديدة. كانا في وداع كايا وعمران بعد أن غادر ركب وراق وهانم وصالح.

❋❋❋

(53)

رحلة الشمال كانت الأولى لهانم وكانت متشوقة لذلك العالم الذي سمعت عنه كثيراً. طوال الرحلة حرص وراق أن يتجول في القطار والتعرف على المسافرين والتقرب من العاملين وقبع صالح وهانم وحدهما وقد أغدقت وصايا وراق عليهما بخدمات مطعم القطار. ليس بعيدا منهما كانت تجلس سيده سمراء مهندمة بملابس تختلف كثيراً عن المعتاد فاهتمت بها هانم التي كانت تحب الأناقة التي علمها كثير منها زوجها وراق الذي يستقبل زوار من جنسيات مختلفة في منزله ويصحبها إلى حفلات أصدقاء من جاليات أجنبية. قبل أن تعتاد تلك الحياة كانت منبهرة جداً بها.

لحظت المرأة اهتمام هانم بها فبادلتها الابتسام وشيئاً فشيئاً انضمت لمجلسهما فانسحب صالح في كياسة يبحث عن وراق. عادا سوياً وانضما إليهما ورفض وراق انسحاب المرأة معلناً وصايته الكاملة أثناء الرحلة

وأكدت هانم ذلك بحبور. صالح لم ترق له المرأة بمساحيقها الغريبة عليه وضحكاتها المتكلفة وطريقة جلوسها ولكن لم تفارقه الابتسامة بتوازنه الذي يسيطر عليه دائماً. هانم لم تخف إعجابها بالمرأة وأسرتها لكنتها المختلطة بين أهل الجنوب وأهل الشمال فتواعدتا تحت مباركة وراق بجولة في أرض الشمال التي تعرفها تماماً.

وهم يترجلون من الباخرة انشغل عنهم وراق الذي وردت إليه أنباء اتفاقية استقلال بلاده من الوجود الأجنبي. وجد الناس يهمهمون بتلك الأنباء على رصيف الباخرة. انشغل بالسؤال وتركهم وذهب يبحث عن الصحف. أكفر حاله وهو لا يحتمل أن يعود ولا يجد أصدقاءه ومجتمعه القديم. في جلساتهم كان يعلن دائماً أن وجودهم رخاء للبلاد وخطوة للمدنية وهو يتوق أن يرتقي حال البلاد إلى مجتمع الشمال الذي كان مغرم به.

هانم لم تهتم بأي أخبار وسط نشوة العالم الجديد. ألحت على وراق إعطاء عنوان النزل الذي هم بصدد النزول فيه بمعرفة عمران لصديقتها الجديدة. تأففت المرأة من العنوان ومكانه وعرضت عليهم استضافتهم في منزل تمتلكه في أرقى الأحياء. وافق وراق تحت إلحاحها ولم يعلق صالح الذي استهجن الأمر بينه وبين نفسه. رحبت هانم بحرارة متمنية لنفسها رحلة مثيرة برفقتها.

عند وصولهم للعنوان ظهر لمضيفتهم وداد شخصية جديده عندما وجدت المنزل تنقصه العناية. صاحت على حارس المبنى بغضب نسائي

منفر وطلبت إحضار الخادمة فوراً. أتت الخادمة برعب وكانت طفلة في الثانية عشر من عمرها. تلقفتها وداد بعدد من الصفعات على رأسها الشيء الذي أفزع هانم وهبت لنجدة الطفلة. وراق لم يكن موجودا ولا يزال في الخارج يتفقد المكان. عن بعد وقف صالح يرقب الحادثة بامتعاض. شرعت الفتاة في ترتيب المكان ومساعدة هانم بأمر من وداد في ترتيب المتاع. تكلم صالح مع وراق بعد انصراف وداد عن عزمه دفع إيجار المكان وأمّن وراق على ذلك بتأكيد. انشغلت هانم بإرضاء الفتاة وهي تشعر أنهم من تسببوا في وضعها في ذلك الحال المهين.

****

لقاء المساء في منزل مديحة كان رائعاً وخطف وراق النجومية أمام الأطفال وانفرطت أسارير صالح بعد ضيق دام منذ أن تقابلوا مع وداد. آمنة تعودت عليه وكانت تحذر تحفظه وألحّت عليه أن تهتم بهندامه وتصفيف شعره ليكون أجمل عريس. ضحك صالح لذلك عالياً وشعر نحوها بألفه ومحبة عميقة.

حان موعد الزفاف بعد تبديله بالخطبة وأذابت مديحة كل الجليد بين العائلتين ولا سيما والد رقية العروس كان صافياً من أهل الجنوب في لهجته وتعامله مما أزاح الغربة عن صالح.

طوال الوقت كانت هانم قلقة من غياب وداد التي دعتها إلى حفل الزفاف ربما ذلك كان من حظ صالح فرؤيتها تكدّر مزاجه. كان وراق نجم الحفل بدون منازع وعلى طريقته المتحضرة التي تلفت أنظار الجميع

أرغمهم على السكوت وألقى عليهم خطبة يعتذر لكل من تخلف عن الحضور وقام بدعوة الجميع إلى مرافقتهم لتواصل الأفراح في بلادهم وفى ختام حديثه أذن للطرب والغناء أن يتواصل فصفق له كل الحضور طويلاً.

****

رافق صالح عروسه إلى مدينة أخرى تطل على البحر ولازمت آمنة هانم ووراق في مكان إقامتهم وعمران يمر عليهم كل نهار ويخرجون أربعتهم للتجول في المدينة. هانم تمتعت بوقتها ولكنها قلقة تفكر في غياب وداد. عادوا يوما إلى المنزل فوجدوا وداد تنتظرهم داخل الدار بأحقية كاملة ودخلوا عليها كزوار. استهجن وراق ذلك في نفسه ولكن هانم قابلتها بشوق ولوم ودود. تخيل لوراق بأن متاعهم قد تم العبث فيه ولكنه طرد ظنونة وتقدم منها مصافحاً بكياسة ورحب بقدومها في الوقت المناسب ورغبته دفع تكلفة إقامتهم. حاصر تمنعها حتى أذعنت ودفع له قيمة إقامتهم المتوقعة في النزل الأول.

طلبت وداد من وراق مرافقة هانم لحفل عيد ميلاد قاصر على النساء لإحدى صديقتها. وافق وراق وداخله رافض لها بعد حضورها الغريب الذى لم يهضمه. أخذت هانم إلى غرفة كانت مغلقة لديها فيها خزانة ملابس وأجبرتها على اختيار ثوب لم ترتح له وخرجت وعيناها تبحث في عيني وراق ردة فعله من شكل الثوب. ابتسم وراق لها ولكنه كان قد ضمر في نفسه أن ذلك سيكون آخر لقاء مع تلك المرأة. كل هذا الوقت كان عمران وآمنة صامتين يرقبان وقد تلاقت أعينهما باستهجان.

عمران لحظ ضيق وراق فأراحه ذلك في قرارة نفسه أما آمنة حافظت على ابتسامتها وكلها مجاملة أنثوية. كأنهما متفقان طلبا الإذن بالرحيل. أذن لهما وراق وودعهم بوعد حضورهما في الغد.

****

عادت هانم في وقت متأخر من الليل. سمع وراق دبيبها وهمس أمام باب المنزل ولكنه تصنع النوم. عندما استقرت هانم بجانبه بهدوء اشتم فيها رائحة تبغ. قفز كالمسعور وأجلسها وقرّب وجهها من أنفه فوصلته رائحة خمر. وسدد لها صفعات عديدة وخرج من الغرفة. قضى ليلته في بهو المكان وغليونه على فمه. خرجت هانم منتصف النهار مطاطة في حذر. كان وراق تخلص من وجود عمران وآمنة فغادرا في غير اطمئنان وجلس يحتسى كوباً من الشاي صنعه بنفسه. لم يلحظ الباب الذى فتح من خلفه. نظر إلى هانم وبصوت لا تراجع فيه ورمى عليها يمين الطلاق. انهارت هانم على الأرض ناحبه وهي تتساءل ماذا ستفعل الآن وأين ستذهب. أتى من خلفهم صوت وداد منغماً فاجراً بلهجة أهل الشمال:

– لن تذهبي لأي مكان فأنت في منزلي بل سيخرج هو والآن.

بكل صلف فتحت حقيبتها وألقت أمامه على الأرض نفس حزمة المال التي أعطاها لها في الأمس مشيرة له بمغادرة المنزل الفوري. خرج والشرر يتطاير من عينيه وبصق على وجهها وعلى وجه زوجته وعلى الأرض عدد من المرات وغادر دون أخذ أي شيء من متاعه.

****

صبيحة اليوم التالي آمنة وشقيقها عمران وجدا المنزل مهجورا ومغلق. حارس العمارة لم ير وراق ولكن أكد لهم مغادرة الضيفة مع صاحبة المنزل بمتاعهم ولكنه أخفى عنهما دموع هانم المتقاطر حتى لا يقحم نفسه في مزيد من التساؤلات. نقلت آمنة قلقها إلى والدتها واكتفى عمران بالصمت وكان قد نقل لشقيقته عدم ارتياحه لوداد منذ أول يوم وأمّنت هي على ذلك.

لم تهدأ مديحة كانت تبحث عن هانم ووراق واستطاعت بعد لأي الحصول من حارس البناية على عناوين أخرى لوداد. بزيارة العناوين والسؤال تأكدت من سوء سمعة وداد ولكن لم تهتدى إليها. أخبرت صالح بكل شيء واقترحت إقحام الشرطة في الأمر. صالح لم ترقه فكرة إقحام الشرطة وتملكه خزى شديد أمامها وأمام أهل زوجته. اقترح البحث عن وراق وهو يضمر الهروب من كل شيء.

زوجته رقية شعرت بالصراع الذي يعاني منه فأسرّت إلى والدها فنصحها أن تبقى بجانب زوجها وتكون على حياد تام إذ لم يقحمها في الأمر وشرح لها بأنه لا يستطيع إقحام نفسه بدون أن يطلب صالح منه ذلك. فاجأهم صالح بعزمه على الرحيل وكان متوجساً من رفض أهل زوجته أن ترافقه والتصميم أن ينسحب وحيداً ولكن لم يحدث أي شيء وكان الجميع في وداعهما بقلب منقبض.

❊ ❊ ❊

(54)

عودة صالح وعروسه إلى المدينة وحيدين كأنهما عائدان من مأتم أفجعت عبدو وآمنة. اختلى عبدو وصالح مدة ليست بالقصيرة. لم تستطع آمنة الانتظار فاقتحمت خلوتهم. دهشت عندما وجدتهما صامتين كلٌ في مكان. دعاها عبدو للجلوس مع صالح وانسحب كأنه كان مختبئا منها طيلة هذا الوقت. أصبح أبناء عمران وأبناء هانم مسئولية في عاتقهما. الاجتماع الدائم لكل العائلة ظل في بيت عمران في نهاية كل أسبوع. صالح وعبدو يمنيان أنفسهم بعودة عمران ليحمل عنهم ذلك العبء ويعذبهما لقاء درية الأسبوعي التي لم تستوعب غياب والديها وتقضى وقتها بين الآخرين مرحة. في كل زيارة تمنى نفسها برؤية أبيها الذي تتعلق به. تعذبت آمنة وحياتها قائمة على كذبة مجدده آخر كل أسبوع أمام الأطفال.

****

نالت البلاد استقلالها في مهرجان مهيب جلس فيه صالح وعبدو في الصفوف الأمامية بدعوة خاصة من كبار التجار في المدينة. تمنى عبدو أن يكون عمران بجانبه ذلك اليوم وضمر في نفسه أن يذهب جنوب البلاد للبحث عنه مهما كلفه الأمر ولا سيما أن الهدوء قد عم الجنوب بعد إعلان الاستقلال. فاتح شقيقه صالح فبارك له وفى قرارة نفسه رفض الخوض في هذه المغامرة.

صالح رغم توازنه وحساب خطوته يحجم كثيراً عن اتخاذ قرار حاسم ويتفادى المواجهة بقدر الإمكان. كلما يتذكر موقفه الضعيف في أحداث وراق مع هانم ينقبض قلبه وتمنى لحظتها إذا كان عمران وشقيقه عبدو بجانبهم. تمنى صالح أن يجد شقيقه عمران أحياناً وأحياناً تمنى ألا يجده فهو يخشى مواجهته.

رقية تقربت من آمنة التي كانت حزينة في ضياع أخبار شقيقها عمران. وجدتها آمنة وحدها تتقاطر عيناها بالدموع فتوجست خلاف بينها وبين صالح. حاولت تهدئتها وأن تتقصى أسباب خلافهما. طمأنتها رقية بأن ما بينها وبين زوجها كل خير وهو متفان في إرضائها.. حاولت آمنة استرضائها والوصول إلى حزنها وتخيلت أن يكون الأمر شوقا إلى أهلها. بعد نحيب قالت لها رقية:

- أشعر أنى قدم شؤم عليكم وبظهوري في حياتكم حلت بكم المصائب من كل صوب.

ابتسمت آمنة وأحست برقتها بين يديها وشعرت بحبها لها صار من

داخل قلبها. طيّبت خاطرها وشرعت تحكى لها عن عائلتها وتماسكها وقالت لهما مطمئنة:

ـ أنت لست قدم شؤم بل أنت أخت أرسلها القدر لي في محنتي.

****

تسقّط عبدو أخبار عمران منذ بداية رحلته. أكد له الكثيرون من زملاء عمران القدامى في الشرطة في بعض النقاط إنهم قابلوه في رحلة الذهاب واحتفوا به. وصل جنوب البلاد وتجول شهراً بين المدن ولم يجد أثرا لعمران. بخبرة التاجر راقت له حركة التجارة بين جنوب البلاد وشمالها وكل البلاد المتاخمة لجنوب البلاد. وضع عبدو لبنة تجارة وأفلح في كسب ثقة الكثيرين بهبة الكياسة والمعرفة في خبايا التجارة. صمم على التواجد الدائم حتى يتم إجلاء سر اختفاء عمران. استأجر مساحة في السوق ومنزلاً متواضعاً وخلف عليه شريك كان في بداياته وجد فيه عبدو الطموح وتنقصه الخبرة.

انفرجت أسارير آمنة لعودة عبدو الذي لم يخبئ عنها شيء من رحلته ونقل لها تفاؤله في العثور على عمران ولم يجد أي شيء يشير إلى مصير قاتم واطمأنت آمنة لاطمئنانه. بعقلية تجارية نقل أفكاره لصالح الذى رحب بالفكرة وباركها. كان عبدو يفهم نفسية صالح جيداً فأعفاه من أي مخاطرة سفر للجنوب وتولى ذلك بنفسه.

****

أثقلت الهموم آمنة وقد غادرتها رقية في زيارة لأهلها. في ظهيرة يوم شمسه حارقة تمددت آمنة في الفناء في ظل غرفتها بعد أن بللت الأرض حولها بماء وفير وكان زوجها عبدو في رحلة في الجنوب ولا يوجد في المنزل غير صالح في الجزء الآخر من الدار. غفت في نوم ثقيل وهبت هلعة على طرق قوى على الباب استمر طويلاً ظنته في أحلامها. كان صالح قد سبقها إلى الباب ووجد أمامه شيخا وقورا لم يره من قبل. كان الشيخ مصاب بإرهاق شديد حاول صالح مساعدته ولكنه تماسك ورفض يده. دخل وجلس على المطرح الذي كانت عليه آمنة. دون أن تصافحه آمنة هرعت وأتته بكوب من الماء اجترعه دفعة واحدة.

من لهجة الضيف والإرهاق الذي عليه عرفت آمنة أنه قادم من القرية. حاولت أن تقنعه بالذهاب إلى غرفة الضيوف حتى تحضر له طعام. رفض بإشارة من يده وقال بحزم:

- لم يأت بي إلا الواجب.

عرفت آمنة مراده ولكن لم يتبق لهم أحد في القرية للعزاء في موته. دارت حيرة في وجه الرجل وهو يرى صالح وآمنة لم يختلجا للخبر الذي ظن أنه سيصلهما فور نطقه. جال في أعينهما وبدأ الريب يتسلل إلية فشقت عليه مهمته. قال مثبتاً عينيه على آمنه:

- لقد توفى شقيقك فبل خمسة أيام

تبلد ذهن آمنة وهلة وسألت كالغائبة:

- من شقيقي !!

كمن فاقت من حلم عميق صرخت:

– عمران.. أين وجدته. كيف قابلته. وكيف مات. من قتله؟

صرخات آمنة والدهشة في وجه صالح كانت رسالة وصلت كاملة للرجل فأمسك بآمنة وصار يهزها وقد أشفق عليها وصار يصيح بها:

– نعم عمران مات ابكى يا بنتي لا تفعلي هكذا.

احتفظ بها على كتفه وهي تنتحب وأمسك بيد صالح الذي هربت الدماء من جسده وأصبح شاحبا تماماً.

يحكى الرجل:

ـ عمران وصل القرية قبل خمسة سنوت مصاب في فخذه بالكاد يستطيع السير. يبحث عن جدته آمنة وجده عثمان وخاله خليل ولا يذكر بعدهما أحد. حاول الناس معه وتم عرضه على مشايخ ومستشفيات وتقديمة لبعض الذين يزيلون السحر بدون فائدة. استقر في غرفة جده خليل وصباحاَ يذهب إلى جزع شجرة الهجليج ووجدوه هناك أسلم روحه وكأن في وجهه ابتسامة.

عندما سأله صالح عن كايا تعجب الرجل وهو لا يعرف من هي كايا.

حكى له صالح كل ما حدث وأخبره بأن شقيقه عبدو لم ينقطع عن أرض الجنوب بأمل الوصول إلى عمران فرد عليه الرجل بملامة:

ـ لو كنت عملت بوصية أبيك نحو أهلك لوجدت عمران.

طأطأ صالح وقلبه ينقبض وكان قد نسى تماماً وصية عمران عن أبيه في خضم الأحداث

في طريق عودة الرجل برفقة ساجد وعابد إلى محطة القطار توقف كمن رأى شبحاً. رأى غجري يحمل قرداً فكاد قلبه يقفز من صدره وهو يرى فيه عمران الجد وهو في وهج فتوته. ترك الشابين بدون توضيح وهما يتبسمان يعتقدان أنه لم ير قرداً من قبل.

شهبة بنت عمران تعلقت بمعلمها الأجنبي وغادرت معه دون مباركة آمنه وعبدو. درية بنت هانم أقتلعها عمها بحكم قضائي بعد أن تسجل والدها مفقودا ولم تعد تراهم. سلمان ابن عمران حصل على منحة دراسية خارج البلاد.

انفصل عبدو عن صالح في أعمالهما. انتقل صالح بأعماله إلى الشمال مشاركاً إخوته هناك وانتقلت آمنة مع عبدو بارض الجنوب مع ابنتها طهرة وابنها مختار والتحق ابنيها ساجد وعابد إلى أبيهما مختار.

في بلاد الشمال في مقهى مكتظ بالزوار تختلط الأنفاس فيه برائحة التبغ وصيحات عمال المقهى العالية مع الضحكات والهمهمات انفرد شيخ أشعث بركن قصي أمامه زجاجة خمر وهو مشغول بنظافة الكوب بكم جلبابه المهترئ. على جانب المقهى توقفت مركبة أنيقة يقودها سائق بحصانين. هب شاب من المقهى عدواً لها بوجه متهلل. أصلحت هانم جلستها في المقطورة وكشفت الشال من وجهها أمام الرجل وسألته:

ـ كيف حاله

كأنه ينتظر السؤال رد عليها وهو ينظر إلى الشيخ:

ـ بخير يا سيدتي

دست في يده مظروفا منتفخا وأمرت السائق بالانصراف.

عندما تمرد جنوب البلاد كانت كايا في الأدغال مدججة بالسلاح وعصا خليل لا تفارقها بعد أن تكشف لها سرها من أحد الكهنة المسنين.

لازالت الربوة تطل على منحنى النهر وخلفها بقايا المنزل المتهدم ولم يبق منه إلا جدران متصدعة من كوخ عبدون.

***

انتهت